جرّاح البحر
وقصص أخرى

الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

جرّاح البحر وقصص أخرى

الدكتور

محمد عبده يماني

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

العزيزة مريم ....

وأنت رفيقة عمر ..

ودرب

ومنهج

اعتزازاً .. ووفاءً .. واعترافاً

بالعطاء ...

٧ رمضان ١٤٠٢

تحية

محمد عبده يماني

مقدّمة

كان في تقديري أن مجموعتي القصصية هذه لا تحتاج إلى مقدمة.

فلقد سبق لي أن أوضحت ما كنت أعتقد أن من الضروري إيضاحه للقارئ الكريم من أنني أرى أن على الأديب... والكاتب... أن يقول كلمته، بالقالب الفني الذي يرى أنه ملائم له ولموضوعه، ويترك للقرّاء والمشتغلين بالنقد مهمة الحكم له أو عليه... وله ـ بعد ذلك ـ أن يتأثر بالنقد باعتباره أحد العوامل، بل الروافد، لفنه.

وروافد الكاتب كثيرة، ومتعددة، ومتشعبة، وعلى قدر ما تكون الروافد عميقة، وأصيلة، بقدر ما يكون إنتاجه خصبًا... ومن أهم هذه الروافد: البيئة... والثقافة... والتجربة الذاتية... وإمتلاء ذهن الكاتب بشيء يريد التخفف منه بالتعبير عنه ومشاركة الناس له في حمله.

وقد حظي كتاباي القصصيان السابقان «اليد السفلى» و«فتاة من حائل» بنقد تراوح بين التقريظ المفرط، والتقييم الموضوعي، والإنكار المطلق (...).

أما الأول فلم أطمع به قط.

وأما الثاني فقد استفدت منه، واحترمته، لأنني وجدت فيه مجالًا للاستفادة دفعتني لإعادة النظر في عملي الحالي الذي أقدمه بين يدي القارئ الكريم.

ما الثالث فقد أخذ عليّ، أكثر ما أخذ، الإفراط في «الواقعية». . . وبعض «النقاد» رأى أن عملي في حقل الإعلام قد ترك بصماته على أسلوبي.

وأنا أعترف بأن أعمالي القصصية تصطبغ، فعلًا، باللوم الواقعي.

ولكنها واقعية يتمازج فيها الخيال والمثال مع الواقع، وقد يختلطان به. . وأحسب أن هذه المزاوجة ضرورية، في الأدب الواقعي خصوصًا، عندما تكون تصويرًا للواقع. . . ليس ـ بطبيعة الحال ـ نقلًا «فوتوغرافيًا» عنه أو له وإلا فأين «الفن» إذن؟. . . وما هو دوره؟

الواقعية ـ عندي ـ هي تصوير فني للواقع. . . والفنية، هنا، تقوم على الإبداع في اختيار شرائح من الواقع. . . والأسلوب الذي يعتمده قد يتباين سخرية منها أو حزنًا عليها أو رثاء لها.

ولقد حاولت أن يكون بعض ما أكتب إسهامًا متواضعًا مني في النتاج القصصي العربي من زاوية لم يألفها القارئ العربي كثيرًا، وهي البيئة السعودية المستمدة من مجتمعنا بما فيه من خصائص متميزة قد لا نجدها في بيئات أو مجتمعات أخرى. . . خصوصًا في مسقط رأسي: مكة المكرمة. . . حيث نشأت وترعرعت. . . وانطبعت في ذهني صور أخذت منها أحداثًا، واستوحيت من روحانيتها ما لا يخفى على القارئ، ويمكن تلمسه في بعض السطور التي كتبت.

ومن هنا كانت «الواقعية» التي تتراوح بين المأساة الدامعة. . . والفكاهة الساخرة التي تختلف، بطبيعة الحال، عن «المثالية» التي تعرض القيم المجردة وتبرزها وتركز عليها، وتجعلها المحور الذي تدور حوله الأحداث. . . ويتحرك الشخوص. . . فهي ـ بالضرورة ـ تختلف عن «الرومانسية» التي هي شكل من أشكال المثالية الرافضة للواقعية.

وأنا، في الحقيقة، لا أميل إلى هذه التقسيمات والقوالب الجامدة. . . أو البرازخ الفاصلة في الأدب. . . لأن الأدب من صنع

فنان يتوخى الإبداع بصرف النظر عن مدى توفيقه فيما توخى... وهذه التقسيمات النقدية الجامدة من: واقعي، ومثالي، ورومانسي، وسيريالي، وكلاسيكي، ولا معقول، فهي وإن كانت تقسيمات صحيحة نظريًا... إلا أنها متعسفة وجامدة... لأن الكاتب يتدفق مع طبعه... خصوصًا إذا كان موهوبًا، لأنه ـ عندها ـ يضع معاييره... ويقيم أصوله التي لا بد وأن تؤخذ بعين الاعتبار عند تقييم أعماله أو نقدها، وقبل وضعها في القوالب الجامدة للتأكد من مطاقتها «للمواصفات».

وأحسب أن قصصي تنتمي إلى واقعية لا تفارق المثالثة ولا تتناقض معها، بل هما تمتزجان بالمقدار المطلوب للتعبير عن الفكرة المقصودة.

فإذا نحن اتفقنا على أن الكاتب الصادق هو ابن بيئته، وأن أدبه تعبير فني عن البيئة التي عاش، أو يعيش فيها. وإن تجاربه الذاتية هي أهم روافد موضوعاته... فإننا نقر ـ دون شك ـ أن عليه أن يبتعد عن الأساليب التقريرية المباشرة... أو أسلوب المذكرات الخاصة، اللهم إلا إذا كان يقصد ذلك مباشرة، وإلا يكتفي بنقل الواقع كما هو وإنما ينفذ ـ بأسلوبه الخاص ـ إلى ما فيه من قيم ومثل فيغذيه بها ويغني صوره وأفكاره.

ولهذا... فالعمل الفني هو، بكل تأكيد، مسؤولية صاحبه وحده... ولا بد من الأخذ بوجهة نظره... والتعرف على معاييره بعيدًا عن المقاييس والمواصفات التقليدية الجامدة التي تسعى إلى جعل القصة أشبه ما تكون بخارطة هندسية فتطالب الكاتب أن يلتزم بمقتضيات هذه الخارطة وخطوطها واتجاهاتها، وبات متعذرًا أن تنقد عملًا فنيًا، كالقصة مثلًا، تأسيسًا على الخارطة التقليدية المعروفة... على ضوء ما نراه كل يوم من نتاج فني يضرب عرض الحائط بكل المقاييس حتى ما كان منها جديرًا، حقًا، بالاحترام كالوزن والقافية في الشعر.

إننا بتفاعلنا اليومي مع نتاج الحضارة الحديثة نقرأ بلغتنا أو

بلغات الآخرين. . . فنرى المسافة الشاسعة التي باتت تفصل ما بين المفاهيم الأدبية التقليدية وبين لغة العصر وأسلوبه مما ينعكس تلقائيًا على نتاج كتابنا وأدبائنا وشعرائنا. . . وإذا تذكرنا أن القصة هي في الأساس من الفنون المستحدثة في الأدب العربي. . . وإن لكل كاتب من كتّاب القصة أسلوبه الخاص. . . تبين لنا أن من الضروري إدخال هذه العوامل في حسابنا حين ننقد عملًا قصصيًا. . . فيكون مقياسنا هو سؤال أساسي:

ـ هل وفق الكاتب في أن يقول ما أرد أن يقوله أم لا؟

* * *

وعود على بدء.

قول إن المجموعة التي يضمها هذا الكتاب لا تخرج عما سبق أن قلته في أعمال أخرى، وهو أنها كلمات أردت أن أقولها من منظور تسجيل لمحات من حياتنا الآخذة في التحول السريع. . . وقد اخترت لكل منها القالب الذي رأيت أنه الأنسب. . . كما اخترت «اللهجة» التي رأيت أنها الأصلح لكل عبارة حوار سواء كان ذلك بالفصحى. . . أو الفصحى المبسطة ـ كما يقولون ـ أو اللهجة المحكية.

فلكل من هذه الوسائل اللغوية مهمة يؤديها ولو اجتمعت كلها في جملة واحدة.

ولا يجهل القارئ الكريم أن في اللهجة المحكية كلمات وتعابير لا تستطيع الفصحى أن تؤديها بنفس الدقة. . . بل إن في اللهجة المحكية كلمات ليس لها في الفصحى مقابل يعطي معناها نفسه.

واللغة هي ـ من قبل ومن بعد ـ كائن حي يستجيب لظروف العمل الفني ويتفاعل معه.

وهي تستجيب للبيئة والحاجة والظروف والمواقف. . . ولأنها أداة نقل فمن الواجب ألا تعلو على الطرف الآخر وتضطره إلى أن يشرئب بعنقه إليها.

وإنني لأتذكر جملًا قرأتها لتوفيق الحكيم في كتابه «فن الأدب» يقول فيها:

ـ «. . . إن وحي الأدب العربي لم يرد أن يتحرك لا إلى أعلى ولا إلى أسفل. . . لا إلى القرآن ولا نحو الشعب، وهكذا انقضت قرون وما زال هذا السد قائمًا بين النثر العربي بسجعه وبلاغته المصطنعة وبين خيال الشعب ورغباته وآماله، ولو أن أدباء الفصحى هدموا هذا السد من قديم الزمان ونزلوا عن بعض جمودهم وعبّروا عن مطالب عصرهم وشعبهم لكان الأدب العربي اليوم في مقدمة الآداب العالمية. . . لكن واأسفاه. . . إن الأدب الرسمي اللغوي قد وقف حائلًا دون مجرد الاقتراب من كنوز الشعب».

وأخيرًا. . . فلقد بات الكتاب الآن بين يديك، أيها القارئ الكريم، تحكم له أو عليه. . . وحسبي أنني قد ساهمت بهذا الجهد المتواضع النابع من البيئة السعودية. . . ومن هذا البلد الطيب.

والله من وراء القصد.

محمد عبده يماني

أريده حباً

أريده حبًّا

أريده حبًّا

فتحت عفاف عينيها، وراحت تنظر إلى سقف الغرفة وهي تتحرك في تكاسل قبل أن تنهض من السرير، وألقت نظرة على زوجها ماجد، فدهشت إذ رأته ما زال مستغرقًا في النوم ولم يستيقظ مبكرًا كعادته.

وارتسمت على شفتيها ابتسامة لأنها وجدت الفرصة لتسخر منه، وهو الذي كان يعيرها بكثرة نومها.

ولكنها ما لبثت أن قطبت جبينها في قلق... فقد كان هادئًا هدوءًا مريبًا... بل لقد بدا جامدًا بلا حراك.

وغاص قلبها بين جبينها، وأسرعت تمسك بيده لتروعها البرودة التي كانت تسري فيها، فراحت تهزه بقوة وهي تناديه باسمه في جزع.

ولكنه ظل على حالته.

وتزايد ذعرها، فراحت تتلمس ما يدلها على أنه على قيد الحياة... فوضعت رأسها على صدره ولكنها لم تسمع ضربات قلبه... ومررت يدها أمام أنفه فلم تحس بحرارة أنفاسه، وفي مثل ومض البرق قفزت من السرير وهي تنادي بأعلى صوتها الذي خنقته المفاجأة.

ـ حسن... حسن...

وسارعت، متعثرة، إلى التلفون تطلب أخاها وتوقظه من نومه راجية منه أن يأتي بطبيب في الحال بعد أن أوجزت له في عبارات متقطعة ما حدث.

وتجمع الأطفال عند الباب وهم يفركون عيونهم من آثار النوم

متسائلين عن السبب في صياح أمهم الذي أيقظهم في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

* * *

ـ البقية في حياتكم... إنا لله وإنا إليه راجعون.

وشهقت عفاف إذ سمعت كلمات الطبيب الذي غادر الغرفة وقد بدا على وجهه الحزن والأسى... وقالت بصوت مختنق وكأنها لا تصدق ما قاله الطبيب:

ـ ولكنه لم يكن يشكو مرضًا يا دكتور.

ـ إنها السكتة القلبية.

ـ كيف؟... إنه صحيح الجسم... وفي أوج شبابه كما ترى يا دكتور.

ـ الأعمار بيد الله... والموت لا يحتاج إلى أسباب كثيرة.

وأطرق الطبيب وأردف وهو يجتاز الصالون متجهًا نحو باب الخروج:

ـ عظّم الله أجركم يا جماعة.

وقال حسن مخاطبًا شقيقته:

ـ خدي الأولاد يا عفاف وخليهم جوه.

وقالت عفاف ذاهلة وهي تتهالك على المقعد في تخاذل:

ـ ادخلهم إيه... واعمل إيه... خلليني في حالي... خلليني في همي... في المصيبة اللي ما كانت على البال.

ـ خللي إيمانك بالله... وارضي بقضاء الله وقدره... خدي الأولاد للداخل.

ونهضت تريد أن تأخذ الأولاد، كما قال أخوها، ولكن ساقيها عجزتا عن حملها فتهالكت على الأرض وغطت وجهها بكفها وهي تبكي في حرقة شديدة.

وتجمّع الأولاد حولها، وطوّق الصغار عنقها بأذرعتهم الغضة

وهم يبكون لبكاء أمهم الذي لم يعرفوا له سببًا، فشعر حسن بالألم يمزق قلبه والحيرة تنتابه فما يدري كيف يتصرف... وأخيرًا تمالك نفسه، فبدأ يتصل بالأهل والأقارب، وجاء بعض الجيران الذين أثار بكاء عفاف انتباههم، وارتفع البكاء هنا وهناك بصورة كادت أن تخرج حسن عن صوابه، فراح يصيح بعصبية طالبًا من السيدات أن يتوقفن عن البكاء، ولكن دون طائل.

مضت على الفاجعة ثلاثة أيام كانت والدة عفاف تلاحظ خلالها مدى ما تشعر به ابنتها من حزن وألم، فهي لا تكاد ترى ولدًا من أولادها حتى تنهمر الدموع من عينيها بغزارة وتروح تردد عبارات التفجع والأسى على الزوج الراحل.

وقالت الأم لابنتها:

ـ اسمعي يا ابنتي... لا فائدة من الحزن والبكاء... ولتكن ثقتك في الله كبيرة... إنه، ﷻ، لا يضيع أحدًا... والرزق في كل الأحوال على الله.

وقالت عفاف في ألم:

ـ يا ماما أنا معك... رزق الأولاد على الله... ولكنني أحمل هم تربيتهم.

ـ يا ابنتي... إن الذي يرزقهم يهيئ الأسباب لتربيتهم.

ـ ونعم بالله يا أمي... ونعم بالله.

وخلال الأيام التي تلت ذلك الحديث، لاحظت الأم أن ابنتها تحاول جاهدة أن تتمالك نفسها، وأن تؤدي واجبها تجاه الزوار من المعزين بجلد يائس... فقد كانت عفاف تتمنى لو أن الناس يتركونها، وأبناءها، في حالهم وأن يدعوها تتدبر أمورها في روية... وزاد في ضيقها ما كانت عجائز الأسرة يلقينه عليها من نصائح:

ـ لا بد من أن تحرصي على عدم الخروج من المنزل أثناء العدة... يجب أن تكوني متلفعة دائمًا بالسواد... إياك ووضع

العطور... إياك وفتح الراديو... إياك وفتح النوافذ إلا للضرورة القصوى.

وكانت عفاف تستمع إلى هذه النصائح بصبر دون أي تعليق، فهي تهز رأسها بالموافقة على كل كلمة، مع علمها أن بعضها شرعي مقبول، وبعضها تقليد متوارث لا مبرر له.

* * *

وتتالت الأيام، وبدأت الحياة تعود إلى حالتها الطبيعية في المنزل، وفتحت المدارس أبوابها، ولاحظت عفاف أن ما كان لديها من مال قد بدأ ينفد رغم التزامها الاقتصاد الشديد في الإنفاق، ولكنها طمأنت نفسها بأنها لا تلبث أن تتسلم معاش زوجها التقاعدي، فتنتظم أمورها المالية من جديد.

واتصلت، بادئ الأمر، بأخيها عصام تسأله عما تم في موضوع معاش التقاعد، وما كان أشد دهشتها حين فهمت منه أن أحدًا من أهلها أو أهل زوجها لم يهتم بالموضوع... حتى حسن الذي أبدى لها رغبته في زيارتها ـ عندما اتصلت به باكية ـ راح يردد عبارات الأسف والاعتذار.

وقال لها عندما جاءها في اليوم التالي:

ـ أنا آسف جدًا... لقد فاتتنا مسألة مراجعة مصلحة التقاعد بشأن راتب المرحوم... ولكنني باشرت في اتخاذ الإجراءات اللازمة هذا الصباح بمجرد أن أخبرني عصام بذلك.

وهمست عفاف في إعياء وهي تتخذ مكانها أمام أخيها في الصالون:

ـ شكرًا لك.

ـ لا شيء يستحق الشكر... وأود أن تتأكدي من أننا، جميعًا، لن نتخلى عنك وعن أبنائك... فأنت أختنا... وهم أبناؤنا... وأقسم لك إنني لا أفرق بينهم وبين ولديّ علاء ونجلاء.

واختنق صوت عفاف تأثرًا وهي تجيبه بالشكر، ونهضت تريد أن تعد الشاي، فإذا بجرس الباب يرن ويبدأ أبناؤها بالتوافد إلى البيت على فترات متقاربة عائدين من مدارسهم... وجدي ـ وهو في السابعة من العمر، ثم أحمد ـ وعمره خمس سنوات ـ، ثم عفت ـ وعمرها تسع سنوات ـ، ثم حنان ـ وهي في الثانية عشرة ـ، وأخيرًا جاء فيصل ـ الذي كان في الرابعة عشرة ـ والذي كان أبوه الراحل يدعوه «عريس البيت».

وكان كل من الأبناء يفاجأ بوجود خاله حسن، فيقف برهة مشدوهًا، ثم يندفع إليه ويرتمي في أحضانه ويطوق عنقه بذراعيه.

والتفَّ الأبناء ـ إذ اكتمل جمعهم ـ حول الخال يكررون الترحيب به والتعبير عن شوقهم إليه... وراح حسن يجيل بصره فيهم وكأنه يراهم لأول مرة... وتجسم أمامه فجأة هول المأساة التي أصابت هذه الأسرة بفقدها لكبيرها وأغرورقت عيناه بالدموع عندما سمع وجدي يسأله بسذاجة:

ـ يعني يا خالي لنا الله؟... ما شفناك من زمان.

ـ سامحوني يا حبيبي... كنت مشغول.

ـ بس ما نقدر نسامحك.

ـ ليه يا حبيبي...؟

ـ علشان إحنا ما عندنا بابا داحين.

وضغط فيصل على شفتيه، وحاول أن يغمز أخاه الصغير كي يتوقف عن هذا الحديث، وتدخلت الأم قائلة بسرعة:

ـ خالك مشغول يا حبيبي... لكن إن شاء الله نشوفه دايمًا.

وبعدما قضى حسن بضع ساعات مع أبناء أخته وهو يتلقى مظاهر محبتهم ويحاول أن يبالدهم إياها بروح الأب، غادر المنزل وهو يؤكد لعفاف أنه سيتابع إجراءات معاملة تقاعد زوجها بنفسه ويكرر اعتذاره عن عدم قيامه بذلك من قبل.

* * *

وحين تلقت عفاف خطابًا رسميًا ينبئها بما يقرر بشأن معاش زوجها التقاعدي، شعرت بأن المبلغ أقل من أن يفي بالمتطلبات الضرورية للأسرة، ولكنها عقدت العزم على أن تتدبر أمورها مهما كانت الظروف، وألا تمد يدها إلى أي إنسان حتى إلى أخوتها.

وتوجهت إلى غرفة مكتب زوجها تريد وضع الخطاب في أحد الأدراج، ولكنها وجدت نفسها إذ دخلت الغرفة، تهيم في سماء الذكريات، فتجيل بصرها في أرجاء الغرفة بحنان، وتستعيد ذكرى زوجها وهو مكب على المطالعة والكتابة في هذه الغرفة، فجلست على كرسيه الذي لم يجلس عليه أحد منذ رحيله، وراحت في دوامة من الماضي تسترجع أحداثه وهي تنقل عينيها عبر الصور التذكارية العديدة التي كانت موضوعة على طاولة المكتب في إطارات أنيقة.

وتناولت إحدى تلك الصور، وأخذت تتأملها بكثير من العناية.

كانت الصورة تمثل زوجها إلى جانب صديقه الشيخ زكي الذي كان مديرًا لإحدى المؤسسات الكبرة وزميلًا لزوجها في الدراسة.

وتذكرت الشيخ زكي في الحال.

فهو معروف بطيبة قلبه وحسن أخلاقه وحبه لمساعدة الآخرين، فلمعت في ذهنها فكرة: لماذا لا تطلب من الشيخ زكي أن يسعى لإعادة النظر في معاش زوجها التقاعدي، بحكم مركزه المرموق وعلاقاته الطيبة وصداقته العميقة مع زوجها الراحل؟

وراحت تبحث عن رقم تليفون الشيخ زكي وهي تحدث نفسها بأن هذا لا يتعارض مع قرارها بعدم طلب العون من أحد، فالشيخ زكي قادر على أن يساعدها أكثر مما يستطيع أخوتها، فهي لا تنسى أن هؤلاء الأخوة قد أهملوا موضوع المعاش إلى أن اضطرت إلى تذكيرهم به، والمرارة التي شعرت بها إذ ذاك عندما تبين لها أن هذا الأمر لم يخطر ببال أحد من أهلها أو أهل زوجها.

وعندما أتاها صوت الشيخ زكي، من مكتبه في المؤسسة، عبر التلفون يتساءل عن المتحدث أحست بخجل شديد، وفكرت في أن

تعيد السماعة دون كلام ولكنها استجمعت شجاعتها وهي تتذكر المعاش الذي تقرر لها ولأبنائها، وردّت عليه تعرّفه بنفسها.

وأثلج صدرها أن الرجل حياها بحرارة مكررًا استمطار الرحمات على الراحل العزيز، متسائلًا عما يمكن أن يفعله من أجلها.

وبكلمات مضطربة شرحت له فكرتها... إنها تعرف أن هناك مجالًا لمساعدتها في شأن معاش زوجها، وأنها لا تريد أن تطلب عونًا ماديًا من أحد.

وقاطعها الشيخ زكي قائلًا في عطف.

ـ فهمت... فهمت... ولا يهمك... اعطني رقم الخطاب وسوف أبذل جهدي.

* * *

بعد أسبوع جاء حسن إلى منزل أخته وفي عينيه يرتسم عتاب واضح.

قال لها أن الشيخ زكي قد اتصل به تليفونيًا وأنبأه أنه قد وفق في مسعاه، وأعطاه رقم المعاملة التي أنجزها طالبًا إليه أن يراجع الجهة المختصة بشأنها.

وأضاف حسن مختتمًا كلامه:

ـ ما كان يحسن منك أن تطلبي من الشيخ زكي ذلك... كان يمكن أن أقوم به أنا أو أحد أخوتنا.

وبدون وعي منها، انهمرت الدموع من عينيها وقالت لأخيها في حدّة:

ـ أنتو فين أنتو؟... مضت المدة دي منذ وفاة زوجي وأنتو ما تسألوا غير في المناسبات... يعني أنتو نسيتو أنني أم أيتام وعندي كوم لحم في البيت؟ أعمل إيه؟... وعملت إيه غير أني كلمت الشيخ زكي... وأنت عارف أنه رجل موفق... وأهو... قضى المسألة زي ما بتقول وربنا رزق الأيتام بالشيء الذي يعينني على تربيتهم... الله

يرحم أيام «الزقاق».... وأهل «الزقاق» ورجال «الزقاق»... وشهامة أهل «الزقاق».

وأطرق حسن برأسه إلى الأرض، فقد اعترف في أعماق نفسه بصدق عفاف، وراح يستعرض في ذهنه صور «الزقاق».

«زقاق عانقني»... وأهل حارة «الشامية» و«الفلق».

لقد سمي «الزقاق» بهذا الاسم لأنه كان ضيقًا جدًا... وصغيرًا جدًا حتى ليكاد المار فيه أن «يعانق» الآخر لشدة ضيقه.

كان الناس يعيشون في «زقاق عانقني» كأسرة واحدة... يعرفون بعضهم البعض تمام المعرفة... وكل طفل في الزقاق يعرفون أمه وأباه وكل شيء عنه.

كان أي رجل في الزقاق يعتبر نفسه مسؤولًا عن جميع أبناء الزقاق... يراعي سلوكهم... ويتفقد أحوالهم... وكل فتاة في الزقاق تحسب ألف حساب لرجال الحي... فهي تعرف أنهم يغارون عليها... ويحترمونها... ويتسابقون إلى أداء الواجب نحوها... فتاة كانت أم سيدة... كبيرة كانت أم صغيرة.

إنهم، في الزقاق، يحترمون الفتاة... ويجلون السيدات... ويشفقون على العجائز... ويرعون مصالحهن... بل إن أيًا منهم ليخجل إذ يمر بمنزل أية أرملة ويراها وقد وضعت «لوح العيش» أما منزلها ـ كدليل على أنه ليس عندها من يأخذ اللوح إلى الخباز ـ دون أن يبادر إلى حمل اللوح ليخبز ما فيه ويعود به.

وإذا ما أصيب أي منهم بمرض فما عليه إلا أن ينادي أقرب جار أو أي مار فيسرع إلى نجدته ومساعدته دون أي تردد.

لقد كان «أهل الزقاق» ناسًا طيبين يتسابقون إلى فعل الخير في شهامة.

كانوا ينامون مبكرين... ويستيقظون مبكرين... شأنهم في ذلك شأن أهل مكة المكرمة.

بعضهم كان يشتغل بالتجارة. . . وبعضهم كان يعمل في مجال البناء. . . وقليل منهم من كان يعمل موظفًا لأنهم كانوا يعتبرون هذا العمل أمرًا مخجلًا، فهم يسمون الموظف ـ إذ ذاك ـ «ولد خرقة» وكأنه مصنوع من القماش دلالة على عدم مواجهته للصعوبات. . . بينما «ولد الحارة» يفترض فيه أن يكون قوي البنية. . . شديد الصلابة. . . متوثب الخطى.

واستغرق حسن في أفكاره حول «الزقاق».

في الصباح الباكر كان أهل الزقاق ـ كبارًا وصغارًا ـ يتجهون إلى الحرم المكي الشريف لأداء الصلاة. . . وكانوا يحرصون على صلاة الفجر جماعة على وجه الخصوص لأنها صلاة المسجد، وفيها يقرأ الإمام سورة السجدة. . . وتعمق هذا الشعور في نفوس الناس على مر الأيام، كما تعودوا على أن يتوجهوا بعد الصلاة إلى أعمالهم في ذلك الوقت المبكر، خصوصًا من كان منهم على علاقة مباشرة بالناس كالفوالين وأصحاب محلات «المطبّق» و«المعصوب» و«المقادم» و«التميس».

كان من طباع هؤلاء الناس أنهم كانوا يحبون الخير لبعضهم. . . كان صاحب الدكان يستحي أن «يستفتح» ـ أي يبدأ البيع ـ قبل جاره. . . وإذا تصادف أن استفتح فإنه يدفع بزبونه التالي إلى جاره كي يستفتح كذلك.

كانوا ناسًا طيبين بالفعل. . . قد سمت مشاعرهم فوق ماديات الحياة.

في هذا «الزقاق» ولدوا جميعًا، وقضوا أيام حياتهم الأولى، وتشربوا عادات «أهل الزقاق» وتقاليدهم.

كانوا يقيدون تصرفات النساء ويغارون عليهن. . . ولكنهم كانوا يؤدون واجبهم نحوهن. . . ويرعون شؤونهن. . . فكانوا مجتمعًا متكافلًا تحكمه المثل العليا والشهامة والأخلاق والقيم والأعراف.

وانتبه حسن من خواطره التي خرج منها بأن أخته كانت على حق

فيما قالته، وأدرك أنه قد قصَّر فعلًا في حقِّها ولكنه هون الأمر على نفسه قائلًا لها:

ـ سامحينا يا عفاف... الاعتراف بالحق فضيلة... وصدقيني أني ما زعلت لأنك كلمتي الشيخ زكي لأنه رجل محترم وفاضل ومعروف بحب الخير... وهو، على أية حال، صديق المرحوم... بس أنا خفت من كلام الناس.

ـ برضه كلام الناس؟... يا سيدي يتكلموا زي ما يبغوا... الله هو المطَّلع على كل شيء... وهو يعرف الحقيقة... والحمد له على كل حال.

واختنق صوتها، فانخرطت في بكاء مسموع لم تفلح محاولات حسن في التخفيف منه.

* * *

عندما فتحت عفاف الباب وجدت شخصًا لا تعرفه يقول لها أنه سائق للشيخ زكي وأن مخدومه قد بعث به ليأخذ الأولاد علّهم يروّحون عن أنفسهم بعض الشيء.

وفوجئت عفاف بهذه اللفتة غير المتوقعة من الشيخ زكي، فظلت برهة صامتة ثم قالت للسائق بلطف:

ـ أرجو أن تبلّغ سلامي للشيخ زكي... وأن تقول له أن يدع ذلك إلى فرصة أخرى... لأن الأولاد غير مستعدين الآن.

وما إن انصرف الرجل حتى سارعت عفاف إلى التلفون لتتصل بالشيخ زكي، فقد خشيت أن يفسِّر جوابها على غير ما قصدت منه.

وأجابها الشيخ زكي أن ذلك الخاطر قد طرأ على باله بعدما استنتج من حديثه السابق معها ما تعيش فيه من ضيق نفسي، وأنه وجد أن الترويح عن الأولاد قد تكون فيه فائدة لهم ولها... وشكرت عفاف له هذه الأريحية وطلبت منه أن يبعث بسائقه يوم الجمعة المقبل ليأخذ الأولاد إلى فلة مخدومه ذات الحديقة الواسعة.

وهكذا أصبحت زيارة فلة الشيخ زكي من المواعيد شبه الثابتة في حياة الأولاد، كما أصبح عطفه عليهم واهتمامه بشؤونهم حديثهم الدائم المفضل... وظل التلفون هو الصلة الوحيدة ما بين عفاف والشيخ زكي، فهو لم يحاول قط أن يزورها في المنزل لتفقد شؤونها، لإدراكه أبعاد هذا الأمر بالنسبة للناس كما أنه لم يتجاوز حدود شؤون الأولاد في أحاديثه إليها.

وبات واضحًا أن كلًا من الرجل والمرأة يحظى بنصيب من اهتمام الآخر، بصرف النظر عن نوعية هذا الاهتمام.

وفوجئت عفاف، مرة، بزيارة بعض أهلها وبينهم أمها وأخوها عصام، وراح هؤلاء يتطرقون بالتلميح إلى الشيخ زكي والتحذير من عاقبة ما توهموه من علاقة بينه وبين عفاف.

ولكن عفاف بادرت إلى التطرق للموضوع مباشرة، فشرحت حقيقة الصلة ما بين الشيخ زكي وأولادها وقالت وصوتها يختنق بالبكاء أنها على استعداد لأن تمنع الأولاد من زيارة الشيخ شريطة أن يكفيها الناس شرهم، وقالت في ختام حديثها:

ـ يا ناس... حرام عليكم... سيبوني في حالي... خلوني أعرف أربي أطفالي... سيبوني في حالي... يعني لا خيركم ولا كفاية شركم؟... ليش بتعاملوني كده... ليش؟.

وأجاب عصام:

ـ يا عفاف... أرجوكي... لا تفهمينا غلط... إحنا بس شايلين هم كلام الناس.

وفجأة تحدثت الأم التي كانت صامتة طوال الوقت، وكان صوتها خافتًا متئدًا وكأنها تريد أن تؤكد كل كلمة تقولها:

ـ أنا كنت ساكتة طوال هذه الأيام... وما كنت أحب أن أتدخل في حياة عفاف... لأنني واثقة منها ومن تربيتها وأخلاقها.

وأدارت وجهها في الحاضرين وهي تستأنف كلامها الهادئ المتئد:

ـ كنت أراقبكم. . . وأشوف أنتو بتعملوا إيه. . . وكيف رايحين توقفوا مع أختكم. . . ويا خسارة. . . أقولها بكل أسف. . . إنكم سبتوها لوحدها وصبرت. . . سبتوها لوحدها وكافحت. . . وكل واحد منكم كان مشغول بنفسه. . . وما كنت، هيّ والأولاد، يشوفوكم مقصّرين. . . مقصّرين. . . والعيب فوقكم وتحتكم. . . وترى خلاص. . . طفح الكيل وزاد العيار. . . فاهمين؟. . . اتركوها لوحدها وأنا من بكرة إن شاء الله جاية عندها. . . أسكن معاها. . . ورزقي ورزقها على الله. . . ولا عاد أسمع فيكم واحد يقول حاجة. . . وصدقت عفاف. . . الله يرحم أيام الزقاق.

والتفتت الأم إلى عفاف قائلة:

ـ وإنتي يا عفاف يا بنتي. . . ما أقول غير بيّض الله وجهك. . . واللي ينقص من خدك يوفيه جدك يا بنتي.

وقبل أن يفتح أحدهم فمه بكلمة نهضت الأم وهي تقول:

ـ أنا رايحة البيت أجمع حاجاتي.

* * *

وهكذا دخل حياة البيت الذي فقد الوالد كثير من السعادة بقدوم الجدة التي ملأت حياة ابنتها وأولادها. . . فقد زاد تعلق الأولاد بجدتهم التي كانت تسامرهم وتقضي معهم أوقاتًا طويلة وتحكي لهم ما تعرف من حكايات الشاطر حسن وبلاد واق الواق والدجيرة.

وأحست عفاف بأن وطأة الحياة قد خفّت عن كاهلها كثيرًا بعد قدوم والدتها. . . فقد آنست وحشتها وملأت حياتها. . . وشاركتها ظروفها وهي تشعر بأنها تؤدي واجبًا نحو ابنتها لا يقل عن واجباتها الأخرى تجاهها.

وجاء حسن ذات يوم يحمل إلى الأسرة اقتراحًا، وهو أن يرتب لها رحلة إلى خارج المملكة تقضي خلالها بعض الوقت في الراحة والاستجمام، وأن يكون مكان الرحلة هو مدينة لندن.

ورحبت عفاف وأولادها، فقد وجدت أن ذلك يمكن أن يدخل على حياة الأولاد شيئًا من التغيير، وكان واضحًا أن حسن قد شعر بتقصيره تجاه أخته، فرأى أن يرتب هذه الرحلة تعبيرًا عن اهتمامه.

والتفت حسن إلى فيصل وهو يختتم كلامه قائلًا:

- وآهي فرصة لك يا عريس البيت إنك تقوّي نفسك باللغة الإنجليزية.

وأطرقت عفاف في تأثر، فقد رأت أن حياتها الرتيبة قد بدأ يدخل عليها بعض التغيير... وازدادت سعادتها للفرح الطفولي العميق الذي بدا على الأولاد وهم يصعدون إلى الطائرة... ثم وهم يختارون أماكنهم وكل منهم يصر على أن تكون جلسته بجانب إحدى النوافذ.

ثم كانت المفاجأة التي لم تكن عفاف تتوقعها.

فقد سمعت الأولاد يصيحون بصوت واحد تنبض الفرحة والابتهاج فيه:

- عمو زكي... عمو زكي...

والتفت عفاف، فرأت رجلًا يحمل حقيبة في يده يدخل إلى الطائرة، ولم تجد عناء كبيرًا في التعرف عليه لأنها حفظت ملامحه من صورته مع زوجها.

وأقبل الرجل على الأطفال يحييهم ويداعبهم، ويعاتبهم لانقطاعهم عنه، ولم يلتفت نحو عفاف فهو لا يعرف وجهها ولم يسبق له أن رآها قط.

وانحنت عفاف على أمها الجالسة بجانبها قائلة لها إن هذا هو الرجل الذي مدّ لها يد المساعدة والعون، وأحاط أطفالها بعنايته وعطفه، فهزّت الأم رأسها في فهم وراحت تتأمل الرجل بعناية.

وانطلقت الطائرة متخذة وجهتها نحو العاصمة البريطانية، وأخذ فيصل يتحدث إلى الشيخ زكي فروى له سبب الرحلة وظروفها، وما إن فهم الرجل أن أم فيصل برفقتهم حتى نهض في الحال، واتجه إلى حيث أشار فيصل ليحيي عفاف وأمها وقد أدهشته المفاجأة.

كان يتخيل عفاف امرأة متقدمة في السن... لا يدري لماذا... وأن تكون الأيام القاسية قد تركت آثارها على وجهها، فإذا به يتبين أنها لم تتجاوز العقد الثالث من حياتها إلا بسنة أو سنتين... جميلة... بل رائعة الجمال... بينما كان واضحًا على أمها أنها كانت لا تقل عنها، في ماضي الأيام، جمالًا وأن معالم هذا الجمال ما تزال واضحة على وجهها الذي أكسبه بياض شعرها مهابة ووقارًا.

وانتبه إلى نفسه أخيرًا، فلعله قد أطال التأمل في المرأتين أكثر مما ينبغي فاستأذن منهما وعاد إلى مقعده بجوار فيصل وقد تلاطمت في رأسه أمواج من الأفكار.

لقد كان واضحًا أنه حين مدّ يد العون إلى السيدة التي فقدت زوجها فإنه لم يفعل ذلك إلا بدافع ما جبل عليه من الطيبة والرغبة في مساعدة الآخرين، ووفاء منه لذكرى صديقه الراحل.

وكان اهتمامه بالأولاد، ورعايته لهم للسبب نفسه ليس غير، ولم يخطر بباله قبلًا أن صلته بهذه العائلة يمكن أن تتعدى تلك الحدود.

ولكنه شعر بأن الأمر قد اختلف ـ الآن ـ كثيرًا.

فلقد احتلت النظرات القليلة التي ألقاها على عفاف جانبًا كبيرًا من تفكيره فراح يستعيد تقاطيعها في ذاكرته، بل إنه لم يتمالك من أن يختلس إليها نظرة أخرى وهو يتظاهر بأنه يجيل بصره في أرجاء الطائرة... ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه قائلًا أنه لا يجوز له أن يتعدى الحدود التي كانت لعلاقته مع هذه العائلة.

وإذ اقتربت الطائرة من لندن قال الشيخ زكي لفيصل الجالس إلى جانبه:

ـ هل اتخذتم الترتيبات للحجز في أحد الفنادق؟

ورد فيصل بالإيجاب وأضاف بأن خاله قد اتخذ كل الترتيبات اللازمة، وأن معهم عنوان الفندق في قلب المدينة.

وقال الشيخ زكي:

ـ إن سيارتي تنتظرني في المطار... فإذا رغبتهم نقلتكم معي إلى فندقكم... سل الوالدة إذا كانت لا تمانع في ذلك.

ونهض فيصل متجهًا إلى أمه، وهمس في أذنها بما قاله عمو زكي، فترددت برهة ثم هزت رأسها بالموافقة، وكان زكي يختلس النظر إليها مترقبًا جوابها، وحين رأى إيماءتها استرخى في مقعده بارتياح وقد شعر بأن ذلك قد سره... لسبب أو لآخر.

* * *

والواقع أن وجود الرجل قد يسر على العائلة كثيرًا من الصعوبات، إذ تولى الإشراف على شؤونها إلى أن غادرت المطار، فجاءها بحقائبها ثم قادها إلى حيث وقفت سيارة «مرسيدس» فارهة ذات ثمانية مقاعد، وراح يساعد الأطفال على الركوب والجلوس، الأمر الذي علقت عليه الأم والسيارة تنطلق إلى قلب المدينة:

ـ سامحنا يا ولدي... زحمناك وتعبناك.

ولكن زكي أجاب دون أن يدير رأسه نحوها:

ـ تعبكم راحة يا ست أم حسن... هذا واجب.

وتدخل الصغير وجدي قائلًا باندفاع:

ـ يا ستي ما في تعب على عمو زكي... هوّ زي بابا.

وساد الصمت في السيارة، ولم يعلق أحد بشيء على كلام الطفل، ولكنه أحدث أثره في نفس زكي وعفاف على السواء.

وعندما وصلت السيارة إلى الفندق، عني زكي بالعائلة وبإجراءات نزولها في الفندق وكأنه ـ كما قال وجدي ـ أبو الأطفال.

وبعدما اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام، ودعهم وانصرف إلى الشقة التي يملكها في لندن وطيف عفاف لا يغيب عن ذهنه.

* * *

لقد راح يستعيد تفاصيل علاقته بهذه العائلة منذ زمالته مع الأب الراحل... وصداقتهما الوطيدة طوال حياته... ثم ما كان منه من مبادرات أبوية نحو الأطفال لم يكن دافعها سوى طبيعته المحبة للخير والتي لا تداخلها أية غايات خاصة.

وما يدري كيف بدأ ذهنه يتجه إلى الوضع القاسي الذي تعيشه أرملة شابة على هذا المقدار من الجمال والشباب.

ووصلت به أفكاره إلى نفسه... إنه متزوج... هذا صحيح... ولكنه لم يرزق من زوجته أطفالًا... وهذا أمر يؤلمه... ويثير أعصاب زوجته... ويتسبب في كثير من الإشكالات في البيت... مع أن الزوجة تعلم أن الأطباء قد أجمعوا على أنه سليم الجسم، وأن الزوجة هي المسؤولة عن عدم إنجابها لأطفال يملأون عليهما حياتهما كما هو الشأن لدى معظم الناس.

وتنهد في حزن، وقد بدا له أن عليه أن يواجه مشكلتين متناقضتين معًا: مشكلته الشخصية مع زوجته، وهي مشكلة بلا حل، ثم مشكلة تلك الأرملة الشابة ذات البنين والبنات والتي فقدت عائلها، واحتاجت إلى عونه ومساعدته... ولكن إلى أي حد هي في حاجة إلى ذلك العون؟... وما هو مدى تلك المساعدة؟

لم يتوصل إلى رأي... بل تسلل النوم إلى عينيه قبل أن يجد جوابًا على تلك التساؤلات.

وكان أول ما قفز إلى ذهنه من أفكار عندما استيقظ في اليوم التالي، هو أن يذهب إلى الفندق الذي تنزل فيه العائلة... ليتفقد أحوالها... ويحاول أن يجعل من زيارتها لمدينة الضباب ممتعة تحفر في أذهان الأولاد والمرأتين ذكريات حلوة لا تنسى.

وكان يشعر بالسعادة الفائقة تملأ قلبه وهو يرى الأطفال وأمهم وجدتهم يعبّرون عن مثل سعادته عندما رتّب لهم رحلة نهرية في «التيمز» ثم عشاء حافلًا في مطعم هندي... وزيارات أخرى لمعالم المدينة لم يسبق لأحد منهم أن عرفها أو جربها.

ولقد تزايدت سعادته عندما تناثرت عبارات الشكر من الأطفال ومن أمهم وجدتهم، بعد أن قضت العائلة أيامها في لندن برفقة الشيخ زكي الذي كان يلازمها باستمرار وكأنه فرد منها، بل وكأنه ما جاء إلى لندن إلا ليرافق العائلة في جولاتها بالمدينة وضواحيها، والتمتع بمباهجها ومشاهدها... ولئن كانت علاقته وثيقة بالأولاد من قبل فقد توثقت ـ أيضًا ـ مع عفاف وأمها، مع حرصه الشديد على أن يلتزم حدوده كرجل يرعى، في بلاد الغربة، أسرة صديق راحل.

وكانت الأم، بحكم تجربتها وخبرتها بالحياة، ترقب تلك التطورات في علاقة الشيخ زكي بابنتها وأحفادها بعناية واهتمام، ولم يفتها أن تلاحظ أنه كان يخص عفاف، بالذات، بمزيد من العناية والعطف... وما يمكن أن تؤدي إليه تلك العناية الفائقة... ولكنها اعتصمت بالصمت، واكتفت بالمراقبة والمتابعة دون أن تحاول حتى أن تفاتح ابنتها فيما لاحظت.

وكانت عفاف تشعر، هي الأخرى، بمعنى ما يبديه الشيخ زكي نحوها من اهتمام، ولكنها كتمت رأيها وموقفها في داخلها فلم تحدّث فيهما أحدًا حتى ولا أمها... فهي لا تنسى أن الرجل متزوج، ومن عائلة معروفة، وله مركزه المرموق، ولو حدث ـ فرضًا ـ أنه تزوجها، فإن الأمر لن يمر بسهولة في نظر «المجتمع»... ولسوف يتقوّل الناس عليها، كعادتهم، ما يتقولون، ولسوف يرمونها بشتى التهم... ولن يدرك أحد منهم مشاعر أرملة وهي في مقتبل العمر، فقدت زوجها فجأة وباتت في حاجة إلى رجل يحميها ويحمي أولادها.

وقررت ـ كما فعلت أمها من قبل ـ أن تكتم مشاعرها في نفسها فلا تبوح بها لأي إنسان، وأن ترى إلام ستتطور الأمور.

❊ ❊ ❊

جلس الشيخ زكي مع أم عفاف في شرفة الفندق يحتسيان الشاهي ويتحدثان.

وكانت الأم على شبه يقين من الغرض الذي يريد الشيخ زكي أن يصل إليه من حديثه... فبعدما بدأ الحديث حول أمور عامة شتى، انتقل بلباقة إلى الحديث عن الأولاد فأبدى مدى تعلقه بهم واهتمامه بأمرهم، وشعوره بأن من واجبه أن يواصل هذا الاهتمام قدر استطاعته، وأبدى أسفه لأنه لا يستطيع متابعة رعاية الأولاد وهم في منزلهم في جدة لما يسببه ذلك من إشكالات، وأنه بالتالي يفكر في الزواج من عفاف... إذا هي وافقت على ذلك.

وردت الأم عليه بصراحة تامة ودون مواربة.

قالت له أنه إنما يطلب حلالًا، وأمرًا شرعيًا، وأنها ستخاطب عفاف في الأمر وتأخذ رأيها.

فتساءل بشيء من التردد:

ـ وتفتكري أنها تقبل؟

ـ أعتقد ذلك... لا سيما وأن أولادها في صفك.

وضحكت الأم وهي تقول عبارتها الأخيرة... وتنهد الشيخ زكي في ارتياح، ثم استطرد في شرح ظروفه.

قال للسيدة أنه متزوج، وأنه ليس سعيدًا في زواجه بسبب عقم زوجته وانعكاس ذلك على نفسيتها وتصرفاتها التي جعلته يفتقد الراحة في البيت.

ولكنه، بالمقابل، يرى أن يكون عقده على عفاف سريًا، لا يعرف به سوى بعض أهلها وشهود العقد، ريثما يتدبر الأمر مع زوجته ويسوّي أوضاعه.

ووجمت الأم، فالمشكلة التي يتحدث عنها الشيخ زكي ذات أهمية ولا شك، ولكنها ما لبثت أن طرحت وجومها جانبًا، وحدثت نفسها بأن المستقبل كفيل بإيجاد حل لهذه المشكلة... وحين تحدثت الأم إلى ابنتها في الموضوع، أبدت موافقتها دون تردد، ولكنها ما لبثت أن وجمت، بدورها، حين أخبرتها أمها برغبة الشيخ

زكي في الإبقاء على نبأ الزواج سرًا لا يعلم به إلا قلائل.

* * *

وصحّ ما توقعت عفاف.

فقد ثار الأخوة على الاقتراح، لأن رأيهم لم يؤخذ فيه مسبقًا من جهة، ولأنهم يتوقعون أن يسبب لهم إحراجًا أمام الناس.

وقال عصام الذي كان أشد المعارضين اقتناعًا برأيه:

ـ يعني ترضي، يا ماما، أن الناس يتكلموا علينا... لما يشوفوا الراجل داخل وخارج من البيت ولا أحد يعرف مركزه فيه؟... هذا يخلينا لبانة في فم اللي يسوى واللي ما يسوى... أنا والله ماني مرتاح للمسألة هذي.

وردت الأم بأن ما يهمها هو أن يتخذ الأمر صفته الشرعية الطبيعية... وأنها تقبل بهذا الوضع ريثما يسوّي أموره مع زوجته.

واستمر الجدل والحوار في العائلة بضعة أشهر، كانت الأم خلالها هي المدافع القوي عن فكرة الزواج... وشيئًا فشيئًا تلاشت المعارضة، ووافق الأهل وتم الزواج ـ كما أراده الشيخ زكي ـ سرًا، ودون أن يدري به سوى أشخاص قلائل.

أما عفاف فقد ابتهجت بادئ الأمر، فالصلة مع الشيخ زكي أصبحت طبيعية ومشروعة، ولكن القلق كان ينتابها بعض الأحيان وهي تتساءل من مدى صحة ما أقدمت عليه.

صحيح أن الشيخ زكي قد ملأ المنزل سعادة ومرحًا وراحة، وأن الأبناء قد ازداد تعلقهم به، إلا أن شيئًا من التحفظ والخجل كان يشوب تصرفات عفاف، لا سيما حين يلتئم جمعهم وتتبادل عفاف الحديث مع زوجها أمام الأولاد.

ولكن الحياة اتخذت في البيت مسارها الطبيعي، وكانت الأم، من جهتها، أشد ما تكون سعادة وارتياحًا واطمئنانًا، فلقد كانت تخشى

ـ قبل ذلك ـ على مستقبل الأولاد، وتشك في قدرة عفاف على القيام بشؤونهم وتربيتهم وحدها.

وأقبلت عفاف على حياتها الجديدة وقد تبدد الكثير من مخاوفها، وبذلت جهدها لإسعاد زوجها الجديد، وإدخال السرور على نفسه بشتى الوسائل.

ومع أنه كان قليل التردد على المنزل، إلا أن عفاف كانت تحس بوجوده أيامها ولياليها كلها، سواء كان في البيت أم لم يكن.

كانت راضية بالوضع الذي تعيش فيه، كزوجة لا تحظى من زوجها إلا بنصيب ـ غير كامل ـ من الاهتمام والعناية.

ولكن مرور الأيام أيقظ فيها مشاعر أخرى... فيها الرغبة الجامحة في التملك... وفيها الغيرة من «المرأة الأخرى»... وفيها عدم الرضى عن هذا الوضع الذي كانت قد تقبلته من قبل ورضيت به... ولم يكن ذلك، في الواقع، بإرادتها... ولكنه شعور تسلل إلى داخلها... ما تدري كيف ولا متى... ثم راح يستشري حتى ملأ عليها تفكيرها كله.

وحاولت أن تبعد هذه الأفكار عن نفسها، وأن تقتنع بأنها قد قبلت هذا الوضع راضية من قبل... وأنها كانت تعلم أبعاده سلفًا... ولكن محاولاتها ذهبت عبثًا.

وإذا كانت قد كتمت مشاعرها بعض الوقت، أيام كانت في بداية سيطرتها عليها، فإنها قد عجزت بعد ذلك عن الكتمان، وشعرت بأن صدرها سوف ينفجر إذا هي لم تصارح زوجها بها.

ولم يفاجأ الرجل بتلك المصارحة... بل كان ـ كما يبدو ـ يتوقعها، ولذا فقد تقبلها بصبر وتفهم، وحاول أن يشرح لها وضعه... وتوزَع مسؤولياته ما بين الزوجة الأولى والعمل وأسرته الجديدة... ولكنها رفضت أن تقتنع وصارحته بأنها تشعر بأنه لا يحبها حبًا كافيًا بل لعل العطف عليها وعلى الأولاد هو سبب ارتباطه بها.

وعبثًا حاول الرجل أن يؤكد لها حبه، وأن العطف وحده ـ مهما بلغ ـ ما كان ليصل به إلى حد الزواج... ولكنها لم تقتنع.

وبدأ البيت يفتقد السلام الذي خيم عليه فترة من الزمن... وصارت عفاف عصبية، سريعة التأثر، تغضب لأتفه الأسباب، وتثور لأدنى شيء.

وصرخت في وجهه ذات مرة قائلة:

ـ إنني على يقين من أنك تشفق عليّ أكثر مما تحبني... وأنا لا أنكر فضلك عليّ وعلى أبنائي... ولكنني كنت أتمنى أن تستمر على موقف المشفق المحسن من أن تدخل حياتي بهذه الصورة التي تجعلني أحس بأن حبك نفسه ليس سوى نوع آخر من أنواع الصدقة تجود بها عليّ.

وكان الشيخ زكي يصغي إلى كلامها في هدوء، حتى إذا انتهت قال لها:

ـ ماذا تريدين إذن؟

ـ أريد أن تعرف الدنيا كلها أنك زوجي... أريد أن تدخل بيتي في وضح النهار... لا أن تأتيه ليلًا وكأننا نأتي عملًا غير مشروع... أريدك.. أريدك كما أنت... وكل ما فيك.

وخرج الأطفال من غرفهم، وتجمعوا عند باب الصالون وقد خيم عليهم الوجوم... بينما أطرق الشيخ زكي صامتًا دون أن يرد بحرف.

وتقدم فيصل من أمه وجذبها من ذراعها برفق، وسار بها إلى غرفتها فأطاعته وهي تنشج في نحيب عميق.

* * *

ما الأم فقد كان يتنازعها عاملان... أولهما هو حرصها على استمرار حياة ابنتها عفاف مع زوجها الثاني، لما في ذلك من صون

لها ولأولادها وتأمين لمتطلباتهم، وثانيهما أنها، كامرأة، تدرك مشاعر ابنتها حق الإدراك، وتعرف الدوافع العاطفية الأنثوية التي تحركها.

وأجابتها عفاف إذ عرضت لها وجهة نظرها تلك:

ـ لم يعد شيء يغيظني ويملأني قهرًا مثل أن أشعر بأنني نصف زوجة... وإن كل ما فعله لأجلي إنما هو بدافع الشفقة.

وسألتها الأم السؤال نفسه الذي سبق للرجل أن ألقاه عليها:

ـ ماذا تريدين إذن؟

وفي الحال ردت عفاف واللوعة تشوب كل كلمة من كلماتها:

ـ أريده حبًا... أريده حبًا يا أماه.

وطوّقت الأم ابنتها بذراعيها وراحت تهدهدها كطفلة صغيرة بعدما أخذ منها البكاء والألم كل مأخذ.

* * *

وهكذا فقد البيت الهادئ الذي خيّم عليه السلام والسعادة شيئًا من الوقت بعد مجيء الشيخ زكي ما كان يتمتع به، وأصبح مسرحًا للنوبات العصبية والمشاحنات.

فعفاف أصبحت متوترة الأعصاب، تثور لأتفه سبب، وتغضب لأدنى شيء، والشيخ زكي يوافقها في قرارته، كرجل منصف، على ما تتمناه عليه أن يكون لها وحدها، ولكنه يخالفها فيما تعتقده من أنه لا يحبها، وأنه إنما صنع ما صنع من أجلها شفقة عليها ورأفة بأولادها ليس غير.

فلقد كان يحبها حقيقة، ويحب أولادها فعلًا، وينظر إلى الجميع نظرته إلى زوجته وأولاده وكأن هؤلاء الأولاد هم أبناؤه حقًا... ولكن عفاف لم تقتنع بذلك، أو هي لم تشأ أن تقتنع بل كانت، عكس ذلك، تزداد توترًا في الحس ورهافة في الأعصاب.

وبات الحديث بين الاثنين حول هذا الموضوع هو الحديث الوحيد تقريبًا.

* * *

ثم وقعت الواقعة.

كانت عفاف تعلن ثورتها وسخطها على هذا الوضع، وزكي يحاول تهدئتها، فإذا به يفاجأ بها تصرخ فيه:

ـ أرجوك... أرجوك يا زي... اتركني في حالي... إنني لم أعد أحتمل... إنني أكره نفسي... بل أحتقرها عندما أشعر بأنك إنما تشفق عليّ... وإنك تحبني من خلال حبك لأولادي... أنا أريد حبك لي... أريده حبًا خالصًا وصادقًا... هل تفهمني... إنك لن تستطيع أن تعطيني هذا الحب ولذا أرجوك أن تطلقني... طلقني... ودعني أسترح.

وأرخت رأسها على ركبتيها وهي تبكي في حرقة، فحدّق زكي فيها بذهول وقال:

ـ أنت مخطئة يا عفاف... فأنا أحبك... وأحب أولادنا... ولا يمكن لما تسمينه شفقة أو عطفًا أن يجعلني أصنع من أجلك ما صنعت... لقد ملأت عليّ حياتي يا عفاف... وجعلت مشاعر الحب... هل تسمعين؟... جعلت مشاعر الحب تسري في عروقي... حتى بتّ فخورًا بك... أنت النور الذي أضاء قلبي بالحب الصادق.

وتوقف زكي عن حديثه المتدفق وأردف بارتباك:

ـ أنا آسف يا عفاف لأنني لا أجيد صنعه الكلام... فأنا أحب أن أتصرف وأثبت حبي بصورة عملية.

فرفعت عفاف رأسها وقالت له بصوت هادئ ولكن الرجفة كانت تنتابه:

ـ ليس المال هو كل شيء كما قلت لك... وأعتقد أنني شرحت لك الأمر بما فيه الكفاية.

وهنا نهض زكي في الحال واتجه إلى غرفة النوم صامتًا، فبهتت عفاف وراحت تتابعه بأنظارها دون أن تتحرك من مكانها، وتسمرت نظراتها على الباب المفتوح تترقب ما سيكون.

وبعد دقائق خرج زكي وهو يحمل حقيبتين كبيرتين في يديه وقد تجهم وجهه، ووقف أمام عفاف ثم وضع الحقيبتين على الأرض ومدّ لها يداه مصافحًا وهو يقول بهدوء:

ـ إذا كانت هذه هي رغبتك فليكن... الوداع يا عفاف... كل ما أرجوه هو ألا تقطعي صلتي بالأولاد.

وصافحته بيد مرتجفة وهي تهمس:

ـ شكرًا لك على أية حال... وأرجو أن تسامحني... وتقدّر أحاسيسي.

وتلفت زكي حوله متسائلًا:

ـ أين الوالدة؟... أريد أن أودعها.

ـ أنا هنا.

جاء صوت الأم وهي تخرج من غرفتها مرتدية ملابس الخروج... وفي يدها حقيبة ملابسها، فبهتت عفاف وفتحت فمها تريد أن تتكلم ولكن الكلام خرج من حلقها حشرجة بغير معنى.

ودارت عفاف بعينها في يأس، وقد ارتسمت الحيرة الشديدة على وجهها فإذا بها ترى أولادها جميعًا يتوافدون ويلتفون حول الشيخ زكي ويتعلقون بثوبه وهم يقولون بصوت واحد:

ـ لا تذهب يا بابا... لا تودعنا يا بابا... سنذهب معك.

وقالت الجدة بهدوء:

ـ وأنا أيضًا.

وتراجعت عفاف وهي تضع يديها على صدرها وكأنها تريد أن تحمي نفسها من خطر داهم... وراحت تحدق في الجميع الذين كانوا ينظرون إليها بهدوء وصمت وعيونهم تلمع بالاتهام الصارخ.

وتوقفت، إذ اصطدم ظهرها بالجدار، واغتصبت ابتسامة بائسة وقالت لزكي بصوت متحشرج حاولت أن تكسبه رنة من المرح:

ـ يعني «الجمهور» كله معاك يا زكي.

فابتسم زكي رغمًا عنه وقال:

ـ هذا من حسن حظي... إنه يدل على أنني على حق.

ـ وأنا المخطئة... أليس هذا ما تريد أن تقوله؟

ـ أجل أنت المخطئة.

كانت المتكلمة هي الأم هذه المرة، وكان في عبارتها كل معاني التأنيب والاتهام والعتاب.

وأرخت عفاف يديها باستسلام، وأشرق وجهها بابتسامة سعيدة وهي تقول:

ـ لا يمكن أن أكون أنا الوحيدة على صواب... وأنتم جميعًا مخطئون لتكن رغبتكم... وأنا آسفة.

واندفعت نحو زكي ترتمي على صدره وكأنها تحتمي به فأحاطها بذراعيه وراح يربت على شعرها في حنان وهو يقول هامسًا:

ـ إنه الحب يا عفاف... إنه حبي... صدقيني.

وهمست عفاف والسعادة تخفق في صدرها:

ـ صدّقتك.

وأخذت الجدة بأيدي الأولاد واتجهت بهم إلى غرفتهم.

وراحت عفاف تجهش بالكباء وهي ما تزال ملتصقة بصدر زوجها.

ورفعت وجهها المبلل بالدموع وراحت تنظر في وجهه وكأنها تتفحصه.

وعادت تدفن رأسها في صدره وهي تهمس:

ـ زكي... زكي... ليتنا نعود لنعيش في الزقاق.

❖ ❖ ❖

مولوي

مولوي

مولوي

خرج صلاح مع جموع المصلين بعد أداء صلاة العصر، وراح يتمشى في الشارع الذي يفصل بين المسجد و«المزرعة الكبرى» الممتدة على طول «شارع المسفلة».

كانت هناك شراذم من الصبية يعلبون هنا وهناك... بعضهم قد اتخذ من الشارع ملعبًا وبعضهم راح يقفز إلى داخل المزرعة، وصلاح ينظر إليهم ويتابع حركاتهم بكثير من الاهتمام.

وفجأة... ظهر «العم يوسف».

كان يسير مطرق الرأس... صامتًا... وقد بدا عليه وكأنه مشغول بشيء قد استولى على اهتمامه كله.

ولم يكد بصره يقع على صلاح حتى راح يقول بصوت فيه من الحرقة والألم شيء كثير:

ـ إنه ليس مذنبًا... إنه مسكين... سليم النية... ساذج... إنه ليس سياسيًا ولا يفهم في السياسة شيئًا.

ونظر إليه صلاح في إشفاق، لا سيما وأن نظرات العم يوسف الزائغة لم تكن تدل على أنه قد ميّزه، وأنه يوجّه إليه كلامه بالذات، وإنما اكتفى بترديد كلامه بسرعة وحرارة، كأنما هو يشعر بأن تكرار هذا القول كفيل بإقناع من يسمعه.

وابتعد العم يوسف وصلاح يتابعه بنظراته حتى غاب في المزرعة الكبيرة التي طالما قضى فيها ـ من قبل ـ أوقات راحته وهو يتناول الشاهي ويتجاذب أطراف الحديث مع جلسائه.

وتنهد صلاح في أسف وهو يرى العم يوسف يتوغل داخل المزرعة ويغيب عن أنظاره، وراح يستعيد القصة الأليمة التي هزت العم يوسف حتى الأعماق، وجعلته لا يعرف غير تلك العبارات يرددها بتلك السرعة والحرارة كلما رأى إنسانًا أمامه سواء كان يعرفه أو لا يعرفه.

❁ ❁ ❁

كان العم يوسف رجلًا معروفًا في الحي بثرائه، ومكانته الاجتماعية التي جعلت داره مقصدًا للناس، فيها يجتمعون ويتبادلون الأحاديث، وينعمون بكرم ضيافة الرجل الذي قلما خلت مائدة عشائه من عدد من أولئك الزوار.

وكان يستلفت الانتباه بملابسه الثمينة الأنيقة، وعمامته الملفوفة على رأسه بعناية وبنعاله الذي كان من النوع المسمى «أبو أصباع» والذي كان العم يوسف يحرص على أن يكون من أفخر أنواع الجلد، حتى إن الناس كانوا يعبرونه نموذجًا يقيسون به مدى أناقة الآخرين ووجاهة لباسهم.

وكان كل شيء في حياة العم يوسف يسير في دعة ويسر وهناء، فما كان يعكر مزاجه شيء، ولا كان يشكو من شيء... بل كان يحمد الله على أن يسر له هذه الحياة المستقرة الوادعة.

❁ ❁ ❁

وذات يوم طرق بابه أحد الحجاج الباكستانيين الذي قال له بعد أن أثنى على ما تناهى إليه من سمعة العم يوسف وطيبته وإنسانيته:

ـ إن لي ابنًا في الرابعة من العمر... قد أحضرته معي إلى الحج... وقد خطر لي، وقد سمعت عنك وعن مروءتك وشهامتك، أن أتركه في عهدتك... يعمل عندك... ويكسب رزقه بعرق جبينه... وأرجو من الله، إذا أنت قبلت عرضي، أن يكون من هذا الابن ما يرضيك ويتيح له أن ينشأ نشأة صالحة في كنفك وتحت رعايتك.

وراق العرض للعم يوسف، فهو ـ بطبيعته ـ محب لعمل الخير، ويشعر بتعطش إلى رعاية ولد صغير بعد أن كبر أولاده وبدأوا في الاستقلال بحياتهم بعيدًا عنه.

ولم يتردد في الموافقة... وأعطى الرجل ما تيسر من المساعدة، وأخذ منه عنوانه في باكستان ليظل الأب على اتصال منتظم بابنه عن طريق المراسلة.

وخرج الرجل بعد أن ترك ولده عند العم يوسف.

* * *

كان اسم الطفل «مولوي»، وقد وقع من قلب العم يوسف وزوجته موقعًا حسنًا منذ أن رأياه، وصرفت الزوجة معظم اهتمامها في رعاية مولوي والعناية به، فأمرت بإدخاله الحمام، وتأمين ملابس مناسبة له، ومعاملته معاملة الابن... وما هي إلا أسابيع قليلة حتى أصبح مولوي أقرب ما يكون إلى العائلة وكأنه فرد منها.

كان مولوي يخجل كثيرًا من المعاملة الطيبة التي يلقاها، وكان يعمل جاهدًا على أن يكون في مستواها، فهو لا ينسى وصايا أبيه له في أن يعمل على كسب ثقة أهل البيت ومحاسبة نفسه على تصرفاته.

كان الأب حريصًا على أن يبقى ولده في مكة، وأن يستقر بها، فهو يتبرك بوجوده فيها، كما كان يأمل في أن يعينه مولوي على تكاليف الحياة في بلده بما سوف يرسله له من الأجر الذي سيحصل عليه من العم يوسف فيستعين به في تربية أبنائه الآخرين.

ولقد وجد مولوي عناء في الانسجام مع حياته الجديدة في منزل العم يوسف إذ كان، بادئ الأمر، يهرب بعيدًا عن غرفة الطعام، ويحاول أن يأكل في المطبخ ولكن العم يوسف وزوجته كانا يصران على أن يأكل معهما كأي فرد من العائلة.

وشيئًا فشيئًا أخذ مولوي يعتاد على هذه العائلة ويتقبل حسن معاملة العم يوسف وزوجته في محاولة لأن يكون على أحسن ما

يرومان دماثة وأدبًا وحسن تصرف، حتى اشتهر في الحي كله بوداعته وأخلاقه الطيبة، وكثيرًا ما رآه الناس صحبة العم يوسف، يرافقه في غدواته وروحاته، ويذهب معه لأداء صلاة الجمعة في الحرم الشريف.

وكان العم يوسف من جهته فخورًا بمولوي، يقدمه للناس في اعتزاز وهو يقول:

ـ هذا هو ابني مولوي الهندي... هذا هو الهندي الصغير حقّنا.

ولم يقصّر العم يوسف قط في أي شأن من شؤون مولوي، إذ أصّر على أن يتلقى نصيبه من العلم، وأن يكون ذلك في الصباح كأي طالب آخر، ورفض رفضًا قاطعًا أن يستجيب لرغبة مولوي التي أبداها على استحياء في أن يعمل بالبيت صباحًا ويدرس في المساء.

وهكذا عاش مولوي حياته في كنف العم يوسف رضيًّا ناعم البال وكأنه ولد من أولاده، وحاول جهده أن يثبت له أنه قد وضع ثقته ومحبته في مكانها، فأقبل على الدراسة بهمة ونشاط حتى قطع السنوات الدراسية واحدة بعد الأخرى بتفوق إلى أن حصل على الثانوية العامة، وبات اختيار الكلية التي سوف يلتحق بها في الجامعة هي الشغل الشاغل للعائلة، تتحدث فيه باستمرار وتحاول أن تختار له ما يراه كل منها أفضل.

ولم يكن يؤلم مولوي شيء في حياته، بعد أن قضى تلك السنوات الطوال في مكة، إلا انقطاع الصلة بينه وبين أهله في باكستان، فقد تناقصت رسائل أبيه عامًا بعد عام حتى انقطعت تمامًا، الأمر الذي آلم مولوي أشد الألم، فراح العم يوسف ـ من جهته ـ يحاول العثور عليهم بالكتابة إلى أصدقاء له هناك، ولكن ذلك كله لم يؤد إلى أية نتيجة، وكان أشد ما يؤلم العم يوسف أن يرى الألم الصامت في نظرات الفتى كلما تذكر أهله، وكانت تلك النظرات سؤالًا حائرًا عما حلّ بهم وعن سبب انقطاعهم عن مكاتبته.

وفي الوقت الذي كان فيه العم يوسف يبحث أمر مستقبل مولوي والكلية التي يجدر به أن يلتحق بها في الجامعة جاء الدكتور حسن.

والدكتور حسن هو الابن الأكبر للعم يوسف، كان موظفًا في إحدى دوائر الدولة وقد عرف مولوي منذ أن كان طفلًا صغيرًا ضمه أبوه إلى العائلة، ثم غاب فترة طويلة في الخارج مبتعثًا للحصول على الدكتوراه، وها هو يعود الآن ليجد العائلة مشغولة بأمر مولوي والكلية التي سيلتحق بها. وبدون تردد اقترح الدكتور حسن على مولوي أن يدرس «العلوم السياسة»، وراح يشجعه على اختيارها حتى اقتنع مولوي، فالتحق بالجامعة وفق نصيحة ابن العائلة الأكبر الذي كان يتابع دراسته الجديدة هذه ويراجع معه دروسه ويشرح له ما استغلق عليه فهمه منها.

وكثيرًا ما كان الدكتور حسن يسترسل في شرحه وإيضاحه، فيدخل في مناقشات متشعبة مع مولولي ليمس أمورًا لم تكن من جوهر الدراسة بل كانت غريبة على سمع مولوي وعقله.

وإذ تمادى الدكتور حسن في أحاديثه، راح مولوي يرجوه أن يقصرها على الدراسة وحدها قائلًا له أنه لا يستسيغ أحاديثه تلك ولا يتقبلها، ولكن الدكتور حسن استمر في تلك الأحاديث وفي جرّ مولوي إلى مناقشات غريبة عما ألفه وعرفه من أفكار.

والواقع أن الدكتور حسن كان خالي الذهن مما كانت أفكاره الغريبة تحدثه في نفس مولوي، فهو لم ينتبه إلى الفارق الجسيم بين مستواه الثقافي والآفاق التي عاش فيها، وبين مستوى مولوي والمحيط الذي عاش فيه.

كان الدكتور حسن يحدّث مولوي بنظريات سياسية واجتماعية لم يسمع بها في حياته فيستفيض في الشرح والعرض ويحث مولوي على مناقشته فيها.

وكان مولوي، من جهته، يحاول تحاشي هذه المناقشات فيقول له أنه لا حاجة به إلى تلك الأفكار وأنه سعيد بالواقع الذي يعيش فيه... ولا شأن له بالنظريات السياسية الغريبة ولا الأفكار الاجتماعية الشاذة.

ولكن الدكتور حسن كان متأثرًا بما كان يسميه انفتاحًا على التيارات الفكرية المختلفة، وكأنما كان صدود مولوي عن الاستجابة له، والتجاوب معه، سببًا أقوى لكي يزداد إصرارًا على الاستمرار في أحاديثه ومناقشاته.

وبالتدريج تحول إعراض مولوي إلى شيء من الإقبال... وتضاءلت سلبيته تجاه ما كان الدكتور حسن يحدثه به، بل وصار يعيد ما يسمع على أهل البيت، ولكن أحدًا ما لم يلق بالًا إلى ما حدث في نفس مولوي من تحوّل، وظل ـ كما كان ـ واحدًا من أفراد الأسرة يتلقى تعليمًا عاليًا... لعله سبب ما يتحدث به من أفكار لم تكن تهم أحدًا.

ولم يلاحظ العم يوسف نفسه أي تغيير في نفسية مولوي وأحاديثه، وظل حريصًا على حث العائلة على الاستمرار في معاملتها الطيبة له، وإتاحة المجال له ليتم دراسته في جو طبيعي.

ولعل الشيء الوحيد الذي لفت انتباه العم يوسف هو التصاق مولوي بالدكتور حسن أكثر فأكثر، ثم ترديده لتلك الأفكار الغريبة أمام بعض زملائه ممن كانوا يزورونه في المنزل ومناقشته لها معهم.

وبدأ العم يوسف يشعر بالقلق... وخاطب ولده الدكتور حسن فيما لاحظه على مولوي، ولكن الدكتور حسن قال إنه ليس في الأمر ما يقلق وأنه إنما يحدثه بتلك الأفكار ليترك له حرية الاختيار.

ولم يقتنع العم يوسف.

قال لولده أن مولوي ما زال أجنبيًا عن البلاد ولا يجوز بالتالي توريطه بالحديث في تلك الأمور.

وتمسك كل من الأب والابن بموقفه.

فالدكتور حسن يعتقد، كما قال لأبيه، بأنه لا ضير فيما يحدّث مولوي به، والعم يوسف يرى أن مثل تلك الأحاديث لا يجوز أن تلقى على عواهنها، وأن لها تأثيرًا ضارًا على من كان في مثل سن مولوي فضلًا عن وضعه كأجنبي، وإن على حسن أن يأخذ تلك الاعتبارات بعين التقدير.

وإذ تزايدت مخاوف العم يوسف أفضى بها إلى زوجته وطلب إليها أن تخاطب ابنها الدكتور حسن في الأمر، وأن تبيّن له سوء عاقبة ما يفعل.

ولم تفهم الأم كثيرًا مما قاله ولدها وهو يدافع عن موقفه، ولا هي استوعبت العبارات المعقدة والاصطلاحات الغريبة التي استخدمها في عرض وجهة نظره، فرأت أن تخاطب مولوي مباشرة، وأن تلقي إليه بمخاوفها ومخاوف زوجها، فاستدعته، أمام الدكتور حسن، وأزجت إليه بما قاله زوجها العم يوسف.

ولشد ما كانت دهشة الدكتور حسن عندما سمع مولوي يدافع عن أفكاره بقوة وجرأة، فحدّق فيه بدهشة وهو يقول:

ـ ما هذا يا مولوي؟... لقد تفوّقت على أستاذك... وسبقته بمراحل طويلة.

وبات هذا الأمر مشكلة أقلقت العم يوسف، الذي أصبح أكثر اهتمامًا بملاحظة تصرفات مولوي وكلامه مع زملائه، وحار كيف يتصرف... فهو يخشى أن يخدش مشاعر مولوي فيما لو حاول أن يضغط عليه بالقوة، فكأنه ـ إذ ذاك ـ يذكره بواقعه وماضيه، وفي الوقت نفسه كان يشعر بخطورة الطريق الذي يسير مولوي فيه والذي لا يقتصر ضرره على مولوي وحده بل قد يمتد إلى العائلة بأكملها.

وتحول العم يوسف إلى التشدد في موقفه... فطلب من الدكتور حسن أن يبتعد عن مولوي وألا يتحدث معه بتلك الأحاديث... كما طلب من مولوي أن يمتنع عن استقبال زملائه في المنزل ما دام لم يأخذ بنصائحه وظل سادرًا فيما هو فيه.

وأذعن مولوي لرغبة العم يوسف ولم يعد يستقبل أحدًا من زملائه في المنزل ولكنهم كانوا يلتقون في أماكن أخرى... في منازلهم... وفي المتنزهات العامة المنعزلة.

وعلم العم يوسف بالأمر فازداد قلقًا وهمًّا وعاد يتحدث إلى الدكتور حسن حول هذا الموضوع.

وصعق العم يوسف عندما صارحه حسن بأنه لا يقل قلقًا عنه على مولوي وأنه ـ مثله ـ يخشى عليه من مغبة ما هو فيه.

قال الأب بمرارة:

ـ ألم أقل لك ذلك منذ البداية؟... ألم أطلب منك أن تكفي مولوي شر ما تقول؟

وأجاب حسن مدافعًا عن نفسه:

ـ إنني لم أكن أقصد شرًّا حين كنت أتحدث إليه... فلقد كنت أناقشه وأحاول أن أعوّد تفكيره على الأسس العلمية والمستوى العالي في المناقشة... هذا هو كل ما كنت أرمي إليه.

وأردف حسن وكأنه يحدث نفسه:

ـ لشد! ما أنا آسف على ذلك... إنني أخشى أن أكون قد جنيت عليه.

ورد الأب في حسرة:

ـ كل ما أتمناه هو ألا يكون الأوان قد فات على إصلاح هذا الأمر.

ولم تلبث أسوأ مخاوف العم يوسف أن تحققت.

قد لاحظ أن مولوي قد بات كتومًا، يخفي أفكاره واجتماعاته التي يقوم بها خارج المنزل.

ثم لاحظ العم يوسف أن هناك عيونًا تراقب المنزل، وتتبع تحركاته وتحركات كل من في المنزل.

ولم يفاجأ الرجل بذلك... فهو يعلم أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يكتم، وأنه لا يلبث أن يصل إلى الجهات الأمنية الساهرة على سلامة المواطنين وراحتهم.

وحدّث بعض أصدقائه في الموضوع طالبًا مشورتهم، فأكدوا له أن مخاوفه في محلها، وأن هناك شكًا في أن يكون منزله وكرًا لخلية خطيرة، وأنه وجميع أفراد عائلته ـ لا سيما الدكتور حسن ـ موضوعون تحت المراقبة.

وزاد في هلع العم يوسف أن لاحظ أن المراقبة المفروضة على منزله قد باتت علنية، وراح يلوم نفسه على أنه لم يوقف مولوي عند حده منذ البداية، واعتبر أنه هو الذي ترك له الحبل على غاربه وجنى عليه حين تركه يتعرض لأشياء ما كان ينبغي له أن يتعرض لها، وأنه كان عليه أن يمنع حسن من الاسترسال في طرح نظرياته التي قرأها في الكتب أمام فتى غرير لا يفقه من أمور الدنيا شيئًا.

وهكذا ركب الهم العم يوسف، وافتقد راحة البال التي كان يعيش فيها ورأى أن يحسم الأمر مع مولوي، فراح ينبهه ـ لآخر مرة ـ إلى خطر ما هو فيه.

ونادى العم يوسف زوجته وابنه الدكتور حسن ليشهدا لقاءه مع مولوي وليعيناه عليه، وأصغى إليه مولوي وهو مطرق دون أن يجيب على كلامه بحرف واحد.

ثم تسلم الدكتور حسن زمام الحديث، فأخذ يحذره، بدوره، مما هو فيه ويقول له بأنه على خطأ كبير وفي خطر أكبر وأنه لم يكن يتوقع منه ذلك الاندفاع الأحمق.

وفوجئ الثلاثة بمولوي يبكي وهو يسمع كلام الدكتور حسن ثم رفع رأسه وقال له بهدوء غريب:

ـ عجيب أمرك يا دكتور حسن... أنت الذي دفعت بي إلى هذا الطريق... وأنت الذي جررتني إلى هذا المسلك... وتريدني الآن أن أتراجع؟... أنت الذي تطلب ذلك؟... لقد كنت مستعدًا للتخلي عما أنا فيه عندما سمعت العم يوسف والسيدة الوالدة يخاطباني فيه... أما أن تطلب أنت ذلك مني... فلا.

وهمّ حسن بأن يجيب ولكن مولوي أتم حديثه قائلًا:

ـ رويدك... رويدك يا دكتور حسن... لعلك تذكر أنني كنت أرجوك ألا تحدثني بما حدثتني به... كنت أقول لك أنه لا شأن لي بهذه الأمور... ولكنك كنت تصرّ على الحديث والمناقشة حتى زرعت تلك الأفكار في ذهني وعندما حذّرك العم يوسف من ذلك زدت

إصرارًا على موقفك مني... مع علمك بأنني محدود التفكير... بل لقد رحت تحثني على أن أثبت وجودي حسب تعبيرك... وأن آخذ بأفكار لم تكن تخطر لي ببال... وتأتي الآن بكل بساطة لتقول لي أن أتوقف؟... لا يا دكتور... لقد سبق السيف العذل... ويؤسفني أن أقول لك أنني كنت أعتبرك مثلي الأعلى ولكن صورتك قد اهتزت في ذهني الآن.

وقال الدكتور حسن بذهول:

ـ ألم يخطر ببالك يا مولوي بأن هناك فارقًا بين النظرية والتطبيق؟... وأن ما تقرأه في الكتب شيء... وما تراه ينفذ منها شيء آخر؟... صحيح أنني أردتك أن تفكر... ولكنني كنت واثقًا من أنك سوف تصل، بنتيجة تفكيرك إلى ما أقوله لك الآن... وهو الفارق العظيم ما بين النظرية والتطبيق.

وردّ مولوي:

ـ لا يا دكتور... كان حريًّا بك ألا تسمعني ما قلت أصلًا... لقد كنت تتحدث عن أشياء لا تدرك أبعادها... كنت، حين حدّثتني، تلعب بالنار... أنت الذي دفعتني إلى النار... كان عليك أن تدرك أنني كنت ساذجًا وبريئًا... ومن ثم أن تكون حريصًا في كل ما قلته لي... أما الآن فقد انتهى دورك تمامًا بالنسبة لي... لقد جنيت عليّ... وعليك أن تتحمل وزر ذلك أمام ضميرك على الأقل.

وأدرك العم يوسف أن مولوي قد شاع من بين أيديهم، وإن أية محاولة لإقناعه بالتحول عما هو فيه لا فائدة منها... فلم يتمالك أن تنهد في استسلام واليأس يملك عليه روحه وأحاسيسه.

* * *

عندما خرج العم يوسف من منزله وجد، عند البوابة الخارجية، عددًا من رجال الأمن كانوا في انتظاره، فطلبوا إليه في لطف أن يصحبهم إلى مكان ما.

وهناك علم العم يوسف أن ما كان يتوقعه ويتخوف منه قد تحقق، وأنهم قد حققوا مع مولوي وأدلى باعترافات كاملة، وأنه قد أودع السجن تمهيدًا لترحيله عن البلاد بعد أن بتّ في أمره من قبل الجهات المختصة.

وقال له الضابط بلهجة عتاب أنهم لم يكونوا يتوقعون منه أن يتستر على هذا الشاب الغريب، ولكن العم يوسف شرح لهم موقفه ووجهة نظره، وأوضح أنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد إلا في المدة الأخيرة، وأن مولوي عنده في منزلة الابن، فكان يأمل في أن يثوب إلى رشده، ويرعوي عما كان فيه.

وخرج العم يوسف وهو لا يكاد يرى طريقه، فالصدمة قد هدّت كيانه وكان عسيرًا عليه أن يحتمل فكرة ابتعاد مولوي عنه بعد أن قضى في كنفه تلك السنوات الطوال.

وخطر له، في غمرة اليأس، أن يذهب ليتشفع لمولوي، وأن يشرح ملابسات الموضوع، ويتكفل برده إلى الطريق الصحيح، ولكن شفاعته ذهبت سدى، بل قيل له أنهم ـ من أجله ـ قد اكتفوا بترحيل مولوي، وأنه في هذه اللحظة بطريق عودته إلى بلاده.

وقال العم يوسف كالمذهول:

ـ ولكنه سليم النية... مسكين... ساذج... إنه لا يفهم شيئًا في تلك الأمور.

وخرج إلى الطريق وهو يردد تلك العبارات.

* * *

ومنذ ذلك اليوم، ألف الناس أن يروا العم يوسف سائرًا على غير هدى يردد كلماته تلك، فلا يتمالكون من أن يهزوا رؤوسهم في أسف وأسى.

فقد ضاع مولوي.

وضاع العم يوسف معه.

كريستينا

كريستينا

كريستينا

أحنى السيد باركر رأسه قليلًا وهو يتقدم نحو سلم الطائرة، وراح يستعرض ببصره الواقفين تحت السلالم لعله يتعرف على الشخص الذي يفترض أن يلقاه عند وصوله.

ولم يلاحظ، بادئ الأمر، شيئًا، ولكنه ما لبث أن رأى رجلًا ممتلئ الجسم يرتدي الملابس العربية يبتسم له، محييًا.

وما إن وطئت قدما المستر باركر أرض المطار حتى تقدم منه ذلك الرجل وهو يقول:

ـ حضرتك السيد باركر؟

ـ نعم... أنا باركر.

ـ وأنا فاروق تيسير... سكرتير خدمات السفارة.

ـ تشرفنا... هذه زوجتي سالي... وهذا ولدي جون.

ـ أهلًا وسهلًا.

علّق السكرتير ثم أضاف بصوت متردد:

ـ عفوًا... هل لي أن أسأل إن كنتم قد جلبتم معكم خمرًا أو لحم خنزير؟

ـ كلا بالطبع... فأنا أعرف أن هذه الأشياء محظورة في بلادكم.

ـ معذرة... ولكنني أردت أن أتأكد لا أكثر.

ـ لا عليك... أنت تؤدي واجبك... وشكرًا لك على هذا الحرص.

وسار الجميع في اتجاه صالة كبار الزوار بينما قام فاروق بإنهاء إجراءات الدخول، ثم أخذهم في السيارة التي كان يقودها بنفسه إلى مقر إقامتهم داخل حي السفارة.

وكان السيد باركر يمد بصره عبر النافذة إلى الشوارع التي كانت السيارة تمر منها محاولًا أن يرى ما يمكنه أن يراه من مظاهر الحياة في مدينة جدة.

وما إن وصلت السيارة إلى المكان المقصود حتى هبط منها السيد باركر وعائلته وهو يكرر عبارات الشكر على حسن الاستقبال الذي لقوه، وودعهم فاروق وهو يفكر في هذه الشخصية الظريفة التي بدت له اجتماعية أكثر مما كان يتوقع، على كثرة ما استقبل من أمثالها خلال عمله في السفارة.

وما لبث أن اتجه بالسيارة نحو منزله.

* * *

قضى السيد باركر ذلك المساء في المنزل فلم يغادره، لكي يأخذ قسطًا كافيًا من الراحة بعد عناء رحلته الطويلة.

وفي الصباح نزل إلى الحديقة وطلب من الخادم أن يعد طعام الإفطار، بينما أخذت زوجته سالي تتم زينتها.

وتفقد باركر ولده جون فلم يجده، فرفع صوته مناديًا ولكن الخادم أجابه بأن جون قد انطلق إلى الخارج ليقوم بجولة يتعرف بها إلى بعض معالم المدينة، وأردف الخادم وهو يبتسم:

ـ يبدو أن الطقس الجميل قد أغراه على الخروج.

ـ لا بأس... وأرجو أن تطلب منه الحضور إلى هنا فور وصوله.

كان الوقت في أواخر الربيع، والجو في أحسن حالاته، والهواء يتسلل على شكل نسيمات هادئة ندية تداعب الوجوه بلطف ونعومة لا سيما في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

ونزلت السيدة سالي بخطواتها الرتيبة في الوقت الذي ظهر فيه جون وهو يلهث، فقد قطع المسافة إلى البيت ركضًا.

وتقدم الخادم معلنًا وصول فاروق الذي دخل وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة سعيدة، فلقد شعر فاروق بنوع غريب من الألفة يشده إلى هذه العائلة اللطيفة.

وخلال الأسابيع القليلة التي تلت ذلك كان ذلك الشعور يزداد لدى فاروق، فلقد عامله السيد باركر معاملة طيبة، واعتمد عليه في كثير من الشؤون وبخاصة بعد أن لمس فيه أمانته وطلاوة حديثه وكفاءته في العمل، وامتدت هذه الصداقة بين الأسرتين لأن فاروق ما لبث أن زار السيد باركر وعائلته في المنزل مصطحبًا زوجته وابنه «سراج».

دخل فاروق على السيد باركر في مكتبه وسلمه برقية عاجلة وردت من نيويورك وما كاد الرجل يقرأها حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة سعيدة فتنهد وهو يقول:

ـ إيه... إذن فإن كريستينا في طريقها إلينا.

وعلق فاروق على عبارة الرجل بابتسامة ثم استطرد متسائلًا:

ـ لماذا أرسلت البرقية من نيويورك؟... لقد أخبرتني أنها تعيش في مدينة «صودص».

ـ هذا صحيح... ولكنها ذهبت إلى نيويورك لتركب الخطوط الدولية... فليس في قريتنا، التي تكرمت وسميتها مدينة، مطار دولي.

ـ آه... فهمت.

ـ أرجو أن تعمل الترتيبات اللازمة لاستقبالها في المطار وإحضارها إلى المنزل.

ـ كما ترى يا سيد باركر... أعطني البرقية لأعرف منها رقم الرحلة وموعد الوصول والخطوط الجوية التي ستأتي على طائرتها.

ـ تفضل يا عزيزي.

وألقى فاروق نظرة على البرقية ثم علق:

ـ ولكن هذا التاريخ يصادف وجودنا في الطائف حيث حدد لكم موعد لمقابلة وزير البترول.

ـ آه... صحيح... إذن يذهب جون لاستقبالها مع موظف الاستعلامات.

ـ يمكن أن يصحبه ابني سراج... فذلك يسهّل الأمور عليها.

ـ فكرة عظيمة... وشكرًا لك.

* * *

لم يجد سراج ومرافقه عناء كبيرًا في التعرف على كريستينا بين الركاب الذين هبطوا من الطائرة القادمة من نيويورك... فقد كانت يانعة الجمال... ممشوقة القوام... ذهبية الشعر... زرقاء العينين... بدية الأناقة.

وتقدم منها أخوها جون وقدّم لها سراج ثم توجه الجميع إلى السيارة بعد إنهاء إجراءات الدخول، واستطاع سراج أن يكتشف بسرعة أن الفتاة تشبه أباها إلى حد بعيد في مرحه وسرعة تآلفه مع الناس... وأبدت كريستينا لسراج شكرها وأسفها لما جشمته من صعاب في استقبالها ولكن سراج رد بأدب إن هذا واجب يؤديه تجاهها بصفتها ضيفة على بلده.

ويبدو أن النجاح الذي حققه سراج في استقبال ابنة السيد باركر هو الذي جعل أباه يطلب منه مرافقتها إلى السوق عندما أبدت رغبتها في ذلك.

وكانت معالم الدهشة الشديدة والانبهار تبدو على وجهها بجلاء وهي تتجول في أسواق جدة الحافلة بمتناقضات العريق والحديث من البضائع... وكانت تتوقف طويلًا أمام الملابس النسائية العربية المزركشة، والمشغولات المطرزة بالزخارف الإسلامية، فابتاعت منها ما شاءت والفرحة الطفولية تلمع في عينيها وكأنها وقعت على كنز عظيم.

وكان سراج، من جهته، سعيدًا لسعادتها، إذ كان يدرك مدى تأثير الصناعات التقليدية في نفوس الأجانب الذين يؤمون البلاد فهنأها، وهو يبتسم، على حسن اختيارها ثم عاد بها إلى المنزل بعد أن انتهت من جولتها في الأسواق.

وكأنما أصبحت مرافقة كريستينا واجبًا طبيعيًا ألقي على عاتق سراج، فقد كانت الفتاة، من جهتها، تثني عليه أحر الثناء أمام أبيها وأخيها، وتبدي دهشتها واستغرابها لتهذيبه الزائد الذي جعله يعامله بكل احترام وتحفظ، فأصبحت لا تخرج من البيت إلا إذا كان سراج في رفقتها، سواء للتبضع والتجول في الأسواق، أو للنزهة على شاطئ البحر الأحمر، وخاصة في منطقة «أبحر» الجميلة.

وكان سراج سعيدًا لسعادتها، مرتاحًا إلى رفقتها، دون أن يحاول سؤال نفسه عن سر هذه السعادة وذلك الارتياح. فالفتاة كانت وحيدة لا تكاد تعرف أحدًا في جدة، وكان سراج أول من قابلت من أهل البلد، وكان انطباعها الإيجابي عنه سببًا في إصرارها على أن يكون مرافقها الدائم في كل جولاتها.

ولم يجد سراج أو أبوه، أو المستر باركر، أية غضاضة في هذه العلاقة التي يبدو أنها تزداد توثقًا بين الشابة الأمريكية وصديقها السعودي، إلا أن أم الفتى كان لها رأي آخر... فهي بطبيعتها متحفظة جدًا تجاه الغرباء، ناهيك بأن تكون الغريبة فتاة أميركية، فهي تتخوف من بنات الغرب وما تسمع عنهن وتخشى على ولدها منها، ولم تتورع عن مصارحة زوجها فاروق بذلك ولكن الرجل، بحكم احتكاكه الدائم بالأجانب وخاصة الأميركيين، لم يأخذ مخاوف الأم على محمل الجد أو الاهتمام، بل كان يرى تلك العلاقة بين الفتاة وابنه شيئًا عاديًا لأن هذا أسلوب أولئك الأجانب في علاقاتهم الاجتماعية.

ولكن مرور الأيام لم يزد الأم إلا قناعة بما تراه... فالعلاقة بين ابنها وتلك الفتاة الأمريكية بلغت حد التزاور، وأصبحت كريستينا ضيفة شبه دائمة في المنزل، كما أن سراج بدوره زائرًا شبه دائم في

منزل السيد باركر، كما أن معظم الأوقات التي يقضيها الفتى والفتاة خارج أحد البيتين كانا يمضيانها معًا في المتنزهات والأسواق.

وكان مما أدهش الأم حول تلك الفتاة الغريبة أنها كانت تحمل في يدها كراسة كبيرة تسجل فيها مشاهداتها، والكلمات العربية التي تتعلمها، ولطالما أصغت ساعات طوالًا إلى أم سراج وهي تروي لها طرائف من التقاليد الشعبية السعودية وتنشدها بعض الأغاني الفولكلورية، بينما يتولى سراج مهمة الترجمة بالطبع.

بل لقد طلبت كريستينا من أم سراج أن تعلمها طريقة صنع بعض الأكلات السعودية الشعبية التي أكلتها عندها فوافقت الأم وهي تبتسم وتخفي دهشتها من بساطة هذه الفتاة التي تتصرف وكأنها شاب وليست أنثى.

وكان لهذه الرغبة من طرف كريستينا أثرها في التقريب بين المرأتين، إذ زال كثير من تحفظات الأم تجاه الفتاة، وباتت كلتاهما تبذلان مجهودًا مضحكًا للتفاهم مباشرة بالاستعانة بالقليل من الكلمات التي تعلمتها كل منهما من لغة الأخرى.

❋ ❋ ❋

تلاحقت أيام العطلة بسرعة، ومع كل يوم من أيامها كان سراج يزداد تعلقًا بكريستينا بحكم ما قضى معها من تلك الأيام: يخرجان سويًا، في الغالب، ويتزاوران في بيتها أو في بيته، ويمضيان ساعات في أحاديث تليفونية.

وكان السيد باركر ـ من جهته ـ قد بدأ يلاحظ أبعاد هذه العلاقة غير الطبيعية بين ابنته وسراج والتي بلغت، في تقديره، حد العاطفة المشبوبة. . . ولكنه كره أن يبدي أية ملاحظة خشية أن يؤثر ذلك على مشاعر ابنته، وراح يقول لنفسه بأن تلك العاطفة لا تلبث أن تنقضي مع انتهاء عطلة الفتاة وعودتها إلى بلادها.

ولكن المفاجأة التي أدهشت السيد باركر أن كريستينا أبدت

رغبتها في عدم السفر والبقاء إلى جوار أسرتها في جدة، وفيما رحبت الأم بذلك تحفظ الأب مدفوعًا بمخاوفه حول تطور علاقة ابنته بسراج، ولكنه لم يلبث أن وافق إزاء إلحاح الأم والابنة.

وتنهدت كريستينا في ارتياح شديد عندما أبلغها والدها بموافقته، فلقد كانت ـ وكما خمّن أبوها تمامًا ـ قد باتت شديدة التعلق بسراج، بل لقد اعترفت لنفسها بأنها تحبه الحب كله، وكان كل ما تمنته هو أن يكون لها في نفسه مثل ما له في نفسها، ذلك أن تحفظ سراج كان يجعلها في حيرة من أمرها فما تدري إن كان يبادلها عاطفتها أم لا.

ومع بدء العام الدراسي تضاءلت لقاءات سراج بكريستينا، فسراج قد انشغل بدراسته، وكريستينا قد التحقت بدورة للغة الفرنسية ضمن برنامج خاص للسكرتاريا نظمته هيئة تابعة للسفارة الفرنسية لتعليم اللغة الفرنسية، لغة ومنهجًا، للذين يلمون إلمامًا مقبولًا بهذه اللغة.

كذلك أصرت كريستينا على أبيها إصرارًا شديدًا أن تستفيد من المدرس الذي كان يتردد على أبيها لتعليمه اللغة العربية، فقد كان واضحًا أنها تتطلع إلى مزيد من الاتقان لهذه اللغة التي كانت قد تعلمت شيئًا منها قبل قدومها إلى جدة وأضافت إليه ما تعلمته من سراج خلال ملازمته لها.

ودعاها سراج يومًا لزيارة مدينة الطائف فوافقت بحماسة، فهي لم تر من مدن المملكة حتى الآن سوى مدينة جدة التي تعيش فيها.

وفي السيارة كان سراج يشرح لها كل ما يمران به من معالم حتى وصلا إلى مفترق طرق ما لبث سراج أن انعطف إلى ناحيته اليمنى وهو يقول لها باسمًا:

ـ هذا الطريق الذي نسير فيه يسميه العامة «طريق الخواجات».

ودهشت كريستينا للتسمية وتساءلت عن سببها فقال لها سراج بهدوء:

ـ لأن الطريق الآخر لا يسمح لغير المسلمين بالمرور فيه... فهو يؤدي إلى مكة المكرمة.

ونظرت إليه بدهشة أكثر وهي تقول:

ـ عجيب... وما السبب في ذلك؟

ـ هكذا أمر الله.

ـ تعني أن الرب قد أمركم بعدم السماح لغير المسلمين بدخولها؟

ـ نعم.

رد سراج باقتضاب وحاول أن يغير مجرى الحديث بسرعة فأشار إلى مضارب بدو تناثرت في الوديان والسهول وعلى التلال والهضاب وقال:

ـ أنظري... هذه مضارب البادية... وأهلها يرعون الغنم والإبل حيث تتوافر الخضرة والماء... ولا بد للسائق من أن يكون حذرًا وهو يجتاز هذه المنطقة لأن الحيوانات تقطع الطريق فجأة في بعض الأحيان مما يتسبب في وقوع حوادث.

واستهوى منظر الإبل نفس كريستينا فصفقت بمرح وهي تقول:

ـ أتمنى أن ترتب لي ركوب أحد الجمال ذات يوم.

ـ أفعل إن شاء الله... وسوف أختار لك جملًا من جمال المدن لأنها معتادة على رؤية السيارات ومواجهتها فلا تجفل منها.

وسألته الفتاة بهدوء شديد:

ـ على فكرة يا سراج... هل توجد في مكة جمال؟

وشعر بالضيق لأنها عادت إلى الحديث عن مكة المكرمة بعد أن أغلق بابه، لأنه كان يتوقع نوعية الأسئلة التي ستلقيها عليه حولها... وأراد أن يغير مجرى الحديث مرة أخرة إلا أنها ـ فيما يبدو ـ كانت مصممة على استئنافه:

ـ قلت لي أن الرب قد منع غير المسلمين من دخول مكة... فهل ينطبق ذلك علينا نحن المسيحيين؟

ـ طبعًا.

ـ لماذا؟... إنني أعلم أن ربنا هو ربكم... فلماذا يمنعنا من دخول بيته في مكة؟

وزفر سراج بشيء من الضيق وهو يجيب:

ـ كريستينا... لا داعي لأن نسترسل في هذا الحديث... إنه طويل ومعقد.

ـ لماذا؟

ـ هكذا.

ـ لماذا؟

ـ لأن ديننا يختلف عن دينكم.

وتطلعت إليه كريستينا في رجاء وهي تقول:

ـ إنني أريد أن أفهم... فأفسح لي صدرك قليلًا... وأجبني على أسئلتي بلا ضيق... أرجوك.

وإذ لمس سراج إصرارها على الخوض في هذا الحديث، تنهد باستسلام وقال لها:

ـ كما تشائين... تفضلي واسألي.

ـ أنا أعرف أنكم تحبون المسيح عيسى ابن مريم... وتحترمونه... ولهذا كنت أتوقع أن تجاملوا من هم على دينه.

ـ هذا صحيح... نحن نحترم المسيح عليه السلام ونُجِلُّه... ونعتبره نبي الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول.

ـ إذن كيف تمنعونا من دخول مكة؟

ـ إننا ننفذ أمر الله سبحانه وتعالى كما قلت لك.

ـ وهل الرب قال ألا يدخل المسيحيون مكة؟

ـ لا... لم يقل هذا... ولكنه قال: ﴿إنما المشركون نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام﴾.

واعتدلت كريستينا في جلستها واستدارت نحوه قائلة في حدة:

ـ ولكننا لسنا مشركين... نحن مؤمنون... أجل... نؤمن بالرب... ربنا وربكم واحد.

ـ أنتم تقولون بالتثليث... «الآب والابن والروح القدس»... وهكذا تجمعون الرب ثالث ثلاثة.

وأطرقت كريستينا لحظة تفكر ثم رفعت رأسها وقالت هامسة:

ـ سراج... لن أكتمك... إنني وأبي لا نؤمن بهذه العقيدة.

وتساءل سراج بدهشة واضحة:

ـ ماذا تعنين؟

ـ نحن نؤمن بأن هناك إلٰهًا واحدًا... وإن عيسى ابن الله.

ـ أما نحن فنؤمن بأن الله واحد أحد... فرد صمد... لم يلد ولم يولد... ولم يكن له كفوًا أحد.

وحين شرح لها سراج معنى هذه الكلمات قالت وقد بدا عليها التفكير العميق:

ـ هذا يصدر عن منطق معقول... ولكن اعذرني يا سراج... إنني أجهل ديانتكم.

ثم أضافت بسرعة وهي تبتسم ابتسامة رقيقة:

ـ أرجو ألا تكون أسئلتي قد أزعجتك.

ـ لا شيء يستدعي الاعتذار... (وأضاف ضاحكًا) على كل حال لقد ساعدتنا هذه المناقشة على أن نقطع هذا الطريق الطويل دون أن نحس بالملل.

ـ شكرًا لك يا سراج.

ـ الشكر لك أنت... وثقي تمامًا أننا نحترم نبيكم ونجلّه... لقد تحدث القرآن عنه وعن والدته عليهما السلام بشكل موسع.

* * *

استمرت اللقاءات بين سراج وكريستينا وقد توطدت العلاقة بينهما أكثر، وكان السيد باركر وزوجته يبديان ارتياحًا شديدًا لهذا التفاهم الذي ربط بين الاثنين، فقد امتص أوقات فراغ كريستينا وساعدها على فهم عادات وتقاليد أهل جدة.

وكان مبعث ارتياحهما، أيضًا، ما تميز به سراج من أخلاق رفيعة ومعاملة حسنة، كما أن السيد فاروق تيسير كان يبدو مرتاحًا لهذه العلاقة الطيبة بين ولده والفتاة الأميركية وإن كان ينبه سراج بين الحين والآخر إلى ضرورة الاهتمام بدراسته، مع أن سراج لم يكن في حاجة إلى هذا التنبيه، فقد كان لامعًا بين زملائه وحصل على جوائز في التفوق الدراسي أكثر من مرة أثناء دراسته الثانوية.

أما والدة سراج فقد كانت الوحيدة التي ملأ قلبها القلق والشك، وكانت تبدو طوال الوقت خائفة واجمة تفكر في قلق، وضاعفت خوفها أن زوجها لم يكن يشاركها في تخوفها من الخطر المحدق بابنهما بل إنه كان يسخر أحيانًا من تلك المخاوف، وأحيانًا يتهمها في قسوة بأنها تبالغ في تخيلاتها وأوهامها وتجسيم الأمور على صورة تزيد عن حجمها الحقيقي.

وقال لها مرة:

ـ إنك بهذه الهواجس سوف تخلقين مشكلة لا وجود لها وتغرسين في ذهن الولد أمورًا هي أبعد ما تكون عنه.

ومع هذا لم تتوقف الأم عن الشعور بالخوف والقلق، وإن كانت قد حرصت على كتمان هذه المشاعر عن ولدها فهي تعرف رقته وحساسيته، فحرصت على ألا تحرج كريستينا فهي ـ على أية حال ـ فتاة طيبة ومتزنة، وهي تشعر نحوها بعطف شديد رغم مخاوفها من عواقب علاقة ولدها سراج بها واندفاعه نحوها.

* * *

خرجت عائلة السيد باركر للنزهة على طريق المدينة، وكان سراج في صحبتها، وأبدت كريستينا اهتمامًا فائقًا بمعرفة أنواع الزهور البرية التي تنتشر في الصحراء وعند سفوح الجبال على وجه الخصوص فراحت تجمع بعضها وسراج يرافقها صامتًا ساهمًا.

وانحنت كريستينا على زهرة تقطفها فقال لها سراج مداعبًا:

ـ أليس جميلًا أن يستطيع الإنسان قطف زهرة هنا دون أية معارضة؟

فالتفتت إليه وهي تتساءل في دهشة:

ـ معارضة؟... ممن؟

ـ من الذين يملكون هذه الزهور أو من السلطات.

ـ ولكن هذه زهور برية.

ـ هذا ما عنيته بالضبط.

ـ لم أفهم... أوضح من فضلك.

ـ إن الأمور في البادية هي أقل تعقيدًا منها في المدن... فالإنسان يستطيع هنا أن يتصرف وأن يعرب مباشرة عما يريد الحصول عليه دون تعقيدات.

ـ أيضًا لم أفهم... ويخيل إليّ إنك قد أصبحت فيلسوفًا أو حكيمًا.

ـ لا هذا ولا ذاك... إنما أردت أن أقول إن حياة المدينة أكثر تعقيدًا من حياة البادية.

ـ هذه مسألة بديهية يا عزيزي... وما كنت بك حاجة إلى كل ذلك اللف والدوران كي تثبتها... أليس كذلك؟

وتوقفت تنتظر جواب سراج ولكن هذا ظل ساكتًا.

ـ ما بك؟... لم تسكت؟

وظل سراج صامتًا لأنه لم يجد الشجاعة لكي يكمل الحديث الذي بدأه.

وواصل الاثنان نزهتهما سيرًا على الأقدام.

وفجأة أمسك سراج بذراعي كريستينا وجذبها إليه وراح ينظر في عينيها كمن يريد أن يقول شيئًا هامًا، ولكنه لم يقل شيئًا، فأفلتت كريستينا من يديه وقالت له ضاحكة:

ـ ما بك يا سراج؟... هل تريد أن تنومني مغناطيسيًا؟

فقال وهو يزفر بحرارة:

ـ للأسف... إنني لا أجيد ذلك.

ـ إذن ماذا تريد؟

ـ أريد... أريد أن أصارحك بشيء في نفسي... شيء يؤرقني ليلًا ويرهقني نهارًا.

وتساءلت الفتاة في تعجب:

ـ وما هو ذلك الشيء يا ترى؟

فلم يجب، وإنما نظر إليها طويلًا، ثم رفع نظره إلى السماء في أمل وشعرت الفتاة أنه يريد أن يقول شيئًا، فجذبته إلى أحد الكثبان الرملية فجلست وجلس جوارها.

ـ ما بك يا سراج؟

ـ إنني... إنني.

وتمهل قليلًا ثم اندفع يقول في إخلاص:

ـ إنني أحبك يا كريستينا... نعم... أحبك... وقد كنت أود أن أصارحك فيما مضى... ولكنني... لم أجرؤ على ذلك.

ولم تجب كريستينا، بل نهضت وراحت تتمشى وهي مطرقة، فنهض سراج خلفها وهو يترقب جوابها بلهفة وخوف وقد تعلقت عيناه على شفتيها.

وأخيرًا انفرجت الشفتان عن ابتسامة عذبة وسمعها تهمس:

ـ وأنا أيضًا أحبك يا سراج... ولو لم تفاتحني أنت في ذلك لفاتحتك به أنا.

وأحس سراج بسعادة تجتاح كيانه، وتزاحمت الكلمات على شفتيه كأنما تريد كل منها أن تسبق الأخرى للتعبير عما شعر به من سعادة غامرة، وقبل أن ينطق بأية كلمة سمعا صوت السيد باركر يناديهما من بعيد:

ـ هي... كريستينا... سراج... ماذا يجري هناك؟... إنكما تبتعدان.

فتمتمت كريستينا في سعادة:

ـ بل إننا نقترب أكثر من أي وقت مضى.

وابتسم سراج، فاحتضن يدها بيده وأسرعا عائدين.

* * *

كانت الأيام التالية حرجة وعصبية في حياة كريستينا وسراج، بل وفي حياة عائلتيهما كذلك، فقد صارحت كريستينا والديها بحبها لسراج وحبه لها، ورغبتهما في الزواج من بعضهما. مل وشعرت الفتاة أنه يريد أن يقول شيئًا، فجذبته إلى أحد الكثحبه لها، ورغبتهما في الزواج من بعضهما.

وذهل السيد باركر وزوجته للخبر، وبدا عليهما أنهما لم يكونا يتوقعان هذه النتيجة السريعة للعلاقة بين الفتى والفتاة، أما في منزل السيد فاروق فلم يكن الوضع أقل تأزمًا، وكانت الأم أكثر أهل البيت ألمًا وحسرة، فقد وقع ما كانت تخشاه وتحسب له ألف حساب، وتورط ولدها في علاقة توقعت عواقبها منذ البداية.

ولم تسكت الأم هذه المرة، بل راحت تنحي باللائمة على الأب وتضع التبعة كاملة على عاتقه وقالت:

ـ ماذا أقول للناس؟... ماذا أقول لأهلي؟... هل أقول إننا بعنا ولدنا الوحيد للأجانب؟... هل أقول إننا بعنا ديننا بدنيانا؟... تكلم يا فاروق... أجبني... أنت السبب في كل هذا... أنت الذي وضع النار بجوار الهشيم.

وقال الأب محاولًا أن يهدئ من روعها:

ـ اهدأي يا صالحة... لا داعي لكل هذه الضجة.

ـ لا داعي لهذه الضجة؟... كيف؟... هل تعتبر المسألة بسيطة؟... أم تظنني مغفلة؟

ـ حسبي الله ونعم الوكيل... هدّئي من روعك واعلمي أنني لا أقل عنك ألمًا وقلقًا... ولكن علينا أن نفكر في روية وهدوء لا أن

نتشنج. . . إن الأمر يختص بأغلى شخص في حياتنا. . . وعلينا أن نعالجه بحكمة. . . ثم إن المحذور قد وقع بالفعل. . . وعلينا أن نجد لولدنا مخرجًا منه دون أن نجرح شعوره أو نتسبب في إيلامه أو نسيء إليه. . . فهو في السنة النهائية من دراسته وأي إرباك نحدثه له سوف يضر بمستقبله حتمًا. . . إن لم يقض عليه. . . إنه متعلق بالفتاة أشد التعلق. . . أتفهمين معنى ذلك كله يا صالحة؟

ـ نعم أفهم. . . ولكنه لا يعني لي شيئًا.

ـ بل إنه يعني كل شيء.

وصمت الاثنان، فقد دخل سراج فجأة وعلى وجهه معالم الحزن، فانزعج الاثنان وهب الأب واقفًا وهو يتساءل في انزعاج:

ـ ماذا بك يا ولدي؟. . . ولم يبدو عليك الحزن والألم هكذا؟

ـ كيف لا أكون كذلك وقد تبين لي أنكما ضدي؟. . . أنتما آخر من تصورت أن يقفا ضدي.

ـ ما هذا الذي تقوله يا بني؟. . . نحن نقف ضدك؟

ـ لقد سمعت شيئًا من حديثكما وأنا عائد لتوّي من الخارج. . . إنني أتعجب أشد العجب لتفكيركما بإنهاء الموضوع كما تريدان. . . إنكما تخشيان كلام الناس. . . أما أنا فلم تفكرا فيّ. . . ولم تعيرا سعادتي أي اهتمام. . . فلماذا؟. . . لماذا يا أمي؟. . . لماذا يا أبي؟

ـ أنت مخطئ يا بني. . . لا أنا ولا أمك يمكن أن نقف ضدك. . . ولكننا نخشى عواقب الأمور. . . ويهمنا أن تقيم حياتك الزوجية على أساس متين. . . لا على شعور عابر أو عاطفة مؤقتة.

ـ إنني أحبها. . . أحبها يا أبي. . . أحبها يا أمي. . . أحبها حبًا جارفًا ملك عليّ كل مشاعري. . . إن ما بي ليس شعورًا عابرًا أو شعورًا مؤقتًا.

وانحدرت الدموع من عيني الأم غزيرة حارة، بينما قال الأب بصوت حاول ما استطاع أن يخلو من أية رنة تدل على الغضب أو الاستياء:

ـ إننا نقدر مشاعرك كل التقدير يا ولدي... ولكن المسألة ليست بالبساطة التي تتصورها... هناك اختلاف الدين... فهي مسيحية وأنت مسلم... وهناك عائق آخر هو عدم جواز ارتباط السعودي بأجنبية إلا بإذن خاص من وزارة الداخلية... وفوق هذا... فوالدها ديبلوماسي... هذه، كلها، أمور لا بد من دراستها ومعالجتها بمنتهى الدقة والتعقل.

وظل سراج صامتًا، ولكن أساريره كانت تنم عما يشعر به من معاناة، الأمر الذي لاحظته الأم فجففت دموعها وأنهت الحديث بقولها:

ـ دعونا من هذه المناقشة الآن... وهيا بنا إلى الحديقة لنشرب الشاهي معًا.

دخل السيد باركر إلى المنزل على عجل وطلب من زوجته باقتضاب أن تلحق به إلى غرفة المكتب، وكان الاهتمام الشديد يبدو على وجهه، إذ ابتدر زوجته سالي فور لحاقها به ومعها كريستينا:

ـ حسنًا فعلت إذ اصطحبت كريستينا معك... إنني أريد الحديث بخصوص رغبتها في الزواج من سراج.

وكان الأب عابس الوجه متجهم الأسارير، وقد وشت خطواته السريعة التي كان يذرع المكتب بها بما يحس به من قلق وعصبية، ولم يفت كريستينا أن تلاحظ ذلك، ولكنها ظلت صامتة بينما استأنف هو الكلام:

ـ لقد رجعت إلى القوانين السعودية فوجدت أنها لا تسمح بالزواج من أجنبية... وهناك أيضًا عائق آخر هو اختلاف الدين... إنه الموضوع الأكثر تعقيدًا... لذا فإنني أنصحك، يا كريستينا، أن تتصرفي بحكمة وتعقل فلا تتورطين أكثر مما فعلت مع سراج... كذلك أخبرك أنني أتوجس من عواقب هذا الحب وتفكيرك في الزواج منه.

وتنهدت الأم بعمق وقالت مخاطبة كريستينا:

ـ هل سمعت ما يقول أبوك؟... عليك أن تتفهمي المخاطر الناجمة عن صلتك بسراج وأن تحاولي نسيان ما بينك وبينه.

واستلم الأب زمام الحديث فقال بلهجة حانية:

ـ يمكن أن نعالج الموضوع بابتعادك إلى أمريكا فترة تنسين فيها كل شيء وتكملين دراستك... وبهذا تحل المشكلة بسهولة وبلا مضاعفات... هه... ما رأيك؟

وكان واضحًا على كريستينا أنها لا تشارك أبويها رأيهما إذ لم تلبث أن قالت على الفور معلقة على كلام أبيها:

ـ إنني أعرف عددًا من المسيحيات اللواتي تزوجن من مسلمين هنا في جدة... بعض أزواجهن سعوديون وبعضهم غير سعوديين... كما أنني فهمت من سراج أن الدين الإسلامي لا يمنع من زواجي منه.

وقال الأب بجفاء:

ـ لقد أوضحت لك كل ما عرفته عن طريق المصادر الرسمية... ليس عندي ما أضيفه فوق هذا.

ونهض يريد الخروج دون أن يشرب القهوة التي جاءه بها الخادم، فقالت له كريستينا بلطف:

ـ إنك لم تتناول قهوتك يا أبي.

ـ آسف... لقد نسيت.

وعاد إلى مقعده وتناول الفنجان الذي قدمته له ابنته وهو ينظر إليها في عطف شديد، ثم قال وكأنه يبرر موقفه وموقف والدة كريستينا:

ـ أرجو أن تلتمسي لنا العذر يا ابنتي... فأنا وأمك قد أصبحنا في غاية القلق على مستقبلك.

ـ لا داعي لأن تقلقا يا أبي... سراج ولد طيب... وأنتما تحبانه... فما الداعي للقلق؟

ورد الأب وهو يضع فنجانه على الطاولة الصغيرة:

ـ الزواج يا ابنتي مسألة تختلف عن أية مسألة أخرى.

ـ إنه أفضل وأكرم من أية علاقة طائشة. . . ولا تنسيا أنني أحبه. . . أحبه هل تدركان ذلك؟. . . هل تفهمان معنى ذلك؟

ولم يجب الأب بل التفت نحو زوجته ليرى رد الفعل لديها أثر كلمات كريستينا فلاحظ أن عينيها تترقرقان بالدموع وهي تحاول جاهدة أن تخفي مشاعرها وتسدل عليها ستارًا من الهدوء المفتعل.

ولم يفت كريستينا أن تلاحظ حالة أمها، فنهضت واتجهت إليها ثم قبلتها وهي تسألها بدهشة:

ـ أماه. . . أنت تبكين؟

ـ آسفة يا ابنتي. . . لم أستطع كبت مشاعري.

ـ أنا التي يجب أن تبكي. . . لا أنت يا أماه.

ـ إنني أبكي بدلًا عنك يا كريستينا. . . لأنني أعرف مشاعرك وأتفهم موقفك.

ـ دعوني أقل لكما بصراحة. . . أنا مصممة على الاحتفاظ بسراج سواء قبلت المقاييس التي تتحدثون عنها أم لم تقبل. . . سأحتفظ به يا أبي. . . سأحتفظ به.

وارتمت على صدر أبيها وهي تنشج بحرارة دلت الأب على مقدار ما تعاني ابنته من ألم ولوعة، فأخذ يدها بين راحتيه وقال لزوجته:

ـ فلنخرج إلى الهواء الطلق. . . إنني أكاد أختنق هنا. . . يا إلهي. . . ما الذي أوقعنا في هذه الورطة؟. . . إن دماغي يكاد يتوقف عن التفكير.

وعلقت الأم وهي تنهض وتلحق بهما عند الباب:

ـ أما أنا فقد توقف دماغي تمامًا. . . ولم يبق لي سوى هذه الدموع لأعبر بها عن آلامي التي سببتها لي كريستينا دون قصد. . . ليتني أستطيع أن أتفهم الأمور كما تتفهمها هي.

* * *

مضت الأيام التالية كئيبة رتيبة، فقد أدرك سراج وكريستينا أن

زواجهما يكاد يكون في حكم المستحيل بعد أن تضافرت القوى والظروف ضدهما وسارت في غير صالحهما، ولكن ذلك لم يوهن من عزم الاثنين لا سيما بعد أن تخرج سراج بامتياز وتفوق، فقالت له كريستينا باعتزاز وفخر:

ـ إنني أشعر بفرحة كبيرة يا سراج... وأحس بأن لي في نجاحك العظيم هذا نصيبًا... أتعرف أنني لم أفرح بهذه الصورة يوم تخرج أخي «جون» من الكلية؟

وابتسم سراج بسعادة وقال وهو يشد على يدها بقوة:

ـ ما أسعدني إذ أسمع منك هذا... ولو أنه لم يكن يخفى عليّ.

ـ تدري؟... إنني أشعر بأننا نزداد قربًا من بعض أكثر فأكثر... رغم العقبات والعوائق التي تعترض سبيل آمالنا.

ـ ما أسعدني إذ أسمع هذا أيضًا... وإنني لواثق من أن الصعوبات القائمة أمامنا لا تلبث أن تزول.

ـ إنني أشعر شعورًا عميقًا بأنها ستزول... أجل... سوف نتزوج وسوف نسعد بحبنا وزواجنا... ويكون لنا أولاد صغار وبنات... إنني أحب البنات فأي الأولاد تحب أنت؟... البنات أم البنين؟

ـ أحب الاثنين... كما أحب كل ما يأتي منك أو له صلة بك.

❊ ❊ ❊

وانشغل سراج في الأيام التالية بأمور العمل وراح يقضي الوقت في استكمال الأوراق ومقابلة المسؤولين حتى لم يتبق سوى وقت قصير يتسلم بعده عمله في المستشفى الجامعي.

وكان فرحًا بعمله في إدارة المستشفى الجامعي لا سيما وأن البرنامج كان يشتمل على تأهيل لمدة سنتين في إحدى الجامعات لدراسة إدارة المستشفى كعمل متخصص.

وكما هي عادته في التعامل مع الناس، نجح سراج في تكوين

أصدقاء جدد، ولم تمض أشهر قلائل حتى كانت له علاقات طيبة بجميع من حوله وضاعف هذا من سعادته وجعله يقبل على عمله بروح إيجابية عالية.

أما كريستينا فقد انشغلت بأمر ملك عليها كل جوارحها وهو دراسة الإسلام دراسة واعية وواسعة، فلقد شعرت برغبة طاغية في التعرف إلى هذا الدين، ومعرفة أصوله وتعاليمه، والاطلاع على مختلف شؤونه... وكان سراج يساعدها على ذلك، فيحضر لها الكتب والمصادر والبحوث، ويلخص لها بعض الدراسات والمحاضرات الخاصة بمختلف أمور الدين الإسلامي والتي كان يقوم بها كبار العلماء والمتخصصين، ويشرح لها ما يستعصي عليها فهمه.

وكان سراج، في كل ذلك، حريصًا كل الحرص على أن يترك للفتاة فرصة التعرف على الإسلام بصورة طبيعية لا إكراه فيها، لعلمه بأن حسّها السليم لن يلبث أن يقودها إلى الطريق الصحيح.

وتحقق ما توقعه سراج، فقد أبدت كريستينا رغبة قوية في اعتناق الإسلام عن قناعة عقلية وإيمان قلبي.

وعندما صارحت أباها بالأمر حاول جاهدًا أن يوضح لها أن حبها لسراج شيء وتركها لدينها شيء آخر، كما بكت الأم وتوسلت ونصحت وأنذرت، ولكن كريستينا ظلت على موقفها مؤكدة أن رغبتها في اعتناق الإسلام لا علاقة لها بحبها لسراج، لأن دراستها لهذا الدين قد فتحت عينيها على أشياء كانت غائبة عنها وأنها واثقة من أنها سوف تجد في هذا الدين ما تنشده من راحة نفسية واطمئنان روحي.

❊ ❊ ❊

قال سراج لكريستينا وهو يراها لأول مرة في ملابس محتشمة:

ـ لو تعلمين كم أنت جميلة يا كريستينا بهذه الملابس... إنك تبدين لي كإنسان جديد.

وأحنت كريستينا رأسها مؤمنة على كلامه وهي تقول:

ـ إنني، فعلًا، إنسان جديد... لا أستطيع أن أصف لك ما أنا فيه من سعادة بعد أن اهتديت إلى هذا الدين.

والواقع أن اعتناق كريستينا للإسلام قد أحدث ضجة في بيت السيد باركر كما أحدثها في بيت السيد فاروق.

أما السيد باركر فقد تقبل الأمر كارهًا دون أن يحاول إثناء ابنته عما اعتزمته، وكان للأسلوب الأميركي في الحياة، من حيث ترك حرية القرار للأبناء متى كبروا، دوره في هذا التقبل.

أما في بيت السيد فاروق فإن الأم قد استقبلت النبأ بحذر وتحفظ، بينما استقبله الأب بفرح واغتباط.

كانت مشاعر الأم تتخبط بين التساؤل الحذر عن سبب اعتناق تلك الفتاة للدين الإسلامي وعلاقته بحبها لابنها، وبين الخوف الغريزي من الأم على ولدها من أن «تختطفه» منها امرأة أخرى، أيًا كانت.

ولكن الأم كتمت مشاعرها تلك في نفسها وتركت للأيام أن تكشف عما تخبئ.

وقالت كريستينا لسراج وهي تبتسم:

ـ هيا... لقد آن الأوان... ولم يعد هناك ما يمنع.

وتساءل سراج في استغراب:

ـ ما يمنع من ماذا؟

ـ من دخولي مكة... وزيارة بيت الله الحرام فيها... إنني في أشد الشوق لرؤية الكعبة المشرفة والطواف حولها.

ـ الحق معك... ولا أدري كيف لم أنتبه إلى ذلك... سنؤدي العمرة... ونرجو من الله تعالى أن يتقبلها منها.

وانطلقت بهما السيارة من جدة باتجاه مكة المكرمة حتى وصلت إلى «طريق الخواجات» وهو الطريق الذي يسلكه غير المسلمين عند مفترق الطرق إلى مكة المكرمة، فتنهدت كريستينا في سعادة وهي تقول:

ـ الحمد لله الذي هداني إلى الإسلامي.

ـ لقد تأخر إسلامك يا كريستينا.

ـ لا... لقد كنت مسلمة بالفطرة... نعم... إنني مسلمة منذ زمن طويل فلا تقل هذا القول.

يتصور البعض أنك دخلت في الإسلام من أجلي.

ـ إنه تصور غير سليم... حقًا لقد أحببت الإسلام من خلال تصرفاتك... ولكنني لم أدخله من أجلك... لقد دخلته، كما سبق وأكّدت لك، عن اقتناع عقلي وإيمان قلبي بأنه دين الحق... وأقسم لك أنني قد أحسست بعد إسلامي بأن روحي قد اغتسلت في لجة نورانية... وإن نفسي قد استراحت واطمأنت على شاطئ أمين.

فقال سراج وقلبه يتوثب في سعادة لا تعدلها أية سعادة أخرى:

ـ لا أملك بعد أن سمعت هذا منك إلا أن أحمد الله وأشكر فضله... وأرجوه ﷻ أن يسهل بإسلامك ما تعسر من أمرنا.

ـ أنا أيضًا أرجو من الله ذلك... ثم إني... إني...

ـ إنك ماذا؟

ـ لو أن العالم كله وقف ضدي وضدك وضد ارتباطنا فإنني على استعداد لمواجهته ومحاربته من أجل الحفاظ على ديني والبقاء إلى جوارك.

ـ لو لم أكن أعرفك تمامًا لصعب علي أن أفسر هذا التعلق الشديد بالدين الإسلامي وأنت ما زلت حديثة عهد به.

ـ أتعرف، يا سراج، الفارق بيني كمسلمة وبينك كمسلم؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت مسلم بالولادة... وقد نشأت في أسرة مسلمة تعيش في مجتمع مسلم.

ـ هذا صحيح طبعًا... ثم ماذا؟

ـ أنت لم تناقش الإسلام كعقيدة... ولم تعش التهيب الرهيب

الذي كنت أعيشه قبل الدخول في الإسلام... ولم تعرف الصراع الجبار الذي كان يدور في نفسي قبل أن أترك المسيحية، وبالتالي لم تتذوق حلاوة الإسلام كما تذوقتها أنا.

ـ وكيف وجدتها يا كريستينا؟

ـ إنها حلاوة الماء البارد العذب تجده بعد رحلة طويلة شاقة مضنية وسط صحراء قاحلة مقفرة في يوم قائظ قد اشتعلت رماله، والتهب هواؤه فجفّ الحلق وتشققت الشفاه وأوشكت الروح أن تزهق.

قال سراج مبهورًا بالصورة العجيبة التي رسمتها بكلماتها:

ـ يا لها من لوحة... لقد أبدعت يا كريستينا الإبداع كله.

ـ صدقني إنني أصف ما أحس به دون زيادة أو مبالغة.

دار الحديث بينهما وتشعّب حول هذا المعنى عندما ختمته كريستينا بحمد الله الذي جاء بها من أمريكا ليمنّ عليها بالإسلام في جدة.

وسأل سراج:

ـ كيف تقبّل أبوك وأمك هذا الوضع؟

ـ الحق أنهما يبديان تفهمًا كبيرًا... ويحافظان ما استطاعا على شعوري... وهذا يكفيني الآن... ولكنني...

وتوقفت عن الكلام ونظرت إلى الإمام وفي عينيها أمل كبير فاستحثها سراج على الكلام.

ـ ولكنك ماذا؟

ـ إنني أتمنى أن يوفقني الله إلى هدايتهما للإسلام... وأن يشرح قلبيهما له.

وابتسم سراج وعلق:

ـ لو سمعاك لجنّ جنونهما.

ـ لا تخف عليهما... وأعتقد أنهما يتفهمان شعوري.

ـ صحيح... ولكن هذا الحوار سيكون صعبًا في الوقت الحالي.

ـ ليس هذا مستحيلًا... وعون الله أكبر.

اقتربت السيارة من مكة ولاحت لعيني كريستينا منائر الحرم الشريف سامقة في السماء وكأنها أذرع ممتدة بالابتهال والدعاء، فصاحت مهللة مكبرة، وراحت تلبي في حرارة وصدق، وشاركها سراج انفعالها الذي كان أقوى من انفعاله وأعنف، وفجأة توقفت عن التلبية وقالت:

ـ سراج... كيف أدخل بيت الله واسمي كريستينا؟... إنه اسم مسيحي مائة بالمائة.

ـ لا عليك يا كريستينا... فالمسألة مسألة قلوب لا مسألة أسماء كما تعلمين ولا بأس في ذلك... وبوسعك أن تحتفظي باسمك.

ـ أحب أن أدخل بيت ربي باسم مسلم كقلبي المسلم... هيا... اختر لي اسمًا إسلاميًا خالصًا... هيا.

وراح سراج يعرض عليها العديد من الأسماء، ولكنها أعجبت أكثر باسم «فاطمة الزهراء» فهتفت:

إنه اسم بنت رسول الله ﷺ التي كانت أشبه الناس به... والتي هي من أفضل نساء العالمين... وزوج علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ما أعظم أن أتشرف بحمل هذا الاسم.

ودخلا المسجد قبل الأذان لصلاة العصر، وما كادت الزهراء تخطو خطوات معدودة تجاه الكعبة المشرفة وترى الكتل البشرية الهائلة المتراصة حولها انتظارًا لإقامة الصلاة، وقد تجمعوا من كل جنس ولون وافترشوا الأرض جنبًا إلى جنب... لا فرق بين فقير وغني... أو صغير أو كبير... حتى وقفت مأخوذة مبهورة وهي تردد:

ـ الله أكبر... الله أكبر.

وأحاطت بها رهبة غريبة وهي تطوف البيت العتيق، والناس

حولها يطوفون ويبتهلون. . . ويبكون خاشعين ضارعين، وقد تعالت الأصوات من المطوفين والطائفين:

«. . . رب زد بيتك هذا تعظيمًا وتشريفًا ومهابة وأمنًا».

وآخر ينادي بأعلى صوته:

«. . . رب لا تذرني فردًا وأنت أرحم الراحمين».

«اللهم اسقني من حوض نبيك وحبيبك سيدنا محمد شربة هنيئة مريئة لا أظمأ بعدها أبدًا».

وحانت منها التفاتة نحو شيخ يطوف في وقار، ويرفع صوته بالدعاء وقد تبللت لحيته بالدموع وهو يدعو:

«. . . اللهم إن هذا البيت بيتك. . . والحرم حرمك. . . والعبد عبدك. . . وأنا يا إلهي عبدك وابن عبدك. . . أرجو رحمتك وأخشى عذابك من النار».

وتعالت الأصوات واختلطت نداءات الحناجر:

«. . . اللهم إني أعوذ بك من الشك والشرك والشقاق».

«اللهم اسقني من حوض نبيك».

«. . . اللهم اجعل في قلبي نورًا. . . وفي عينيّ نورًا».

وملأت الفرحة قلب الزهراء وراحت ترفع يديها بالدعاء وسراج بجانبها يرفع صوته بالدعاء وبعد الطواف تعلقت بالبيت العتيق، وراحت تبتهل إلى الله في ضراعة أن يعينها على البقاء في الإسلام ويشرح صدرها له.

وشربت من ماء زمزم. . . وشعرت بحلاوة مميزة وهي تروي ظمأها منه.

ثم خرجت إلى المسعى، فكانت تسعى وتداعب سراج في براءة وهي تحاول أن تسبقه في الهرولة بين الصفا والمروة، ولكنه أفهمها أن الهرولة مقتصرة على الرجال فقط.

كانت الزهراء تبدو جميلة ورائعة في ملابس الإحرام، وقد بدأت حبات من العرق تتناثر على جبينها كاللؤلؤ وقد أشرق وجهها بنور الإيمان، وضاء قلبها بنور الإسلام، فشعرت بأنها خفيفة حتى لتكاد تطير من الفرح والسعادة اللذين ملآ جوانبها.

ونظرت الزهراء إلى الكعبة وقالت لسراج:

- لماذا يسمون الكعبة بالحجر الأسود وهي ليست سوداء وإنما الثوب وحده هو الأسود؟

- هذا اصطلاح يستعمل عندكم في الغرب... والكعبة ليست سوداء... بل هي من حجارة مكة... وهناك جبل يعرف بجبل الكعبة، ويعتقد البعض أن هذه الحجارة قد أحضرت منه.

- ومن أين جاءت هذه التسمية إذن؟

- لا أعلم... وربما يخلطون بين الكعبة والحجر الأسود... أو الأسعد... كما نسميه.

- من أين جاء هذا الحجر؟

- من السماء.

- كيف جاء؟

- لا أعرف.

- من يعرف إذن؟

- يعرف ذلك الراسخون في العلم... وأنا لست من الراسخين في العلم.

- أنت إذن من الراسخين في ماذا؟

ونظرت إليه بخبث، فأجاب وهو يبتسم:

- من الراسخين في الحب.

وضحك الاثنان.

ورأت الزهراء بعض الناس يطوفون حول البيت وهم محمولون

على «الشباري»، وهي قطع من الخشب تتخللها أربطة من سعف النخل، ويحمل كل «شبرية» رجلان.

ـ ما هذا؟... لماذا يطوف هؤلاء فوق الناس؟... هل هم من علية القوم وكبارهم؟

ـ لا... إنهم ليسوا كذلك... وإنما هم عجزة لا يستطيعون الطواف فحملهم هؤلاء مقابل أجر.

ـ فهمت.

ـ الحمد لله.

هل تضايقك أسئلتي يا سراج؟

ـ أبدًا... ولكنها كثيرة... والمفروض أن نمضي الوقت في الدعاء والابتهال.

ـ أصبت... وأرجو المعذرة.

ـ لا عليك.

وعندما أتمت العمرة وانطلقت بها السيارة مع سراج قالت:

ـ لقد ندمت على ما فات من عمري قبل أن أجيء إلى مكة المكرمة وأطوف بالكعبة المعظمة وأعيش هذه اللحظات الروحية السامية... إنني أحس كأنني قد ولدت من جديد.

* * *

دخلت والدة الشيخ حسان العشي المستشفى، وكانت سيدة فاضلة كريمة اليد والنفس... والتفت العائلة حولها وفي مقدمتها ولدها الذي كان بارًا بها.

وكما هي عادة سراج، فقد حرص على تقديم كل التسهيلات اللازمة للمريضة، وأعجب الشيخ حسان بنشاطه وقدّر له إخلاصه في علمه، وعندما تماثلت والدته للشفاء حرص على إكرام سراج وراح يسأله عن وضعه وأحواله، ولما عرف بقصته مع كريستينا صمم على مساعدتهما، وكان على علاقة طيبة مع كثير من المسؤولين فأقنعهم

بسلامة الوضع وبذل جهدًا كبيرًا حتى حصل على إذن بزواج سراج وكريستينا.

وكانت فرحة الاثنين بالحصول على إذن الزواج أكبر من أن توصف، فلقد بكت كريستينا وقالت لسراج من خلال دموع الفرح:

ـ لقد طلبت من الله وأنا أطوف بالكعبة أن يسهل لنا هذا الأمر.

فأجابها بتأثر:

ـ وها هو ﷻ قد استجاب دعاءك ومنّ علينا بتحقيق أملنا في يسر وسهولة.

ـ الحمد لله... والشكر له ثم للشيخ حسان.

وألقى سراج بجسمه المتعب على الأريكة وهو يقول:

ـ والآن... علينا أن ندرس الأمر ونتخذ ما يلزم من ترتيبات دون أن نرهق أحدًا معنا.

ـ هذا رأيي أنا أيضًا.

❊ ❊ ❊

سأل السيد باركر ابنته:

ـ متى تريدان عقد القران؟

ـ اتفقت مع سراج على أن نعقده فور عودتي من السفر.

ورفع الأب حاجبيه الكثيفين في دهشة وقال:

ـ السفر؟... هل تعتزمين السفر؟

ـ أجل يا أبي... إنها رحلة قصيرة جدًا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أمريكا... أصفي بها أعمالي وأحضر حاجياتي الهامة... هل لديك اعتراض؟

ـ لا... أبدًا... لا اعتراض عندي.

وفي اليوم المحدد للسفر جاء سراج وصحبها إلى المطار في سيارته، وكان واضحًا أنه يبذل جهدًا للسيطرة على أعصابه وكبت

مشاعره وقلبه حزين لفراقها، وكأنما أحست هي بذلك فقالت:

ـ يعلم الله أنني لا أريد فراقك ولا أقوى عليه يا سراج... ولكنها الظروف التي شرحتها لك.

ـ اذهبي في أمان الله وحفظه يا زهرائي العزيزة... وعودي سريعًا لنتزوج ونسعد بحبنا.

وارتفع صوت مذيع المطار يعلن تأخر الإقلاع ساعة، فلم تأسف على ذلك، ولم يأسف هو أيضًا، فقد كانت تلك ساعة منحها القدر الحادب الحاني لقلبين شابين جمعهما الحب الطاهر العفيف، وربط بينهما برباطه الوردي البراق، رسما فيه صورة المستقبل البهيج ولوّناها بألوان بديعة زاهية متألقة... فيللا صغيرة على شاطئ جدة الحبيبة... حولها حديقة جميلة يلعب فيها الأطفال... يركضون ويضحكون.

وقطع هذه الأحلام الجميلة صوت مذيع المطار وهو يعلن عن موعد إقلاع الطائرة، فأسفت ومدت يدها تصافحه ومدّ يده، وعندما سحب يده من يدها أحس بانقباض مفاجئ.

وارتفعت الطائرة بالزهراء، وحلقت مبتعدة وهو جامد في مكانه قد أخذ منه التأثر كل مأخذ، ثم رفع رأسه إلى السماء وطلب من الله ﷻ أن يحفظها ويردها سالمة، وخرج من المطار واستقل سيارته في الطريق إلى البيت وهو شارد العقل مع الزهراء... ومع آمال المستقبل.

❊ ❊ ❊

كان السيد باركر يقرأ إحدى الصحف عندما رنّ جرس التلفون، فقام إليه ورفع السماعة متسائلًا عن المتحدث، فإذا بصوت فاروق تيسير يصيح بفزع:

ـ سراج في المستشفى بين الحياة والموت... لقد تعرض لحادث شديد وهو عائد من المطار.

وانطلق السيد باركر مع والد سراج إلى المستشفى، وهناك وجداه

يرقد في غيبوبة تامة، والأطباء حول السرير يحاولون إنقاذه بكل ما في طاقتهم من علم وجهد.

ومع ساعات الصباح الأولى بدأت الجهود تؤتي ثمارها، وأخذ سراج يفيق من غيبوبته رويدًا رويدًا، فنظر حوله ليرى أباه والسيد باركر، فحياهما بابتسامة ضعيفة واهنة ثم طلب ورقًا وقلمًا، وهمّ أبوه بتنفيذ طلبه ولكن الأطباء رجوه أن يصبر حتى تتحسن حالة المصاب، وأصرّ سراج على إحضار الورقة والقلم، فاستجاب الأب وقدم له ما طلب، ثم ساعده على الجلوس فبدأ يكتب:

«... زهرائي الحبيبة... ما أحوجني إليك الآن...».

ولم يستطع الاستمرار في الكتابة، وسقط القلم من يده، فتوسل إليه أبوه وباركر أن ينتظر حتى يتمالك قواه، ويستطيع إمساك القلم كما يجب، ولكنه رجاهما أن يعيدا إليه الورقة وراح يتم الخطاب:

«... زهرائي الحبيبة...

«أكتب إليك في لحظات تمنيت أن تكوني فيها إلى جواري... وحقًا إن والديّ ووالديك يقدمون لي كل الرعاية والعناية... ومع أن ملائكة الرحمة يحطن بسريري، ويجتهدن لتخفيف آلامي المبرحة، إلا أنني في أشد الحاجة إليك أنت... أنت يا زهرائي الحبيبة... ولن أخفي عليك... فقد استبد بي شعور قوي يؤكد لي أنني لن أراك مرة أخرى ولا أدري لماذا... قد تكون هي مرارة الفراق وقسوته... وقد يكون هول الحادث قد جعلني أحب الحياة وأتشبث بها وأشعر أنني إنما أفعل ذلك من أجلك أنت... يا حبيبتي وتلميذتي... نعم... أنت تلميذتي في الإسلام... التلميذة التي عرفت من حلاوة الإسلام ما لم يعرف أستاذها... فاطمة الزهراء... كل شيء بقضاء... هكذا علّمنا الإسلام... وإذا كان القدر قد كتب علينا ألا نلتقي فسوف لا نلتقي في هذا العالم... وإني أريد منك وعدًا هو أن تكوني المؤمنة القوية التي عرفتها فلا تضعفين أمام هذا الحادث... ولا تبكين، لأنني أكره أن أرى الدموع في عينيك... كما أكره أن تكوني محط

شماتة أي إنسان مهما كان. . . لقد ضحينا معًا. . . وبنينا الأحلام معًا. . . ونحن على موعد للقاء. . . فإذا قدّر له ألا يتم في هذه الدنيا. . . فسوف ألقاك في الآخرة. . . وسوف أطلب من العليّ القدير أن تكوني لي وحدي كما تمنيت دائمًا. . . إنه قضاء الله ولا راد لقضائه. . . وسبحان من لا يحمد على مكروه سواه.

«إنني أشعر بضعف شديد في جميع أجزاء جسمي. . . ولكنني أتحامل على نفسي وأتماسك لأنني أشعر بسعادة كبيرة وأنا أكتب لك. . . يا من أحبك كما لم أحب أحدًا في حياتي. . . أتعرفين ما هي أمنيتي الآن؟. . . أمنيتي الوحيدة هي أن آخذ يدك في يدي فأضمها إلى صدري وأمر بها على وجهي. . . أتعرفين لماذا؟. . . لأنني أعتقد أن يدك هي البلسم الذي يشفيني. . . آه يا زهراء لو تعلمين كم أحبك. . .».

ولم يقو سراج على إكمال خطابه بعد أن كتب منه ما كتب. . . فسقط القلم من يده ثانية وكذا الورقة فأسرعوا إليه، وساعدوه على التمدد.

وقال له أبوه:

ـ لا بأس يا ولدي. . . ستكتب خطابات كثيرة عندما تتحسن صحتك. . . ولم يكن الأب يدري أن هذا هو آخر خطاب يسطره ولده بيده.

أغمض عينيه. . . وتمتم بكلمات لم يسمعها أحد، ثم غاب في نوم لا يفيق منه النائم.

* * *

عادت الزهراء بعد أيام من الوفاة.

عادت وفي حقائبها ثوب الزفاف الأنيق الذي اختارته بعناية فائقة لكي يعجب حبيبها سراج، والذي حرصت على أن يكون غاية في الحشمة والوقار ليتمشى وتعاليم الإسلام.

استقبلها أبوها وأمها في المطار، وأسرعا بها إلى البيت.

وأحست المؤمنة صادقة الإيمان أن شيئًا ما، غير عادي، قد وقع، خاصة وأن سراج لم يكن معهما في استقبالها، فراحت تتساءل عن السبب، ولكن أحدًا منهما لم يتكلم، وإنما قدم لها أبوها الخطاب في صمت.

وأسرعت إلى حجرتها، وأغلقت الباب خلفها، ثم أخذت تقرأ الخطاب.

ودخلت والدتها خلفها في هدوء، ونقلت إليها تفاصيل ما حدث في عبارات مرتبكة متلعثمة، وكانت الزهراء تصغي وهي تشعر وكأن يدًا من حديد تعتصر قلبها، بل تسحقه سحقًا، وانسالت الدموع من عينيها، ولكنها تذكرت الوعد الذي طلبه حبيبها الراحل منها، وحاولت أن تقاوم ولكن محاولتها أخفقت وانهمرت الدموع بلا حساب... فصاحت في ألم:

ـ ما أقساك يا سراج... لماذا طلبت مني هذا الوعد؟... لماذا؟... وكيف تطلب مني حبس دموعي في عينيّ بعد هذا المصاب الفادح فيك؟... هل أستطيع أن أمنع النهر في التدفق؟... أو أحول دون حركة البحر؟... معذرة أيها الحبيب الراحل عن دنيانا... المقيم في قلبي... معذرة إذا قلت لك إنك طلبت المستحيل... حقًا إنني مؤمنة بقضاء الله وقدره... خاضعة لمشيئته ﷻ، ولكنني بشر... فسامحني... سامحني يا سراج... سامحني يا أستاذي... ويا حبيبي الكبير.

* * *

قال لها أبوها بعد عودتها بشهور:

ـ إنني أعرف مشاعرك يا ابنتي... وأعرف عمق الجرح الذي أصابك... وأعرف أنك ضحيّت بالكثير... بل إنك تركت دينك ودخلت في الإسلام و...

فقاطعته الزهراء متسائلة باستغراب:

ـ ماذا تعني يا أبي؟... وماذا تريد أن تقول؟

فتلعثم السيد باركر وتوقف عن الكلام.

وتدخلت أمها قائلة:

ـ إنه... إنه يريد أن يعرض عليك اقتراحًا يا ابنتي.

ـ وما هو هذا الاقتراح؟

ـ أن تعودي إلى دينك الأول بعد أن زال السبب الذي دفعك إلى تركه.

واحمر وجه الزهراء، وبدا أن كلام أمها قد أثارها، ولكنها تمالكت نفسها وتكلمت بصوت جهدت أن يكون هادئًا رغم الدموع التي كانت تنهمر غزيرة من عينيها:

ـ لقد كرهت أن تحرجاني مرة أخرى... صحيح أنني أحببت سراج وصحيح أنني ضحيّت بالكثير في سبيل حبه... ولكنني لم أعتنق الإسلام من أجله.

وقاطعتها أمها صائحة في غضب شديد:

ـ كريستينا... أنا...

ولكن الفتاة واصلت كلامها غير آبهة لمقاطعة أمها:

ـ أماه... أرجوك... إنني أتألم... وأنا أكره العودة إلى الظلام بعد أن عرفت النور وعشت فيه.

وتدخل الأب قائلًا في هدوء:

ـ صدّقيني يا ابنتي إنني تألمت لوفاة سراج مرتين... مرة لأنني أحبه... وأخرى لأنني أحبك أنت... وقد أحسست بحسرة كبيرة ونحن نواريه التراب... وثقي تمامًا يا عزيزتي أنني لا أريد أن أحرجك أبدًا... ولكنني رغبت، فقط، في أن أقترح عليك التفكير في العودة إلى دينك... فأنت تستطيعين عبادة الله وأنت مسيحية... تمامًا كما تستطيعين ذلك وأنت مسلمة.

ـ ما دام الأمر كذلك... فقد اخترت الإسلام... فساعدني يا أبي على البقاء على ديني... ساعدني أنت وأمي... ولا تحرجاني... وصدّقني يا أبي إنني أشعر بأنني مسلمة منذ زمن طويل... وأنت يا أمي... صدّقيني إنني لم أسلم لكي أتزوج من سراج... صحيح أنني أحبه... وصحيح أن حبه قد ملأ عليّ حياتي... ولكنني أسلمت عن قناعة... وعن حب لهذا الدين... فساعداني في ذلك... ساعداني ولا تجرحاني مرتين.

واختنق صوت الزهراء ببكاء لم تستطع له منعًا، فتوقفت عن الكلام.

وسارعت أمها إليها، تضمها إلى صدرها وهي تجهش بالبكاء... وأسرع السيد باركر في الخروج من الغرفة وقد تندّت عيناه بالدموع.

* * *

وانحدرت الشمس نحو المغيب... وبدأ قرصها الأرجواني يختفي في هدوء وراء الأفق ويضفي على الجو رهبة عجيبة... وصاح المؤذن داعيًا الناس إلى الصلاة.

وخرجت الأم بزوجها بينما كانت كريتسينا ـ أعني فاطمة الزهراء ـ تستعد للصلاة.

الزهور الزرقاء

الزهور الزرقاء

الزهور الزرقاء

أخذت حشود الطلاب تتجه إلى الجامعة، فدبّت الحياة في أروقتها... بل إن كل شيء بدت عليه الحيوية والنشاط.

حتى أشجار «النيم» الممتدة على جوانب الممرات عادت إليها الخضرة بعد الاصفرار، فتهادت أغصانها في سكون وراحت تتمايل مع هبّات نسيم فصل الربيع وكأنها ترحب بالقادمين... من كان منهم جديدًا يدخل الجامعة أول مرة... ومن كان منهم صديقًا قديمًا من طلبة الأعوام السالفة.

حركة متجددة.

شباب يفدون وآخرون يخرجون.

أساتذة الجامعة يشعرون بالنشاط المتجدد والشباب الدائم... كأن الزمن قد توقف عندهم... ولعل احتكاكهم بالشباب، من طلبتهم، هو السر فيما يشعرون به من النشاط والشباب.

ووسط هذا الزحام كان أمين يحث الخطى، وفي أعماقه شوق كبير إلى لقاء الأساتذة والزملاء... ولقد تبدى هذا الشوق في تلك الابتسامة العريضة التي ارتسمت على وجهه، فعبرت بوضوح عن فرحته.

وما كاد يبلغ الحرم الجامعي، ويتجه نحو مباني كلية الطب، حتى سمع نداء زملائه:

ـ أبو زهرة... أبو زهرة... يا هلا.

فأقبل عليهم يعانقهم في سعادة غامرة بهذا اللقاء مع بداية العام الدراسي الجديد، بعد فراق أشهر العطلة الصيفية.

ولم تكن كنية أمين هي «أبو زهرة» التي ناداه بها زملاؤه. . . ولكنه اللقب الذي أطلقوه عليه بعد أن رأوا منه تعلقًا بالزهور يفوق كل تصور، فهو يعنى بها في أحواض صغيرة وضعها في غرفته داخل السكن الجامعي، وعلى الشرفة، وحتى في المعمل كانت هناك زهرية صغيرة وضع فيها زهورًا زرقاء وأقامها في الركن الخاص به.

وهكذا عرف عنه زملاؤه ولعه بالزهور، والزرقاء منها بوجه خاص، فكانوا يداعبونه ويعبثون به شأنهم في ذلك شأن الزملاء والأصدقاء في مثل أعمارهم. . . فمرة يخفون الزهرية ويتركونه يبحث عنها باهتمام وقلق، إلى أن يشفقوا عليه فيعطونه إياها وهم يضحكون، ومرة أخرى كانوا يلونون الزهور الزرقاء بألوان أخرى ويقهقهون، رغمًا عنهم، وهم يرونه ينظر إلى الزهور بدهشة وذهول، حتى إذا تكشفت له اللعبة شاركهم ضحكهم وهو يرجوهم ألا يعودوا لمثلها مرة أخرى.

كان زملاؤه يعرفون عنه تقبله للمداعبة والمزاح بصدر رحب، فهو يشاركهم ضحكهم بعد أن يكتشف إحدى ألاعيبهم معه، وكان يرد عليهم إذا نادوه بذلك الاسم «أبو زهرة».

كان واضحًا أن أمين هو من ذلك النوع من الناس الذين حباهم الله حب الناس وحبهم للناس، فهو ـ بإجماع آراء زملائه ـ ذو قلب كبير، وحسّ مرهف، يتفانى في خدمة الآخرين قائلًا أنه يقوم بالواجب ودون أن يمنّ على أحد بما أسدى.

وعلى هذه الصورة، وسط المحبة المتبادلة الغامرة، أمضى أمين حياته في الجامعة بعد أن أنهى سنوات الدراسة وتخرّج من كلية الطب.

* * *

جمع أمين أشياءه وكتبه استعدادًا لمغادرة السكن الجامعي، وهو يشعر بأسف عميق على فراق هذا المكان الذي قضى فيه أحلى سنوات حياته.

وراح يتأمل، باسمًا، اسمه المحفور على أحد المقاعد الخشبية في البهو... أمين أبو زهرة.

لقد التصق به هذا اللقب حتى بعد التخرّج، وها هو يترك الاسم ذاته محفورًا على المقعد الخشبي ويجيل بصره فيما حوله وكأنه يراه لأول مرة، مع أنه يلقي عليه النظرة الأخيرة.

وتذكر عبارات الأسف التي أبداها أساتذته لأن معدله لا يسمح له بالعمل في الكلية كمعيد، رغم أنهم كانوا يتمنون لو استطاعوا مساعدته على ذلك العمل، فهم يثقون بأنه سينجح فيه، لما هو عليه من أخلاق طيبة وفطرة طبيعية لمساعدة الآخرين وكأن هذه المساعدة واجب لا فضل له فيه.

وهكذا بدأ أمين حياته العملية طبيبًا في المستشفى العام بجدة، واكتملت سعادته بزواجه من ابنة خاله «مائدة» التي كانت رفيقة طفولته وشريكته في ألعابه ولهوه، حتى اعتبرت عائلتهما زواجهما أمرًا متفقًا عليه ضمنًا، فكانوا يقولون «مائدة لأمين... وأمين لمائدة»، وتحقق ذلك فعلًا، وغدا الاثنان لبعضهم بعد أن بدأ أمين حياته العملية.

والحق أن الألفة ـ ثم المحبة ـ اللتين ربطتا قلبي الزوجين قد ازدادتا بعد الزواج، إذ كانت مائدة تتمتع، إلى جانب جمالها الملحوظ، بروح مرحة وحب الناس وقدرة فائقة على توفير أجواء من الراحة والسعادة والاطمئنان في البيت، فسارت حياة أمين بعد الزواج سيرًا هنيئًا رفيقًا، حقق له القدرة على الانصراف إلى أكثر الأشياء ظفرًا باهتمامه وإقباله.

ففي العمل، لمس منه الجميع روحه الطيبة وأخلاقه وأريحيته، وقدرته الفائقة على التنظيم فساروا بذكره مع الثناء والإعجاب، سواء في المستشفى العام أو في عيادته الخاصة.

وفي البيت كان حوض كبير للزهور الزرقاء يتربع في شرفة المنزل حيث كان أمين يقضي بعضًا من أوقات فراغه في العناية بها، يشذبها ويتابع نموها، ويقضي أيامه ـ مع زوجته ـ ساعات يسهران خلالها

وهما يرشفان الشاهي وعيونهما متجهة، غالبًا، إلى تلك الزهور.

كان أمين راضيًا عن حياته كل الرضى، فهو يكتفي من هذه الحياة بعمله وزوجته وزهوره، ولا يقيم كبير وزن لما يأتيه من إيراد ما دام يلبي مطالبه العادية التي لم يكن يتطلع إلى أكثر منها... واشتهر بين قاصدي عيادته الخاصة بقناعة بدت لهم غريبة، فهو لا يغالي في الأجر، بل ويعفي رقيقي الحال منه كلية، ويزيد على ذلك أن يقدم لهم الدواء المجاني من العينات الطبية التي تأتيه.

كانت حياته تسير على وتيرة شبه ثابتة... فهو يخرج من عمله في المستشفى ليتناول الغداء، ثم يسرع إلى الحديقة ليلقي نظرة على الزهور، فيعنى بها ويتفقدها واحدة واحدة، ثم يتجه إلى الحوض المقام في الشرفة ليخصه بعناية أكثر.

ولطالما ضحكت مائدة إذ تراه جاثيًا على ركبتيه عند الحوض والأدوات التي يستخدمها في العناية بالزهور قد تناثرت أمامه، وعلقت بوجهه ذرات من التراب لا يعيرها أي اهتمام، لأن اهتمامه كله يكون، إذ ذاك، منصبًّا على زهوره وحوضه... وكانت مائدة تشاركه هذه العناية، بعض الأحيان ولكنها تتركها له غالبًا لأنها تعرف مدى المتعة التي يشعر بها في ذلك.

❊ ❊ ❊

وقال لها ذات يوم وهما واقفان في الشرفة المطلة على الحديقة.

ـ إنني سعيد يا «ميمو»... سعيد جدًا... بك... وبحياتي... وعملي... وبهذه الزهور كلها... ما كان منها في الحوض أو الحديقة.

وملأ صدره بالهواء في ارتياح.

وأجابته مائدة باسمة:

ـ أعرف هذا يا أمين... وأعتقد أن أهل جدة جميعًا يعرفونه.

وضحك الاثنان.

وعاد أمين إلى الكلام قائلًا:

ـ أنت تبالغين يا ميمو.

واستطرد في اهتمام.

ـ انظري... إنها ليست زهرة واحدة... ولا زهرات متفرقات... وإنما حوض كامل هنا... ومجموعة كاملة هناك... إنها تنمو بشكل رائع.

ـ طبعًا... ما دمت تعنى بها فلك أن تتوقع هذه النتيجة... وأخشى أن تصبح لدينا غابة كاملة تستأثر باهتمامك بصورة تجعلني أغار منها.

ورد عليها مبتسمًا:

ـ إنني أتفاءل كثيرًا بهذه الزهور كما تعلمين... بل إنني أشعر بأنها قطعة من حياتي.

وبينما هما في هذا الحديث لاحت من أمين نظرة إلى الحوض القائم في الشرفة، فرأى ابنته الصغيرة «مها» تحبو نحو الحوض وإحدى يديها ممتدة نحوه وكأنها تريد أن تقطف منه زهرة.

وقال أمين ضاحكًا:

ـ انظري إلى مها... أسرعي... أرجوك... الزهور في مأزق.

وضحكت مائدة وهي تقول:

ـ لا تقلق... إنها طفلة بريئة كهذه الزهور... وهي تحبها مثلنا.

وأسرع أمين في اللحظة التي كانت الطفلة فيها قد تعلقت بطرف الحوض ولم تكد تر وجه أبيها حتى أطلقت ضحكة سعيدة، وتركت الحوض وعادت أدراجها، فقالت مائدة وهي تحمل الطفلة:

ـ ألم أقل لك إنها تحب الزهور مثلنا؟

فأجاب أمين:

ـ من يدري؟... لقد سلم الحوض هذه المرة... ولكن من

يدري ماذا يحدث في المرة التالية؟... إن مها بريئة... ولكنها متهورة فيما يتعلق بالزهور.

ووجهت إليه مائدة نظرة عتاب وهي تضم طفلتها إلى صدرها وتسرع بها إلى الداخل.

* * *

كان أمين حريصًا على زيارة والديه بانتظام كل أسبوع، ولم يقطع هذه العادة قط منذ زواجه... وكان يلقى أحيانًا أخاه «سعيد» في بيت والديهما.

كان سعيد رجل أعمال، حقق نجاحًا كبيرًا واستطاع إنشاء مجموعة من المؤسسات التجارية التي يعمل فيها عشرات الموظفين، والتي وضعت صاحبها في مصاف الأثرياء، وكان سعيد قد تزوج قبل أخيه أمين ببضعة أشهر، فكانت أعمار الأولاد متقاربة، وكان الأطفال ينتهزون فرصة زيارتهم لجدهم للقاء واللعب مع بعضهم.

وهذه المرة قال سعيد لأخيه وهما جالسان في صالون منزل والديهما:

ـ متى تترك يا أمين عملك كطبيب وتعمل معي؟... إن مؤسسة الأدوية التي أملكها تسبب لي إزعاجًا دائمًا رغم نجاحها، لأنني بحاجة إلى مدير يتمتع بالكفاية الإدارية إلى جانب خبرته الفنية... وأنت أقرب الناس إليّ... وتنطبق عليك الصفات التي أريدها في مدير هذه المؤسسة.

وأيد الأب كلام سعيد، وأبدى تطلعه إلى اليوم الذي يرى فيه الأخوين وهما يعملان معًا، كما عاشا معًا.

وأجاب أمين على كلام أخيه:

ـ إنني مستعد لكل خدمة يا أخي... ولكنني لا أستطيع أن أترك الطب... لأنني أعتبره رسالة إنسانية... فإذا شئت يمكنني أن أعمل مساء في المؤسسة ساعتين أو ثلاثًا.

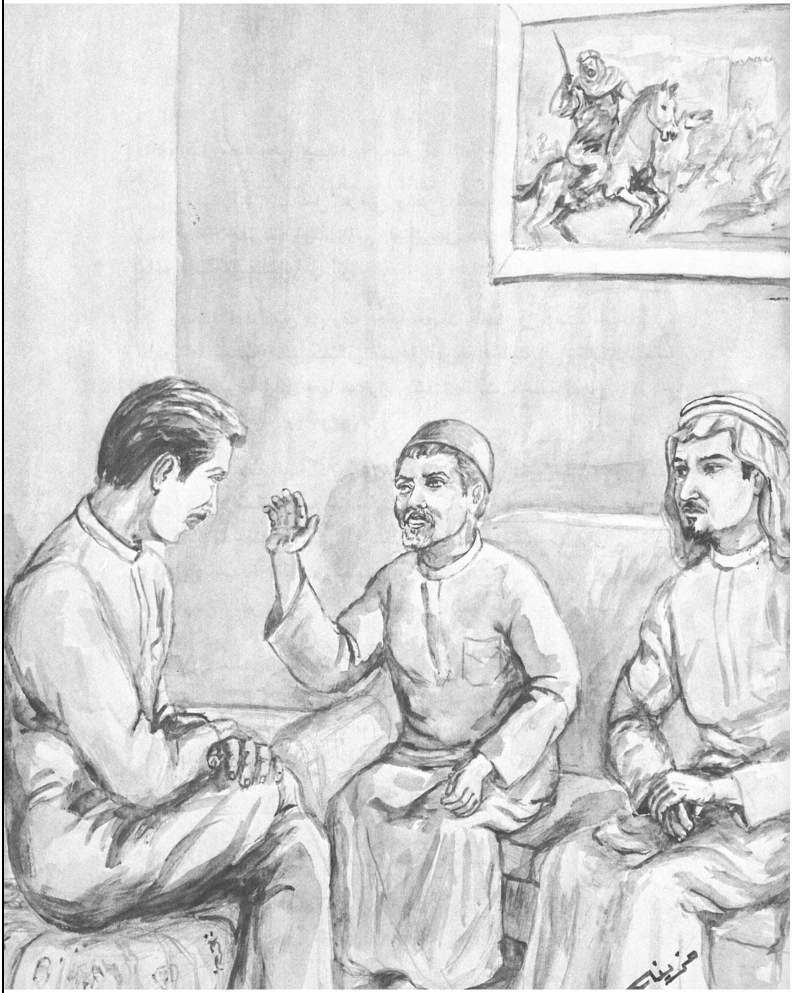

وابتسم سعيد وهو يجيب:

ـ كنت أتمنى أن تقبل عرضي وتتفرغ للعمل معي... ولكنك لم تترك لي فرصة للاختيار... ولذا فإنني أوافق على ذلك... متمنيًا أن تقتنع بعد مباشرتك للعمل بالتفرغ لي كليًا.

وهكذا اقتطع أمين من وقته جانبًا خصصه للعمل في مؤسسة أخيه لتجارة الأدوية، فاستطاع أن يكتشف بسرعة الطريقة الخاطئة التي كانت المؤسسة تدار بها، لدرجة أبدى معها استغرابه كيف حققت المؤسسة النجاح والأرباح وهي على تلك الحالة من الفوضى.

وخلال أسابيع قليلة كان كل شيء قد نظم على أتم ما ينبغي، فقد ضبط أمين أمور المؤسسة ووضع لها أساليب إدارية حديثة لم تخف على سعيد الذي بدأ يلمس ما حققه أخوه في المؤسسة، وتبين أن مؤسساته الأخرى في حاجة إلى جهود أخيه، وعقليته المنظمة، وأسلوبه الحاسم في العمل، فعاد يجدّد عليه العرض بالتفرغ، ويغريه بأن يخصص له نسبة جيدة من الأرباح إلى جانب الراتب الكبير، ولكن أمين قال ببساطة:

ـ إنني قانع بحياتي... والمادة لا تغريني... وما أحصل عليه يكفيني ولله الحمد... ولذا لا أستطيع أن أتفرغ للعمل معك... ولكنني على استعداد لأن أقدم لك خدماتي في كل مجال أستطيعه.

وقال سعيد وهو يتنهد باستسلام:

ـ مرة أخرى تضعني في موقف لا أستطيع معه اختيارًا... وإنني لشاكر لك أي جهد تبذله في مؤسساتي الأخرى.

وقف أمين على الشرفة المطلة على البحر في منزل أخيه سعيد، وكان يرى أبناءه وأبناء أخيه وهم يلعبون في الحديقة وقد تعالت أصواتهم المرحة.

وانتبه من استغراقه على صوت ولده «وجدي»، فنظر إلى حيث مصدر الصوت ورأى «منى» ابنة أخيه وهي تقبض على كرتها بشدة بينما كان وجدي يحاول انتزاعها منها.

وهبّ أمين على الفور متوجهًا إلى الحديقة ليحل النزاع بين الطفلين، وما إن رأياه حتى صاحت منى:

ـ عمي... قل لوجدي أن يترك كرتي.

ـ ولكنه ابن عمك... وأنتما تلعبان معًا.

ـ إنها كرتي... ولا أريد أن يلعب بها أحد غيري.

وضحك أمين وقال للصغيرة باسمًا:

ـ سوف أشتري لكما كرتين لتلعبا بهما معًا... واحدة لك... وواحدة لابن عمك... فماذا تقولين؟

ولكن الصغيرة ردت على الفور:

ـ يكفي أن تشتر كرة لابنك... وتعلّمه كيلا يلعب بكرات الناس.

واستدارت الطفلة، وجرت مبتعدة وهي تتأبط الكرة، بينما وجدي يتابعها بنظراته في انكسار وقد تساقطت دموعه على خديه في صمت.

وقال أمين لولده بعطف:

ـ تبكي من أجل كرة؟... غدًا إن شاء الله أشتري لك كرة أفضل.

ولكن الطفل أجاب وهو يرخي عينيه إلى الأرض:

ـ هل لديك ثمنها يا أبي؟... منى قالت لي أنك فقير... ولا تملك مالًا كثيرًا مثل أبيها... ولا يمكنك أن تشتري لي كرة.

وذهل أمين، وشعر بكلام ولده ينفذ إلى قلبه كالسكين، وروّعته مظاهر الذلة والانكسار التي بدت على وجه ولده، فجذبه من يده واتجه به نحو سيارته، وراح يقطع الطريق إلى البيت وقد تلاطمت أمواج من الأفكار في رأسه.

* * *

لم تر مائدة زوجها من قبل كما رأته هذه الأمسية، وقد جلس

مسترخيًا على المقعد الطويل في الشرفة وعلى وجهه، وهيئته، معالم التفكير العميق.

وابتسمت في صمت، وعزمت على أن تعد الشاهي لتشاركه جلسته، فتسللت إلى المطبخ دون أن يشعر أمين بها.

كان أمين يستعيد كلام ولده وجدي، ومنظره، وهو يتساءل عما إذا كان أبوه يملك ثمن كرة مثل كرة ابنة عمه سعيد، الثري، صاحب المال والأعمال، والدور والمؤسسات، ويتذكر اللهجة القاسية التي ردت بها ابنة أخيه عليه حين خاطبها وكأنها ابنته ظنًا منه أن ما بينها وبين ولده مجرد نزاع أطفال.

لقد بدأ يرى الأمور من زاوية أخرى، لم يعتد، أبدًا، على النظر منها.

أنه لا يملك مالًا كثيرًا... هذا صحيح... ولكنه، ولله الحمد، يحصل على ما يكفيه، وهو راض به وقانع.

أتراه قليل الطموح؟ فاتر الهمة...؟ يؤثر حياة الدعة والكسل على الجد والاجتهاد؟

لا... إنه يعمل من الصباح الباكر حتى المساء، دون أن يصيب سوى نزر يسير من الراحة، فهو - إذن - مجد ومجتهد ومنتج، ولكن على طريقته الخاصة.

كل ما هناك، قال لنفسه، أنه لا يشعر في داخله بذلك الطمع الشره الذي يلهب حواس البعض ليحصلوا من المال مزيدًا كلما حصلوا على ما يزيد عن كفايتهم.

إنه ليس طماعًا... هذا هو كل ما هنالك.

وإذا كان غيره يجد المتعة في جمع المال وتكديسه، فإنه لا يجد أية متعة في ذلك، بل إنه ليحسد نفسه على المتع التي يحس بها وهو منصرف إلى العناية بزهوره الزرقاء، والاهتمام بالحديقة، والجلوس إلى زوجته وأولاده.

الزهور الزرقاء؟

وما قيمة الزهور الزرقاء؟

وهل تستطيع أن تمسح تلك الدموع التي سالت من عيني ولده وجدي والتي لذعت قلبه كالنار؟

وما تفعله الزهور الزرقاء لكي تجعل ولده ينظر إليه، وإلى نفسه، بثقة واعتداد، بدل أن يشعر بالذلة والانكسار لأن عمه سعيد أغنى من أبيه، ولأنه قد عوّد أبناءه على الاعتزاز بما يملكه أبوهم من مال، والاستخفاف بالآخرين الذين لا يملكون مثلما يملك؟

وانتبه من خواطره على أصابع مائدة وهي تعبث بشعره وتقول له بلهجة مداعبة:

ـ ما بك؟... وفيم تسرح بأفكارك حتى إنك لم تبدل ملابسك منذ عودتك؟

ـ آسف... شعرت بشيء من التعب فآثرت أن أجلس هنا قليلًا.

ـ لقد أعددت لك الشاي... سآتي به لنجلس معًا.

ـ حسنًا فعلت... فإن عندي حديثًا طويلًا... طويلًا... أريد أن أفضي به إليك.

ونظرت إليه مائدة باستغراب، فقد روّعتها مظاهر الجد والاهتمام التي بدت على وجهه، والتي تنبئ، قبل أن يتحدث، بأن هناك شيئًا خطيرًا قد وقع.

وقالت وهي تسرع إلى المطبخ:

ـ أعود حالًا.

وحين جلست أمامه، وصبّت الشاي، قال لها أمين بلهجة لم تعتد عليها من قبل:

ـ اسمعي يا مائدة... لقد قررت أمرًا أرجو أن يعينني الله عليه.

* * *

لم يصدق سعيد أذنيه عندما سمع أخاه أمين يقول له بلهجة متئدة وجادة:

ـ لقد جئت أخبرك بأنني قد قررت قبول عرضك بالعمل وقتًا أطول.

وأشرق وجه رجل الأعمال بارتياح ولكنه لم يتمالك نفسه من القول:

ـ عجيب... مرحبًا بك بطبيعة الحال ولكن... ما الذي جعلك تغيّر رأيك السابق؟

وهزّ أمين كتفيه وأجاب:

ـ لا شيء بالتحديد... ولكنني وجدت أن فرص هذا النوع من العمل أكثر فائدة وأسرع مردودًا.

فقال سعيد باسمًا:

ـ ألم أقل لك ذلك منذ البداية؟

وأجاب أمين:

ـ أنت تعرف طبيعتي... عندما أهتم بموضوع فإنني أنصرف إليه بكل قواي. وكان صعبًا عليّ أن أقوم بعملي في المستشفى وفي عيادتي الخاصة ثم في مؤسستك... ولذا فقد قررت أن أغلق العيادة... وأن أحصل من رؤوسائي على إذن بالعمل معك... وأرجو أن يوفقنا الله.

وتراخى سعيد في مقعده بارتياح وقد بدا عليه أن ما سمعه من أخيه قد سرّه ولكنه قال وكأنه يخاطب نفسه بصوت مسموع:

ـ هذا شيء طيب... هذا شيء طيب... ولكنني دهش لتحولك المفاجئ هذا.

ـ لا داعي للدهشة... إنني أتطلع إلى أن أفيدك بشيء يبدو أنك لم تجده لدى الآخرين من موظفيك... ومن جهة أخرى أريد تحسين دخلي.

ـ أنت تعلم أن ما أملكه هو ملكك أيضًا.

ـ شكرًا يا أخي. . . ولا أشك بذلك أبدًا.

ـ يهمني ألا يكون السبب هو مرورك في ضائقة. . . فإنني أخوك.

ـ قلت لك من قبل. . . إنني أعتقد أن بإمكاني أن أفعل شيئًا ما في المؤسسة، لقد عرفت كل شيء تقريبًا عن الوضع. . . وهناك أيضًا رغبتي في بناء فيللا أسكنها مع العائلة. . . لقد ضاق بنا منزلنا الحالي و. . .

وقاطعه سعيد:

ـ كم مرة عرضت عليك أن أبني لك فيللا بجوار سكني؟. . . ولكنك كنت ترفض باستمرار.

وابتسم أمين وهو يجيب:

ـ لا يجوز لي أن أثقل عليك. . . وعليّ أن أعمل لكي أستحق تلك الفيللا بجدارة.

وضحك الأخوان في سعادة، وقد ساد الغرفة جو من الارتياح والمودة والتفاؤل.

* * *

ومع أن سعيد كان يعرف عن إمكانات أخيه الدكتور أمين ومواهبه شيئًا كثيرًا، إلا أنه لم يكن يتصور أن يفوق ما بدا منه كل ما كان يتوقعه.

لقد انصرف أمين إلى العمل بكل قواه وراح يعيد تنظيم المؤسسة الرئيسية والمؤسسات المتفرعة عنها، ويتابع دقائق العمل وتفاصيله، ويوزع المسؤوليات على الموظفين بطريقة جديدة، ويتفانى في ذلك وكأنه صاحب المؤسسة ومالكها.

ومضت سنوات. . . اضطر أمين خلالها للتفرغ كليًا للمؤسسة.

وشيئًا فشيئًا صار يبكر في الذهاب إلى مكتبه في المؤسسة لكي يتمكن من متابعة العمل وفق الأسلوب الذي وضعه له، فكان عليه أن

يدرس كل شيء ويوجه نشاطات المؤسسة لدرجة جعلت سعيد يرى فيه سندًا قويًا، فلم يلبث أن ازداد اعتماده على أخيه أكثر فأكثر، حتى بات أمين هو القلب النابض للمؤسسة.

كان أمين يزداد استغراقًا في العمل كلما ازدادت مسؤولياته، وكان ـ في الوقت ذاته ـ يحاول عبثًا أن ينسى الحديث الذي دار بينه وبين زوجته يوم أن أنبأها بعزمه على كسب المزيد من المال وعلى بناء فيللا وتحسين مستوى معيشتهما.

يومها قطّبت مائدة في دهشة، ثم أطلقت ضحكة مرحة، فقد حسبت أن زوجها يمازحها محاولًا أن يقلد أخاه، رجل الأعمال، في حديثه.

ولكنها تبينت، ويا للدهشة، أن الرجل كان يتحدث بجدية واقتناع، وأن الفكرة قد ملكت ذهنه كله.

وقالت مائدة، يومذاك، بهدوء تام:

ـ اسمع يا أمين... إنني لا أجد علاقة على الإطلاق بين كلام منى وبين رغبتك في زيادة دخلك... فهي طفلة قد قالت كلامها ببراءة لا تحتمل كل هذا التأويل.

ـ ولكن هذه الحادثة قد نبهتني إلى أمر كان غائبًا عني.

ـ لا أظن... ولكن يبدو أن كلام منى ووجدي قد صادفا هوى في نفسك لأنك كنت تشعر برغبة في أن تعمل وتزيد دخلك وتصبح رجل أعمال.

ـ وهل هذا خطأ؟

ـ إنك تعرف رأيي في الموضوع... فأنا سعيدة بحياتنا واستقرارنا... وأتطلع معك إلى تحسين دخلنا... ولكنني أكره أن تتحول إلى آلة تصنع دخلًا لا نستطيع الاستمتاع به... وربما أشقانا.

ـ أأنت متشائمة.

ـ لست متشائمة... ولكنني واقعية... انظر إلى أخيك

سعيد... إنه خير من تعمل معه... فهو إنسان نبيل... وناجح... ويحبك كثيرًا... ولكني أخشى أن يصيبك ما أصابه.

- ماذا تعنين؟

- أعني كثرة مشاغله التي شغلته حتى عن أبنائه وأهله... والسعادة ليست في أن يصرف عليهم بسخاء... لأن المال ليس هو المصدر الأساسي للسعادة.

- ها قد عدت إلى فلسفتك.

- تعني واقعيتي.

- دعينا من التشاؤم... لقد قررت... وسأنفذ ما قررته.

- إنني أكره أن أعترض على رأي لك... ولكنني أنصحك بالحذر... حتى لا تتورط في مشكلة يهون المال إزاءها... إننا كما ترى، والحمد لله، في خير ونعمة... ولو اجتهدت قليلًا في عملك بالعيادة لكان هذا كافيًا.

- أؤكد لك إنه لو كانت هناك مسابقة في القناعة لكنت الفائزة الأولى.

- لم لا؟... الحمد لله... القناعة كنز لا يفنى.

- وما هو مفهوم القناعة في نظرك؟

- القناعة؟... إنها سعادة الإنسان مع أبنائه... إنها إشباع لرغبة أبنائه العاطفية... إن اتجاهك إلى التكالب على جمع المادة سوف يزرع في نفوس أبنائك حب المادة بدل أن تزرع في نفوسهم حب الوطن.

- وما شأن الوطن فيما نحن فيه؟

- كل الشأن... فحب الوطن يبدأ من حب البيت... والأبوين.. وحين تعوِّد أبناءك على حب المادة تثريهم في المال وتفقرهم في العاطفة... ألم تلاحظ كيف يتجه بعض الناس إلى خارج الوطن بمجرد حلول العطلة الصيفية وكأن إقامتهم في الوطن مؤقتة؟

ـ لقد دوّختني بفلسفتك.

ـ إنها ليست فلسفة... وإنما هي تقرير أمر واقع.. وأنا معك في كل شيء... وإن كنت أحب أن أعرب عن رأيي.

ـ لقد بدأت الأمور تختلط عليك.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني إنك تتكلمين عن معان غير مترابطة.

ـ كيف؟

ـ حدّثتني عن القناعة... ثم حاولت الربط بينها وبين الأولاد وحب الوطن... وفجأة أراك تتكلمين عن سفر الناس إلى الخارج... ما هذا؟

ـ آسفة... ربما لم أحسن التعبير يا أمين... سامحني... ولكنني أردت أن أوضح لك أهمية قناعة الإنسان برزقه المقسوم... والسعي إلى الاستفادة من أوقاته لكي يعيش هو وعائلته في هدوء وسلام وسكينة.

ـ وكيف يعرف الإنسان رزقه وهو أمر علمه عند الله؟

ـ أرجوك لا تقاطعني... دعني أكمل.

ـ أريد جوابًا على سؤالي.

ـ لا بأس... سوف أجيبك... أنت تعمل... وكل إنسان يعمل وله دخل ورزق مكتوب وعليه أن يقنع بما قسم الله له.

ـ تعنين أن يتواكل ويخلد إلى الكسل؟

ـ لا... لا يا أمين... بل أعني أن يقنع برزقه ويعمل على تحسين دخله بطريقة منطقية وبدون أن يلجأ إلى الشراهة والجشع... فالمال بحد ذاته ليس غاية... ولكنه وسيلة لتحقيق أهداف الناس... بل ربما بعض أهدافه... لا كلها... فمن الضروري أن تملك المال... لا أن يملكك المال.

ـ وماذا عن حب الوطن؟

ـ إنك تسخر مني.. ولكنني سأجيبك... كنت أقصد إن أقول أن الإنسان إذا انشغل بجمع المال وملك عليه ذلك حياته... حال دون اهتمامه بتربية أبنائه والعناية بهم... وبالتالي ضعفت العلاقة بينه وبينهم... وإذا ما ضعفت العلاقة هذه نشأت الأسرة مفككة... وضعفت الروابط فيما بينها.

ـ حتى الآن لم تذكري لي ما هي علاقة كل ذلك بحب الوطن.

ـ عندما تنشأ العائلة مفككة... فمن الصعب أن نتوقع فيها ارتباط الأبناء بعائلتهم، كما ذكرت، ومن ثم بوطنهم.

ـ إنك تذهبين بعيدًا... وتبالغين في التشاؤم... ما عهدت ذلك فيك.

ـ عليك أن تتذكر أن الأطفال كانوا، في الماضي، ملتصقين بعائلتهم... يتلقون توجيهاتهم من أهلهم ويجدون فيهم القدوة الحسنة... وإذا افتقدوها وجدوها في المدرسة... أو في الحي... أو في المجتمع... ولكن اختلاطنا بالأغراب والأجانب وما عكسه ذلك من مفاهيم لم نكن نعرفها جعل الأمر أكثر حساسية وأهمية... لقد ازدادت مسؤوليات العائلات تجاه أبنائها... ولا بد من تفرغ الناس ولو بعض الشيء لشؤون أبنائهم.

ـ أوافقك، يا مائدة، في بعض ما ذكرت... ولكنني أؤكد لك أنني لا أزمع ترك البيت... أو التخلي عن الأولاد... لا قدّر الله.

ـ أرجو ذلك... ولقد كنت أبدي رأيي لك... وأحذرك من مخاطر الطريق الذي تنوي السير فيه... أما إذا ظللت على عزمك فإنني معك إن شاء الله.

ـ بارك الله فيك يا مائدة... هذا ما كنت أتوقعه منك... وبالمناسبة... عندي سؤال... وأرجو ألا تغضبي مني.

ـ أغضب منك؟... أعوذ بالله... إنني أحبك... وأحب المناقشة معك.

ـ لم أقصد ذلك... ولكنني أريد ألا تظني أنني أسخر منك ثانية.

ـ إنني مصغية.

ـ أريدك أن توضحي لي نقطة تبدو لي غامضة في حديثك... وهي عن علاقة سفر الناس إلى الخارج بالوطنية حسب رأيك.

ـ آه... أرجوك أن تفهمني... لقد ذكرت ذلك كمثال فقط... لأنني أعتقد أن سفر المواطنين بالآلاف إلى الخارج بمجرد حلول العطلة ظاهرة تدعو للأسف... فالمفروض هو ارتباط أبنائهم بوطنهم... وإشعارهم بأنهم جزء من الوطن... ولو تجول الناس داخل بلادهم... وعرّفوا الجيل الذي سوف يحمل مسؤولية المستقبل في وطنه بهذا الوصف لكان ذلك أفضل.

ـ ألا ترين أن من الصعب أن نطلب من الناس قضاء العطلة الصيفية في بلادهم لكي يكونوا «مواطنين» حسب رأيك... إن الوطنية والمواطنين أكبر بكثير من هذا... وأعمق بكثير من هذا.

ـ أنا أوافقك... وأردت فقط أن أسجّل أن سفر المواطنين هذا هو ظاهرة غير صحية.

ـ ربما... على كل حال... فهذا موضوع طويل ومتشعب... وأريد الآن أن أعرف رأيك في القرار الذي اتخذته.

ـ بعد هذا الحديث كله تسألني رأيي؟

ـ أريد جوابًا مباشرًا.

ـ كل ما أتمناه هو ألا تندفع في هذا الطريق... وأن تبقى معنا... وأن تظل، كما عهدتك، رجل البيت.

وفي هذه اللحظة دخل وجدي واتجه بسرعة نحو أبيه وارتمى في أحضانه وهو يقول:

ـ بابا... بابا... خذني إلى مدينة الألعاب.

وابتسم الأب وهو يحتضنه في حنان قائلًا:

ـ حاضر. . . حاضر يا حبيبي. . . ولكنني أريد أن أكلفك بمهمة.

وتطلع الطفل إلى أبيه متسائلًا فقال هذا:

ـ أريدك أن تحمي الزهور من أختك مها.

ـ فنهضت مائدة واتجهت إلى الداخل وهي تقول:

ـ ولكن من يحمي الزهور منك؟

ـ مني أنا؟. . . هل قد عدت إلى فلسفتك.

* * *

كان سعيد يغبط نفسه على أن أمين قد اقتنع بالعمل معه والتفرغ له، فلقد كان واضحًا أن أمين موهوب في هذا النوع من الأعمال، وأن اتفاقه مع أخيه قد عاد على الاثنين بالأرباح الوفيرة، فقد أصبح العمل يسير في مثل دقة الساعة، وراح أمين يبتكر أفكارًا جديدة. . . ويفتح آفاقًا جديدة. . . ويخوض كل ميدان يمكن أن يحقق لمؤسسات أخيه أرباحًا إضافية.

وانهال العمل على أمين. . . وباتت متعته الكبرى هي أن يتأمل كشوف حساباته في البنوك. . . وأن يرقب تصاعد ثروته إلى أرقام لم يكن يحلم بها في يوم من الأيام.

وبطبيعة الحال، استغرق العمل وقت أمين كله، كما توقعت مائدة، وأخذ يكرّس وقته وجهده لعمله الجديد، بل إن أوقات حضوره إلى البيت قد اضطربت واختلفت، شيئًا فشيئًا، فما عاد يعرف لنفسه مواعيد محددة.

ومع أن حديثه ذاك مع زوجته لم يغب عن باله ـ وكان يشعر بقشعريرة باردة كلما لاحظ أن ما توقعته مائدة قد حدث ـ فإنه لم يتوقف عما هو فيه. . . كان يريد أن يصل إلى يوم يقتنع فيه ولده وجدي بأن أباه لا يقل ثراء عن والد منى. . . وأن يزيل من نفسه ذلك الانكسار الذي انتابه ذلك اليوم الذي كان نقطة تحول في حياة أبيه.

* * *

دخل أمين إلى المنزل، واستقبله الحارس عند بوابة الفيللا الخارجية وأجاب على سؤاله أن الأولاد جميعًا في المنزل.

واندفع أمين بسيارته وأوقفها في ساحة الفيللا مسرعًا، فقد تأخر كثيرًا عن موعد الغداء.

وما إن دلف إلى الصالة الداخلية حتى فوجئ بمنظر منضدة الطعام وعليها بقاياه... وإلى جانب المنضدة جلست مائدة وحيدة متكئة على ذراعيها.

وتقدم نحوها محييًا... ولكنه لم يلبث أن توقف وهو ينظر إليها بدهشة.

كان يبدو عليها أنها متعبة... بل مريضة... بصورة لم يلاحظها عليها من قبل.

ووضع يده على جبينها وسألها بلهفة:

ميمو... ما بك؟... لم تبدي شاحبة هكذا؟... هل تشكين من شيء في رأسك؟... سآتيك ببعض الحبوب.

وتحرك إلى الداخل بسرعة يريد أن يحضر لها الدواء ولكنها قالت:

ـ تعال يا أمين... اجلس... إنني أشكو من قلبي... لا من رأسي.

فهتف بذعر:

ـ قلبك؟... صلّ على رسول الله.

ـ اللهم صل وسلم وبارك عليه... تعالى... أجلس... الحمد لله على أنك قد انتبهت أخيرًا إلى حالتي.

وجلس أمين مشدوهًا إزاء ما لاحظه في لهجتها من برود وألم.

وتكلمت مائدة.

ـ لقد حاولت، مرات عديدة، أن أشرح لك حالتي ولكنني لم أتمكن... لأنني لم أكن أجدك... حتى أبناؤك أصبحوا بحاجة إلى أب.

ـ ما هذا القول؟

ـ أرجوك... اسمعني... فإن هذه الفرصة قد لا تأتي مرة أخرى... إلا بعد وقت لا يدري موعده سوى الله تعالى... كنت أقول لك أن الأولاد، وأنا أيضًا، في حاجة إلى أب... إلى رجل يرعى المنزل.

ـ إنني موجود... ولكنني... ولكنني مشغول بعض الشيء... أنت تعرفين لماذا... إنه... إنه العمل.

ـ العمل... أجل... العمل... من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر... العمل والمال... وما يعنيه من رفاهية ورغد عيش... لقد أصبحنا نسكن في فيللا كبيرة... ولنا مساكن عديدة... في الرياض والطائف وأوروبا... ولكن هذا لا يهمني... ولا يهم أولادك... لقد أصبحنا كالأيتام يا أمين... ولا همّ لنا إلا أن ننتظر عودتك... ومع هذا تأتي إلى الغداء في العصر... لقد انكسرت نفوس الأولاد يا أمين... ولم يعودوا يقتنعون بالحجج التي أحاول بها أن أبرر غيابك... لأنني، أنا نفسي غير مقتنعة بها.

ـ أنا آسف يا ميمو... ولكنك تعلمين... أنني أحاول إسعادكم... ومتابعة أعمالي مع أخي في الوقت نفسه... أنا، أيضًا، متعب... فلا تظني أنني سعيد بذلك.

ـ آه... لقد قلتها أنت يا أمين... لست سعيدًا... هل تذكر حديثنا قبل سنوات؟... ألم أتوقع ذلك لك ولنا؟

ـ ولكنك تعلمين الدوافع... إنني أود لأولادي أن ينشأوا سعداء.

ـ سعادتنا هي في أن نراك يا بابا... وأن نشعر بحنانك مثل أولاد الناس.

كانت العبارة صادرة عن وجدي الذي اقترب دون أن يشعر به الاثنان اللذان راحا ينظران إليه بدهشة وذهول.

وأدركت مائدة أثر تلك الجملة في نفس أمين. . . فقالت للغلام بلهجة قاسية:

ـ ألم أقل لك قبلًا أنه لا يجوز لك أن تتدخل في أحاديث الكبار؟

ـ ورد الغلام بسذاجة:

ـ لقد قلت في نفسي أنها فرصة أخاطب فيها أبي بعد أن رأيته هنا.

ـ اذهب إلى غرفتك.

وانسحب وجدي ولكن أثر جملته فعل فعله في المكان.

ونهض أمين متثاقلًا، وتوجه إلى الصالون المطل على الحديقة، وتهالك على مقعد وهو يفكر.

ها هو وجدي. . . وجدي نفسه. . . يؤلمه مرة أخرى بعبارة ساذجة ينطق بها بعفوية الطفولة، ولكن شتان ما بين مناسبة العبارة الأولى، ومناسبة العبارة الثانية.

وعاد حديثه مع زوجته، يوم حادثة العبارة الأولى، يتردد في ذهنه بالكلمة والحرف والجملة حين حذّرته مائدة من الاندفاع في طريق يبتعد به عن «القناعة» ويجعل منه آلة تصنع المال.

وفيما هو يسائل نفسه، حائرًا، عما إذا كان قد أصاب أو أخطأ، انتبه إلى يدين رقيقتين تلتفان حول عنقه، فالتفت ليجد وجدي يسند رأسه إلى كتفه وهو يبكي في صمت ويقول:

ـ أرجوك أن تسامحني يا بابا.

وقبل أن يجيب، فوجئ بمرأى أولاده جميعًا. . . مها. . . ورجاء. . . وصلاح. . . يلتفون حوله، ويجلسون إلى جانبه على المقعد وقد ومضت السعادة في عيونهم فرحًا بلقاء أبيهم، وقدرتهم على الجلوس معه، والحديث إليه.

وأقبل عليهم، يقبّلهم ويداعبهم. . . وقد نسي كل شيء عداهم.

وجاءت مائدة، فطلبت إلى الأولاد أن يذهبوا إلى غرفهم، فأطاعوا وأنظارهم معلقة بأبيهم.

وقالت الزوجة:

ـ هل تريد أن آتيك بالطعام هنا؟

ـ لا أشعر برغبة في الطعام.

ـ ولكنك لم تأكل شيئًا.

ـ أرجوك... لا أريد طعامًا.

ـ آتيك بالشاي إذن.

ـ لا بأس.

مضت ساعة أو اثنتان، والاثنان يتحدثان، وكل منهما يحاول أن يشرح وجهة نظره ويدافع عنها، وفجأة قطع أمين حديثه وقطب جبينه وقال:

ـ ما هذا؟... يبدو أن الزهور عطشى.

واتجهت مائدة بنظرها إلى حيث كان ينظر.

كان هناك الحوض الكبير الذي حرص على نقله إلى الفيللا عندما انتقل من مسكنه السابق، وكان، بادئ الأمر، يجد وقتًا كافيًا لكي يتعهده بشيء من العناية والرعاية.

ونهض ببطء، واتجه إلى الحوض، وراح يتلمس زهوره الزرقاء التي كانت قد ذبلت وجفّت حتى تصلبت وراحت تتكسر بين أصابعه من لمسة واحدة.

وجاءه، من الماضي، صوت زملائه وهم يعابثونه ويداعبونه لما عرفوا عنه من حبه للزهور الزرقاء، ونظر إلى الحوض، بزهوره الميتة، بذهول، والتفت إلى مائدة قائلًا وكأنه ينعى إليها شخصًا عزيزًا:

ـ مائدة... لقد جفت الزهور.

كان صوته شبه مبحوح، وقد أنكره، هو نفسه، عندما سمعه.

وجاءه صوت مائدة وهي تقول له بمرارة وقد حملت صينية الشاي متجهة إلى الداخل وقد التفتت إليه نصف التفاتة كأنها تجد عناء في التفاتتها:

ـ وهل هذا هو الشيء الوحيد الذي جفّ في حياتنا يا... دكتور؟

جراح البحر

جراح البحر

الفصل الأول

نهض الشيخ حامد الدخش، بعد أن أنهى صلاته، وهو يتمتم ـ كعادته ـ بالأدعية في صوت خافت... ثم وقف أمام النافذة، ونظر إلى السماء نظرة متفحصة، واتجه ببصره إلى البحر الذي بدا له، على البعد، هادئًا ساكنًا، تلتمع على صفحته أنوار النهار الجديد الذي أوشكت شمسه على الشروق.... وتنهد الدخش، وقال مخاطبًا نفسه بصوت خافت وبلهجة من عزم على أمر:

ـ على خيرة الله.

وأتاه من ورائه صوت زوجته التي كانت قد دخلت حاملة طعام الإفطار:

ـ هه... كيف حالة البحر اليوم؟

ـ على خير ما يرام.

ـ ستخرج إذن؟

ـ بإذن الله... يبدو لي أن الجو ملائم اليوم.

وردت الزوجة مكررة عبارة زوجها:

ـ على خيرة الله.

وقفز ذهنها إلى المطالب العاجلة للعائلة، وما يمكن أن يحققه خروج أبو حسونة وتوفيقه في رحلته المزمعة من تلبية لتلك المطالب، أو بعضها على الأقل، فالأولاد يكبرون بسرعة، وحاجاتهم ومطالبهم تكبر معهم، وما يجنيه أبو حسونة من مهنته الشاقة هذه، لا يكاد يكفي إلى الجانب يسير من تلك المطالب، لا سيما وأنه كان قد مضت عشرة

أيام منذ أن خرج أبو حسونة إلى البحر آخر مرة، وبعدها اضطرب هذا البحر في ثورة عاتية استمرت كل تلك الأيام، فمنعت الصيادين من الخروج، وجعلتهم يترقبون هدوءه وهم يلقون عليه من وراء منازلهم المتواضعة، نظرات متلهفة يلتمع فيها الرجاء بأن يعود إليه هدوؤه، ليخرجوا إليه في سعيهم وراء رزقهم الذي لا يعرفون له مصدرًا غير هذا البحر.

والتهم الدخش طعامه اليسير بسرعة كعادته، ثم نهض وهو يحمد الله، وبدأ يستعد للخروج بعد أن ألقى نظرة حانية على أولاده النائمين، وتركزت نظراته على ولده الأكبر حسونة، الذي كان في السادسة عشرة من عمره، والذي كان أبوه يستعذب حياته الصعبة القاسية من أجل أن يهيئ له أسباب الحياة اللائقة، قدر الإمكان، لمواصلة دراسته التي كان يحقق فيها، سنة بعد سنة، نجاحًا مرموقًا.

وتنهد الدخش... وهو يحس بقوة عظيمة تجتاح كيانه، فقد كانت أسرته ـ والبحر ـ كل دنياه، فما يعرف لنفسه دنيا غيرهما، وكل ما كان ينتابه من التعب والنصب أثر كل رحلة في عرض البحر، يزول في مثل لمح البصر عندما يلج بيته، الذي لم يكن يبعد عن الشاطئ كثيرًا، وينظر إلى أسرته الصغيرة وهي تتطلع إلى ما بين يديه في لهفة، لتحكم على مدى توفيقه في رحلته بمقدار وحجم ما يحمل ونوعيته.

وألقى الدخش التحية على زوجته وهو يمضي إلى الباب مودعًا بدعائها الحار وتمنياتها الطيبة وقد اضطرعت في رأسه شتى الآمال والآلام.

كم مرة قطع الدخش هذا الطريق ما بين المسكن والبحر؟

إنه لا يدري... ولكنه لا يتذكر أنه خرج في مثل هذا الوقت المبكر إلا وكان البحر وجهته ومبتغاه.

ذلك أن البحر قد امتزج بحياته امتزاجًا كليًا، كما هو الشأن لدى جميع زملائه الصيادين، ليس في جدة وحدها، وإنما في أي مكان من العالم.

إنه امتزاج تتداخل فيه المحبة بالرهبة، والاطمئنان مع الخوف، والأمل مع اليأس... فالصياد يحب البحر بقدر ما يرهبه، ويطمئن إليه بقدر ما يخاف منه، ويعلق عليه الآمال بقدر ما يتوقع منه الخيبة والخذلان.

ورغم هذا، فالدخش لم يفكر، قط، في أن يتحول عن مهنة الصيد هذه إلى أية مهنة أخرى، كالنجارة أو الحدادة، ولا خطر له أن يستبدلها بأن يعمل حمّارًا أو حمّالًا، وذلك شأن كل زملائه الصيادين... إذ لم يكن أحدهم يأنس إلى مكان غير شاطئ البحر تارة، وقاع المركب المتأرجح على صفحة المياه تارة أخرى، وحتى في أشد الحالات مدعاة لليأس، تراهم يبحثون عن مخرج مما هم فيه، ولكن دون أن يخطر ببال أحدهم أن يترك حياة البحر أو يهجره.

إن استبدال الصيد بأية مهنة أخرى لهو أمر يخجل أي صياد من أن يفعله.

ووصل الدخش إلى الشاطئ ليجد بعضًا من زملائه قد سبقوه... الدرمحي والعود... وحسوبة... وسواهم.

كانوا منهمكين في حديث لو استمع إليه أحد سواهم لما فهم منه ـ أغلب الظن ـ شيئًا، فهم يستخدمون كلمات وتعابير واصطلاحات تكاد تكون لغة خاصة قائمة بذاتها لا يستطيع غير أهل البحر أن يفهموها، فيتخاطبون بها بسرعة ويتبادلون كلماتها وعباراتها وهم مطمئنون إلى أن أحدًا سواهم لا يفهم ما يقولون.

ورحّب الزملاء بالدخش، وردوا تحيته في مودة، وأشركوه في الحديث الذي كانوا منهمكين فيه، والذي كان يدور حول أفضل مكان يمكن لهم العودة فيه بصيد وفير، وأخطر مكان ينبغي عليهم عدم الاقتراب منه هذا اليوم.

قال أحدهم أن من الأفضل عدم الذهاب إلى «القطع».

ونصحه آخر بأن يذهب إلى «عرق المجرى».

وأبدى الدخش رأيه على ضوء ما رآه من حالة البحر، ومن واقع خبرته الطويلة في شؤونه وشجونه.

وعاد النقاش يحتدم من جديد في الوقت الذي كان الصيادون يعدون فيه عدتهم للصيد، والخروج إلى المواقع التي عزم كل منهم على أن يخرج إليها... وجمع الدخش «اللعف» وراح يرتبه بعناية.

و«اللعف» هو الطعم الذي يستخدمه الصيادون في اجتذاب الأسماك الكبيرة، وهو عبارة عن أسماك صغيرة تجمع بالشباك قرب شاطئ الخور، وتثبت في «الجلب» وهو قطعة من السلك المعقوف مربوطة إلى خيط متين مفتول تلقى في الماء لتقبل عليها الأسماك الكبيرة، حتى إذا ما علقت به، اهتزّ الخيط، فيعرف الصياد أن زرقه قد جاء.

وأنهى الدخش استعداداته، فركب زورقه ومضى يجذّف متجهًا إلى البقعة التي اختار أن يصيد فيها هذا اليوم.

ومع كل ضربة من ضربات المجذاف، كان الدخش يشعر بأثر السنين الطويلة على قوة ذراعيه، المفتولتين لكثرة ما جذّف طوال حياته، فقد بدآ يفقدان كثيرًا من قوتهما، وأصبحت حركاتهما أقل قدرة ولكنها تدل ـ على أية حال ـ على أصالة «الصنعة» لدى هذا الصياد القديم.

ولم يكترث الدخش للتعب الذي سرعان ما سرى إلى ذراعيه، بعد أن قطع جانبًا من المسافة التي تفصله عن المكان الذي عزم على التوجه إليه، فهو قد اعتاد هذا التعب حتى ألفه، وما كان بوسعه أن يفعل غير ذلك، إذ لا خيار له في الأمر، وعليه أن يواصل التجذيف بدون توقف، مهما تباطأت حركته، ومهما وهنت قوته، فلقد خلّف في البيت أربعة أفواه تعيش من جني كده وجهده وعرقه، وعليه أن يتشدد، وأن يقوي من عزيمته، وأن يلهب إرادته... وأن يواصل التجذيف أملًا في أن يعود إلى أهله، إن شاء الله، بربح مجز من صيده المأمول.

كذلك لم يكترث الدخش لأشعة الشمس التي اكتمل شروقها، فراحت ترسل أشعتها اللاهبة على جسده الذي كان عاريًا من أعلاه، فالتمعت حبّات العرق عليه، وسالت في خيوط على صفحة وجهه لتغيب في لحيته البيضاء.

هذا كله كان مما اعتاد الدخش عليه وألفه، فهز من طبيعة الحياة القاسية التي عاشها، ويعيشها، والتي لا يعرف، ولا يريد أن يعرف، لنفسه حياة سواها.

وأجال الدخش بصره في أرجاء البحر الذي كان سطحه يلمع كَذَوْب الفضة، واجتاحه ـ تلك اللحظة ـ ذلك الشعور الجارف بحب هذا الصديق الرهيب.

أجل... إنه يحب البحر، فهو صديقه، وعشير عمره، ومصدر رزقه ورزق عياله.

صحيح أنه قُلّب لا يستقر على حال، فمرة يجود حتى يعود الصيادون بوفير الصيد الذي يتحول إلى مال كثير يلبون به مطالب عيالهم، ومرة يبخل حتى يعودوا، أحيانًا، صفر الأيدي أو يكادون.

مرة يهدأ، حتى لكأن سطحه فراش ناعم منبسط من القطن المندوف.

وأخرى يثور ويزمجر، ويتلاعب بالزوارق الخشبية الصغيرة كما يتلاعب الهواء بريشة تائهة في الفضاء.

إنه ـ هذا البحر ـ صديق أليف أحيانًا... ووحش مفترس أحيانًا أخرى.

إنه ـ هذا البحر ـ غريب الأطوار، لا يستقر على حال، ولا يمكن حتى لأصدقائه الصيادين أن يطمئنوا إليه، فهو إذا انقلب عليهم جرّحهم، وأدماهم وتسبب ـ بعض المرات ـ في كوارث تصيبهم في أجسادهم وأرواحهم.

ورغم هذا، فإن الدخش، وزملاءه جميعًا، يحبون هذا الصديق،

ويغرمون بهذا الوحش، ولا يرضون عن رفقته بديلًا أبدًا.

وراح الدخش يجذّف ويجذّف، وهو يلقي بالتحية، بصوت عال، لزميل على الخور، أو يلوّح بذراعه لزميل آخر مضى يجذّف مثله وهو يوجه زورقه إلى حيث يأمل أن يجد موفور الصيد.

ورغم ما كان فيه من تعب ونصب وحرّ، كان يتزايد كلما ارتفعت الشمس في كبد السماء، حتى يكاد يكتم أنفاس الصياد العجوز، فقد ملأ الدخش صدره بالهواء، ورفع صوته الأجش بالغناء.

ويا له من غناء... ذاك الذي اعتاد رجال البحر من صيادين وغواصين وبحارة على أن يطلقوا عقائرهم به وسط أصعب ظروف يمكن أن يعيشها إنسان.

إنه غناء يصدر من أعماق القلب، في لحن شجي، وكلمات حزينة، وأيقاع بطيء، يؤديه رجل البحر وهو يقوم بحركاته الرتيبة، ممسكًا بمجذافه أو ذاهبًا في رحلة غوص، أو مسافرًا على ظهر مركب بضائع، فيحس بأن التعب قد زايله، وإن الهموم قد انجلت عن قلبه وإن كل شيء، مهما كا صعبًا ومرهقًا، يمكن احتماله.

في أناشيد البحر هذه، يسجل رجال البحر مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم، ويصوّرون آمالهم وآلامهم، ويروون حكاياتهم وأساطيرهم في كلمات معبّرة، ونبرات صادقة، تخرج بلحنها الفريد ذاك فيكاد السامع أن يستنشق هواء البحر، وأن يرى عرق الكفاح وهو يلتمع على الأجساد المنهكة، وأن يجذّف معهم إلى عرض البحر، صيادًا، أو يهبط معهم إلى الأعماق، غواصًا، أو يشق معهم العباب بحّارًا.

ومضى الدخش يجذّف ويجذّف.

وظل في نفس الوقت يغني ويغني.

وفجأة توقف عن الغناء، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سعيدة.

لقد ظهر «أبو سلامة».

وظهور أبو سلامة يعني ـ بالنسبة للصيادين ـ أن المنطقة خالية من أسماك القرش المفترسة.

و«أبو سلامة» هذا، هو سمك «الدلفين» الظريف، الوديع، المرح.

وما يدري أحد من الذي أطلق على الدلفين ذلك الاسم الغريب، ولكن الصيادين، هناك، لا يعرفون له اسمًا غيره.

وهم يتفاءلون به كثيرًا، لأنه عدو لدود لسمك القرش الذي يهرب دائمًا من المناطق التي يوجد فيها أبو سلامة.

وإذا ما اطمأن الصياد إلى أن البقعة خالية من سمك القرش، كان معنى ذلك أن بوسعه أن يجد شيئًا يصطاده، كما أن بوسعه أن يطمئن إلى أن سمك القرش الرهيب لن يشاركه صيده، ولن يستأثر به لنفسه كما يحدث أحيانًا.

ولوّح الدخش بذراعه لأبو سلامة في تحية تدل على المودة التي يكنها له، وعاد إلى الغناء والتجذيف بهمة أكبر، فقد استبشر بوجود الدلفين خيرًا، ورجا أن يعود من رحلته هذه بالصيد الذي يتمناه.

وراح الدخش يفكر، وهو يجذف ويغني.

إنه ـ الآن ـ يخرج على بركة الله، فهل يقدّر له أن يعود بذلك الصيد حقًا؟... أم أنه سيعود خالي الوفاض؟

ـ هذا أمر علمه عند الله تعالى... فما يدري الدخش، ماذا قدّر الله له في يومه هذا من رزق... وإنه ليتذكر أيامًا عاد فيها بأوفر مما كان يتوقع من الصيد وأحيانًا عاد بأقل منه، ولكنه ـ في جميع الأحوال ـ يتقبل الصيد الوفير بالحمد لله، كما يتقبل الصيد الشحيح بالصبر وحمد الله أيضًا.

لكنه اليوم يشعر بالتفاؤل، لأن وجود «أبو سلامة» جعله يطمئن إلى عدم وجود سمك القرش في تلك البقعة.

وهل ينسى ما تسبب به هذا السمك المفترس من مآس للصيادين؟

إنهم لا يكادون يصطادون شيئًا وقبل أن يجذبوا «الجلب» إلى القارب يأتي القرش فيلتهم صيدهم في مثل لمح البصر.

إنه شريك غير مرغوب فيه... يفرض نفسه من غير دعوة، طبعه العدوان وشيمته الاغتصاب.

وتوقف الدخش عن التجذيف بعد أن أدار بصره فيما حوله، وتبين له أنه قد ابتعد عن الشاطئ مسافة كافية.

إن من طبيعة هذه المهنة الشاقة أن يعرف الصياد بالفطرة مقدار المسافة التي قطعها بعيدًا عن الشاطئ، لأنه إذا ابتعد أكثر مما يجب، كان عليه أن يتوقع تسرّب الفساد والتعفن إلى السمك الذي اصطاده قبل أن يصل إلى السوق ليبيعه فيها.

أحيانًا - رايح الدخش يتذكر - كان يصل إلى الشاطئ بسلام، ولكنه لا يكاد يتخذ طريقه نحو السوق حتى تتصاعد إلى أنفه رائحة التعفن الذي بدأ ينتشر فيما اصطاده، بسبب طول المسافة، وشدة حرارة الشمس.

وتذكر... كيف كان يتوقف عن سيره النشط لتتباطأ خطواته، ثم ليقف تمامًا، وينزل حمله عن ظهره ويروح يتأمله وقد سرى الفساد والتعفن فيه، فيلقيه على الأرض حيث هو، ودموع القهر تكاد أن تطفر من عينيه، ثم يتوجه إلى مسكنه بطيء الخطا، مقوّس الظهرن خالي الوفاض، صفر اليدين، وقد التصقت نظراته بالأرض.

لقد ضاع تعب النهار كله، ولم يظفر - رغم جهده - بشيء.

وشعر الدخش بقشعريرة تجتاح جسده، إذ خطر له أن ما كان يحدث من قبل يمكن أن يحدث اليوم، فألقى نظرة قلقة على ما حوله كأنما يريد أن يطمئن إلى أن بإمكانه أن يصل إلى السوق في الوقت المناسب، ثم رفع بصره إلى الشمس التي كانت ترسل حرّها اللاهب، وهزّ كتفيه باستسلام ثم جهّز مرساته، وراح يدلي بها إلى الماء وهو يقول بصوت خاشع مسموع:

- توكلنا على الله.

وكانت المرساة عبارة عن حجر كبير، مشدود إلى حبل طويل، حتى إذا وصل إلى القاع ثبّت الدخش الحبل إلى الزورق وقد اطمأن إلى ثباته في موقفه، ثم نشر قطعة كبيرة من الخيش ليحتمي بها من أشعة الشمس، وراح يستقبل بكثير من السعادة والارتياح بعض النسيمات التي كانت تسري بلطف وسط الجو اللاهب، فترطّب بعضًا مما يشعر به بتأثير الحر، وتجفف شيئًا من عرقه الذي كان ينثال على جسده المكدود بغزارة.

وألقى بالجلب، بعد أن ثبّت فيه اللعف، وراح ينتظر.

إن الانتظار هو المهنة الحقيقية للصيادين جميعًا.

إنهم ينتظرون أن يهدأ البحر حين يكون هائجًا.

وينتظرون أن تأتي سمكة لالتهام اللعف الذي ثبّتوه بالجلب.

وينتظرون أن يصلوا إلى السوق في الوقت المناسب، قبل أن تتسرب العفونة إلى الصيد.

ومع الانتظار تعلّموا الصبر.

الصبر على هياج البحر حتى يهدأ.

والصبر على الجلب وهو في عمق البحر ينتظر الصيد.

والصبر على الصدمات التي يواجهونها في عملهم إذا ما عادوا بصيد قليل أو إذا فسد الصيد قبل أن يصلوا إلى السوق.

وانتبه الدخش من خواطره على حركة في الخيط.

ـ الحمد لك يا رب.

يبدو أنه لن يضطر للانتظار كثيرًا، فقد أتى الصيد في وقت وجيز.

وراح يسحب الخيط نحوه بهمّة، وفضول هائل يجتاح كيانه معه، يريد، أن يعرف نوع السمكة التي اصطادها.

ولم يكد ير السمكة حتى أطلق صيحة فرح.

ـ الناجل. . . الناجل.

ذلك أن «الناجل» هذا هو بشرى خير للصيادين، لأنه نوع جيّد من السمك، لذيذ الطعم، ويحظى بإقبال المشترين في السوق.

ودلّه حجم السمكة على أن هناك كثيرًا من أمثالها في البحر، فرفع رأسه إلى السماء شاكرًا وأقبل على عمله بهمة ونشاط، فوضع السمكة جانبًا وهي تنتفض وتتخبط، وثبّت لعفًا جديدًا في الجلب، وألقاه في البحر، وبعد دقائق معدودات اهتزَ الخيط دليلًا على التهام سمكة أخرى للعف، فسحب الخيط وقد نسي نفسه ونسي حرارة الشمس، ونسي ما كان عليه من تعب وإرهاق.

ـ الحمد لله.

يبدو أن الصيد سيكون وفيرًا هذا اليوم.

واتجه ذهنه في الحال إلى ضرورة العودة إلى المدينة بسرعة، بعد أن يصيد كفايته، خوفًا على الصيد من الفساد، لأن الصيد وحده لا يكفي، بل إن عليه أن يتدبر أمر العودة ليبيع ما اصطاده، ويضع الثمن في جيبه، وعندها ـ عندها فقط ـ يستطيع أن يشعر بالارتياح والسعادة.

وعاد يلقي الجلب في الماء، وقد تحوّل جسده الواهن إلى شعلة من النشاط والشباب والحماسة.

الفصل الثاني

لم تكن أم حسونة في حاجة إلى فطنة كي تدرك أن هذا النهار كان، بفضل الله، موفقًا، وأن زوجها قد عاد مجبور الخاطر، وافر الكسب.

فلقد قرأت ذلك على وجهه بمجرد أن دخل السكن وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وفي عينيه سعادة غامرة، وقد حمل بين يديه خيرًا كثيرًا قد جاء به من السوق بعد أن باع ما اصطاده بثمن جيد.

ـ هه... بشّر.

هتفت الزوجة مخاطبة زوجها، رغم ما أدركته من توفيقه هذا اليوم، فكأنما تريد أن تطرب أذنيها بحديثه عن الكسب الكثير، غير مكتفية بما رأته على وجهه، وما بين يديه، من جواب.

وقال أبو حسونة وهو يناولها ما يحمل:

ـ الحمد لله... خير وبركة... لقد وفقت اليوم إلى صيد كمية كبيرة من الناجل... وأكرمني الله تعالى فبعتها بثمن طيب.

وتمتمت المرأة بعبارات الحمد لله وهي تتناول ما جاء به زوجها لتتجه إلى ركن بعيد من المسكن يستخدم كمطبخ.

ودخل الرجل إلى الغرفة التي اعتادوا على استخدامها للجلوس، ولنوم الأبناء، فارتمى على مرتبة في جانب من الغرفة، وأسند ظهره إلى الجدار، مغمضًا عينيه وقد استرخى جسده كجواد قطع مسافة بعيدة وآن له أن يستريح.

وأقبل الأبناء الثلاثة من «الحوش» على الأب يسألونه في فضول

محبب عما كان عليه نهاره، فارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه وشفتيه، وقبّل كفّه اليمنى بطنًا وظهرًا، وقال وهو يرفع رأسه إلى السماء:

ـ الحمد لله. . . رضى.

واندفع يحدثهم بالموضوع المفضل لديه، والذي سمعوه منه كثيرًا من قبل، والذي كان يضيف إليه باستمرار ما يجدّ معه من أحداث أيامه الجديدة.

حدّثهم عن الأمل العظيم الذي يغمر فؤاد كل صياد وهو يخرج إلى البحر وفي خياله الصيد الكثير والرزق الوفير.

حدّثهم عن الشمس الحارقة، والطريقة البدائية التي يتقي بها الصيادون أشعتها بنشر قطعة كبيرة من الخيش في مواجهة الشمس.

حدّثهم عن الزمن الذي فعل فعله في الذراعين اللتين كانتا قويتين فيما مضى، ولكنهما ـ الآن ـ تضربان على صفحة الماء بالمجذافين ضربًا واهنًا.

حدّثهم عن القرش المفترس، الذي لا يخشى الصيادون من مخلوقات البحر شيئًا مثلما يخشونه، وكم من مرة فجعهم فيها بصيدهم قبل أن يخرجوه من الماء، ثم يظل مكانه ليلتهم سواه إلى أن يشبع فينصرف من المكان.

حدّثهم عن «أبو سلامة»، صديق الصيادين المحبب، سواء لمرحه وخفة ظله وتوثبه من قلب الماء حول قواربهم، أو لأن وجوده في بقعة ما يعني ـ وهذا هو المهم ـ أن القرش غير موجود فيها، لأن القرش ـ لحكمة يعرفها الخالق العظيم ـ يخشى أبو سلامة ويفرّ منه.

حدّثهم عن القلق الذي يظل يفتك بأعصاب الصياد حتى بعد أن يظفر بالصيد الذي يرضيه خشية أن يتحول صيده إلى كومة من العفن إذا لم يصل إلى السوق في الوقت الملائم.

وحدّثهم أخيرًا عن التوفيق الذي حظي به، يومه هذا، والعدد

الكبير من «الناجل» الذي اصطاده حتى عاد إليهم بما حمله من الرزق.

وفي كل مرة كان الدخش يروي فيها هذه الحكايات لأبنائه كانوا يصغون إليه مبهورين حابسي الأنفاس وكأنهم يسمعون أسطورة عجيبة من أساطير الأولين، التي يمتزج فيها الأمل مع اليأس، والصبر مع الانتظار، والقلق مع الطمأنينة، ويبدو لهم أبوهم فيها بطلًا فائق المقدرة وسط أحداث تلك الأسطورة المدهشة.

إنهم لا يملّون أبدًا من الاستماع مرارًا وتكرارًا إلى هذه القصة، أو الأسطورة، فهي تشبع فضولهم الطفولي تجاه البطولة والأبطال، وتثير فيهم إحساسًا من الزهو، لأن أباهم هو البطل، وإن الأسطورة هي قصة كفاحه.

ولكن حسونة، أكبر أبناء الدخش، كان يحس إحساسًا مختلفًا تجاه ما يرويه لهم الأب من أقاصيصه تلك.

كان يشعر بضميره يؤنبه، وبإحساس من الذنب يسيطر عليه، كلما أتى أبوه على ذكر صعوبة واجهها أو أمل له قد خاب.

كان يرى إلى الزمن وهو يفعل فعله في الجسد الذي كان قويًا فيما مضى، فجاء البياض الذي اكتسح لحيته ليعلن بأن هذا الجسد لم يعد على قوته السالفة وإنه إلى الشعف والوهن أقرب.

وانتهز حسونة فرصة صمت أبيه بعد أن انتهى من رواية أحداث يومه، فتكلم بعد طول تردد، معربًا عن الفكرة التي كانت تراود ذهنه منذ زمن، والتي كان يجرؤ على الإفصاح عنها لتأكده من أن أباه لن يوافقه عليها، وإنه سيأمره بأن يلتفت إلى دروسه ويهتم بمدرسته.

قال حسونة في كلمات متئدة مخاطبًا أباه:

ـ ما رأيك يا أبي. . . إذا. . . إذا خرجت معك إلى. . . إلى البحر؟

واتسعت عينا الأب في دهشة وقال على الفور:

ـ أنت؟. . . تخرج معي؟. . . إنك ما زلت صغيرًا.

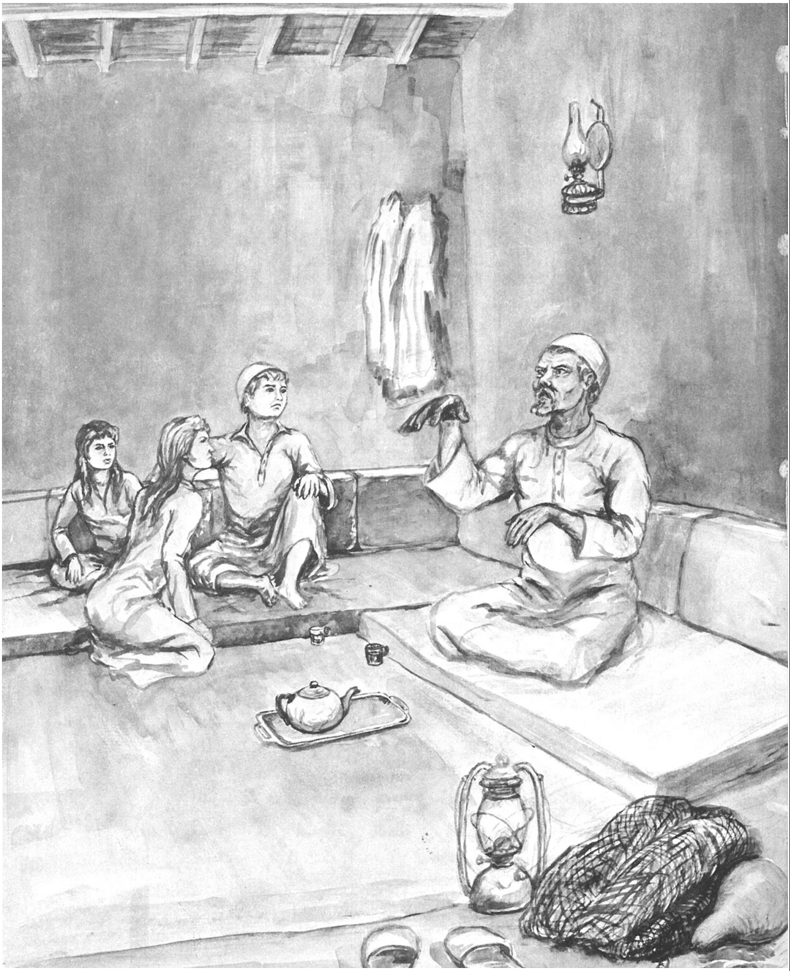

ـ إنني في السادسة عشرة.

ـ والمدرسة؟... إنها واجب أكثر أهمية.

ـ المدرسة الآن في عطلة... فنحن في الصيف... وأنت تعلم، يا أبي أنه لم يعد في إمكاني أن أقضي العطلة في اللعب واللهو كما يفعل الأطفال الصغار.

وحدّق الأب في ابنه وكأنه يراه لأول مرة.

حقًا... لقد أصبح حسونة رجلًا... رجلًا صغيرًا... ولكنه رجل على أية حال.

ولم يكن صعبًا عليه أن يلاحظ معالم الصحة والقوة في جسم ولده الفتي، فهو ـ الآن ـ ينتقل إلى مرحلة الرجولة، ولشد ما يطرأ تغيير سريع على بنية الفتى في هذه السن.

ونقل بصره في جسم ولده صامتًا.

هاتان الذراعان؟... إنهما ـ بكل تأكيد ـ أقوى من ذراعيه، فهما ذراعا فتى في مقتبل العمر ولم ترهقهما، بعد، تكاليف الحياة.

هذا الصدر؟... إنه عريض... قوي... وكفيل بأن يستقبل رياح البحر وأشعة الشمس بشكل يعجز عنه صدره الواهن.

لقد بدا له ولده، لأول مرة، رجلًا مكتمل الرجولة، إذ لم يسبق له ـ من قبل ـ أن نظر إليه إلا كما ينظر إلى طفل صغير.

ولكن المدرسة.

وهزّ الدخش رأسه يمينًا ويسارًا علامة الرفض والاستنكار قائلًا:

ـ لا... لا... عليك أن تنصرف إلى دروسك.

ولكن الفتى عاد يتوسل قائلًا:

ـ أرجوك يا أبي... إنني أعدك بألا أعمل معك إلا في العطلة الصيفية... وفيما عدا ذلك سأظل كما أنا الآن... وأؤكد لك أنني سأحتفظ، إن شاء الله، بالأولوية في الفصل كعادتي.

وشعر الدخش بعاملين يتنازعانه... أحدهما هو تصوّره لما

يمكن أن يحمله عنه ولده من أعباء إذا ما خرج معه إلى البحر لمساعدته، وثانيهما هو رغبته النابعة من أبوّة عميقة في أن يكفي أبناءه مشقة العمل والصراع مع البحر وأن يجنبهم قسوة الحياة ما أمكن... ولو ظل هو المصدر الوحيد للرزق... فضلًا عن أن يكره أن يحس أحد منهم أنه لم يعد قادرًا على العمل والكسب... وهناك أيضًا المدرسة... لا... لا... لا... إنه لا يوافق.

وعاد الابن يرجو ويتوسل، ويدافع عن وجهة نظره في حماسة، والأب يلين شيئًا فشيئًا، فقد لمس أن مطلب حسونة ليس نزوة طفولية عابرة، وإنما هو نتيجة لتصميم سابق وتفكير طويل.

وأخيرًا قال وهو يربت على كتف ولده في حنان:

ـ لا بأس... ستخرج معي... إنني سأجربك... وبعدها نرى ما سوف نفعل... ولكنني أكرر عليك القول... إن دراستك هي أكثر ما يهمني... إنني لا أريد لك أن تتعلق بحياة البحر وتنسى ذلك.

وأقبل الابن على أبيه يشكره في حرارة وهو يعانقه، ولم يفت الدخش أن يشعر بقوة ذراعيه وهو يشده إلى صدره في محبة فائقة.

* * *

وانتاب الدخش شعور عميق بالارتياح لقرار ولده بالخروج معه إلى البحر وموافقته على ذلك.

فكأنما دبت روح جديدة في الزورق العجوز، وصاحبه العجوز، بقدوم الفتى حسونة، ومشاركته في أعباء الخروج إلى البحر والصيد فيه.

ولم يلق الدخش عناء كبيرًا في تلقين ولده الدرس الأول في الصيد، وهو جمع «اللعف» بواسطة الشبكة من مياه الخور.

إن هذه العملية كانت تستغرق من الدخش وقتًا طويلًا وهو يقوم بها ببطء وتؤدة، ولكنها اليوم تمت بحرارة الفتوة ونشاط الشباب، في مدة وجيزة ما لبث اللعف بعدها أن ملأ الإناء الذي خصص لوضعه فيه.

وكان الدرس الثاني أكثر سهولة.

فما إن شرح الأب لولده كيف يمسك مجذافي القارب وكيف يحركهما على التوالي وهو يغرق أحدهما في الماء ويرفع الآخر في حركة متوازنة لينزله من ثم، حتى راح الفتى يجذف بهمة ونشاط كأنما هو قد وجد في هذه المعركة متنفسًا لما في فتوته من قوة، فمضى القارب ينزلق على صفحة الماء بخفة وسرعة، بعد أن كان يشق الطريق نفسها قبلًا في بطء وتعثر، بقدر ما كانت ذراعا الأب العجوز الواهنتان تستطيعان الحركة.

ودهش الدخش إذ وجد نفسه يصل مبكرًا إلى البقعة التي اعتاد على الصيد فيها أغلب الأحيان، وعهده بها تستغرق من وقته مدة طويلة.

ووجد نفسه يقوم بمهمة «الربان» أكثر مما يقوم بمهمة الصياد... فهو قد اكتفى بإصدار التعليمات والتوجيهات إلى حسونة الذي كان يبادر إلى تنفيذها على الوجه الأكمل بسرعة ومبادرة.

فخلال دقائق كانت «المرساة» قد استقرت في قاع البحر.

وخلال دقائق أخرى كانت قطعة الخيش الكبيرة قد نصبت لتحمي الأب من وقدة أشعة الشمس.

وبعدها، ويا للعجب، كان الصيد يتكاثر بسرعة، وبصورة لم يعهدها الأب منذ زمن بعيد.

وأسند الدخش ظهره إلى جدار القارب، وهو يرخي ذراعيه ويتنهد بارتياح وينظر إلى حسونة وهو يقبل على العمل بحماسة، دون أن يسمح لنفسه بإعلان سروره إذ يرى خيط الجلب يهتز مؤذنًا بأن سمكة قد التهمت اللعف، فهو يقبل على الخيط يسحبه نحوه وقد علا قطوب الاهتمام وجهه وبجدية تنبئ بما انطوى عليه إهاب هذا الفتى من رجولة مبكرة.

وإذ اكتفى الصيادان بما حصلا عليه، راح حسونة يجذف في طريق العودة بنفس الهمة والنشاط، وحدّث الأب نفسه بأنه لا يتذكر

آخر مرة جذف فيها بهذه الطريقة، وإن كل ما يذكره هو منظر القارب وهو يتحامل على نفسه سائرًا بصعوبة، ما دامت الذراعان اللتان تحركان المجذاف غير قادرتين على إمداده بالقوة اللازمة.

أما الآن، فالقارب ينزلق بسرعة وخفة على سطح الماء، والفتى يجذف بقوة وكأن عناء اليوم كله لم ينل من قوته كثيرًا أو قليلًا، وفيما خلا قطرات العرق التي كانت تتجمع على جبينه لتسيل على وجهه وتتساقط أسفل ذقنه بصورة متتابعة، ما استطاع أحد أن يعرف أن الفتى قد قضى ساعات تحت لهيب أشعة الشمس الحارقة، لم يهدأ لحظة ولم يتوقف، حتى تجمع في القارب ذلك الصيد الكثير.

وشيئًا فشيئًا كان شعور عدم الارتياح الذي ساور نفس الدخش عندما خرج ومعه ولده ـ صباحًا ـ يتلاشى ليفسح مكانه لشعور جديد من التفاؤل والاستبشار، فلقد اقتنع بأنه قد أحسن عملًا إذ سمح لحسونة بمرافقته، وأصاب إذ استمد من شبابه وفتوته قوة جديدة دبت في القارب فأحالته ـ بمن فيه ـ إلى شعلة من النشاط والحركة والحيوية.

وسار كل شيء على ما يرام.

فقد بيع الصيد بثمن طيب، وعاد الدخش ـ مرة أخرى خلال أسبوع واحد ـ محملًا بما جلب لعياله من لوازم الحياة.

ولأول مرة منذ مدة طويلة، لم يشعر الدخش بذلك الألم الرتيب الذي كان ينتاب جسده، وخاصة ذراعيه المرهقتين من التجذيف والعمل المتواصل، فنام ليلته تلك مرتاحًا وهو يغبط نفسه ويحمد الله إذ منّ عليه بهذا الفتى القوي، ولده وحامل اسمه وذكره، ليرفع عنه جانبًا كبيرًا من عناء السعي من أجل اللقمة.

وانتبه الدخش من غيبوبة النعاس منزعجًا، فقد قدّر أن ذلك الألم قد انتقل إلى ولده الحبيب، وشعر بشيء من تأنيب الضمير... كيف يرضى لنفسه أن يخلد إلى الراحة وولده، ولا ريب، يعاني من أوجاع العمل المرهق التي لا تظهر عادة إلا بعد ساعات؟

ونهض من فراشه وشعور القلق والانزعاج يتفاقم في نفسه، واتجه إلى حيث ينام الأولاد في الغرفة المجاورة، ووقف عند رأس حسونة وناداه بصوت خافت، ولكن الفتى لم يجب. . . لأنه كان مستغرقًا في نوم عميق.

وتنهّد الرجل في ارتياح، فقد تغلبّت فتوة حسونة على التعب وآلامه، وكان تخوفه من أن يكون جهد اليوم قد نال من ولده في غير محله، فأحس بالفخر بهذا الفتى القوي، وعاد إلى فراشه وهو يحدّث نفسه بأن له أن يطمئن إلى الغد ما دام بوسعه أن يعتمد ـ من بعد الله ـ على حسونة الذي أثبت رجولة أصيلة وهو، بعد، في العقد الثاني من عمره، وأن تحسس الفتى بالمسؤولية وقيامه بها لجدير بأن يطمئنه.

وما هي إلا لحظات حتى استغرق الدخش في سبات عميق لا يعكره ذلك الشعور المستمر من الألم الذي اعتاد، قبلًا، أن ينتاب جسمه الواهن كلما آب من عمله وحاول أن يخلد إلى النوم.

❊ ❊ ❊

وحين خرج الدخش وحسونة إلى البحر مرة أخرى، بعد بضعة أيام، ازدادت قناعة الأب بأن الله تعالى قد يسّر له طريق الخير حين ألهم ولده أن يصارحه برغبته في أن يشاركه أعباء العمل.

فلقد سأله الفتى وهو منهمك في جمع اللعف:

ـ لم نذهب، يا أبي، للصيد بعيدًا في الخور ما دام بوسعنا أن نصطاد في مواقع قريبة من الميناء؟

وابتسم الأب للسؤال في عطف، فلقد استدل منه على أن ولده قد قطع شوطًا أوسع في أعمال البحر، وأن ذهنه قد بدأ ينشغل بشؤون الصيد.

وبلهجة الخبير الواثق مما يقول أجابه:

ـ إن الصيد بجوار الميناء صعب جدًا. . . لأن الأعماق كبيرة. . . وحركة السفن تنفّر السمك.

ـ إذن... يمكننا أن نصطاد في «القطع» أو في «عرق المجرى»... وبدلًا من النزول في الخور نقترب من الميناء، وبذلك يسهل علينا الوصول بالصيد إلى السوق قبل أن يتلف... وخصوصًا في الصيف.

ودهش الدخش.

كيف لم تخطر هذه الفكرة البسيطة على باله؟... وكيف أرهق نفسه طوال تلك السنوات بالذهاب إلى مناطق بعيدة؟

وابتسم الأب في عطف وقال لولده:

ـ افعل ما تراه يا ولدي... ولكن علينا أن نجد موقعًا مناسبًا قريبًا من الميناء فليست كل المواقع صالحة للصيد... وليست كلها مسموحًا بالوقوف فيها.

وسرعان ما آتت فكرة حسونة ثمارها... فقد اتخذا سمتهما في خط قريب من الميناء... وكان الأب يوجه الابن للاتجاه بالقارب نحو أماكن معينة بحكم خبرته الطويلة... إلى أن وصلا إلى المكان الملائم... فتبين لهما أنه لا يقل مردودًا عن الأماكن البعيدة التي كان الدخش يذهب إليها سابقًا، وهكذا حلت مشكلة الوصول إلى السوق في الوقت المناسب بصورة نهائية، فأمكن، بذلك، زيادة الوقت الذي يستغرقه الصيد، بعد أن كان معظمه يضيع في رحلتي الذهاب والإياب.

* * *

ولمست العائلة كلها نتائج مشاركة حسونة في تحصيل الرزق، وكان الدخش هو أكثر أفرادها شعورًا بذلك.

ومضت العطلة الصيفية بسرعة، وغاص قلب الدخش بين جنبيه، فبعد أيام قليلة تفتح المدارس أبوابها وينقطع حسونة عن مساعدته في العمل، ويعود ـ هو ـ إلى سيرته الأولى بما فيها من بطء وضعف وجهد.

وعوّل، بينه وبين نفسه، على أن يعود إلى العمل وحيدًا كما كان، إذ لم يكن يرضى ـ بأية صورة من الصور ـ أن يحول شيء دون متابعة ولده لدروسه.

ولكن حسونة كان له رأي آخر، أدلى به إلى والده، مما دل على أن هذه المسألة لم تغب عن باله، وأنه قد وجد لها الحل المناسب.

الفصل الثالث

قال حسونة لوالده وهو يجلس إلى جانبه:

ـ بعد أيام تفتح المدرسة أبوابها.

ـ وتنصرف أنت إلى دراستك كما اتفقنا... الدراسة أهم من أي شيء.

أجاب الأب وهو يخفي ما يشعر به من انزعاج أمام تلك الحقيقة.

وعاد حسونة إلى القول:

ـ لا أظن أن الدراسة يمكن أن تحول بيني وبين الاستمرار في الخروج معك إلى البحر.

ـ ما هذا الكلام يا بني؟... المدرسة لها الأفضلية القصوى... ولقد كنت، بارك الله فيك، خير معين لي خلال العطلة... أما الآن فعليك أن تنصرف بكل قواك إلى الدراسة.

ـ لقد فكرت في هذا الأمر يا أبي... ووجدت له حلًا لعله يرضيك.

ـ لا أجد أي حل... وعليك أن توجه اهتمامك كله للمدرسة... لا أريدك أن تصبح صيادًا في أيام تتاح لك فيها فرص أفضل للحياة عن طريق العلم... فاطمئن من جهتي... ولا تفكر في غير الدراسة والمدرسة.

ـ لقد فكرت، يا أبي، إن بوسعي أن أخرج معك إلى البحر أيام الخميس والجمعة... أنت تعلم أن دوامنا في المدرسة يوم الخميس لا يستغرق سوى نصف النهار.

ـ وكيف تكون حالك، يا بني، عندما تعود إلى المدرسة صباح

السبت؟ إنك ستكون متعبًا... وسوف يؤثر ذلك على دراستك.

ـ لا تخش عليّ شيئًا إن شاء الله... وأعدك بأن أظل كما عهدتني... وأحافظ على ترتيبي المتقدم في الفصل.

وتنهد الأب في استسلام، فما كان بوسعه إلا أن يوافق... وهو يعجب كيف لم يخطر الحل الذي أتى به ولده على باله.

وتذكر أن هذه ليست أول مرة يأتيه فيها حسونة بأفكار جديدة لم تكن تخطر له من قبل... ألم يكن عدم الابتعاد عن الميناء كثيرًا هو أحد تلك الأفكار؟... وهل العلم الذي يتلقاها ولده هو الذي يمده بتلك الأفكار؟... هذا جائز... ألم يقولوا إن العلم نور؟... لعل هذا هو التعليل الوحيد لعدم قدرته، وهو الأكبر سنًّا والأكثر تجربة، على أن يأتي بمثل هذه الأفكار.

ومرة أخرى جاءه حسونة بفكرة جديدة.

فقد قال له ذات ليلة وهم يتناولون العشاء:

ـ لم لا نتفق، يا أبي، مع أحد تجار السمك على أن نبيعه ما نصيده بدل أن نبحث عمن يشتريه ونضيع الساعات ونحن نقف بالشناكير في انتظار المشتري؟

وحكّ الرجل رأسه حائرًا، شأنه كلما جاءه ولده بفكرة جديدة، وقال وهو يعيد وضع طاقيته على رأسه بعناية:

ـ حقًا... إنها فكرة موافقة... هناك فعلًا تجار يشترون السمك من الصيادين ولكنهم يدفعون عادة سعرًا أقل.

وردّ الابن على الفور:

ـ إننا نستطيع تعويض فارق السعر بسهولة... بنصف الزمن الذي يستغرقه وقوفنا للبيع يمكننا أن نزيد ما نصطاده.

وأجاب الأب:

ـ لم يخطر ذلك على بالي... سنحاول تنفيذ هذه الفكرة في الأسبوع المقبل بإذن الله.

وأردف بصوت خافت:

ـ صدق من قال... إن العلم نور.

ولم يجد الدخش صعوبة في العثور على الرجل المطلوب، فقد كان «الشيخ صديق» زبونًا ممتازًا تعهّد له بأن يشتري منه صيده بأسعار مناسبة، ووفى بتعهده وفاء كاملًا، بل إنه تعدى ذلك إلى مظاهر عديدة تدل على طيبته ونبله وحسن أخلاقه ومعاملته، فقد راح يقدّم للدخش المال حين يحتاج إليه، الأمر الذي وجد هذا معه أنه قد كفّ ـ لأول مرة ـ عن القلق تجاه مطالب البيت العاجلة، لأن الشيخ صديق كان جاهزًا دومًا لإمداده بما يحتاجه من مال ليسترده بعد أن يفتح الله عليه ويأتيه بصيد جديد.

واشتهر الشيخ صديق بين رجال البحر باستقامته وأمانته وحبّه للخير، فأقبلوا عليه يتعاملون معه ويفضلونه على غيره من التجار.

وكان الشيخ صديق يدرك أن جانبًا من مصادر رزقه مرتبط بهؤلاء الرجال الذين يقضون في البحر أيامهم في أقسى الظروف وأكثرها صعوبة وإرهاقًا، فكان حسن معاملته لهم يدل على تقديره لما يعانونه من مشقة، وما يبذلونه من جهد، فسارت سيرته بينهم مقرونة بالثناء والتقدير، واطمأنوا إلى أنهم يتعاملون مع رجل مستقيم يلتزم حدود الحق.

وهكذا استأنف الدخش حياته التي خفّت قسوتها كثيرًا عن ذي قبل، إذ أتاحت له إنسانية الشيخ صديق أن يحصل على حاجته من المال بصورة منتظمة، كما أتاحت له مشاركة حسونة أن يحصل على صيد وفير بمجهود أقل مما كان يبذل من قبل.

على أن الأمر الذي بدأ يغيب عن ذهن الدخش، كان هو العناء الذي يتحمله حسونة، وهو بعد في تلك السن، لتخفيف العبء عن أبيه.

لم يكن سهلًا على من كان في سن حسونة أن يقضي الساعات الطوال يجذّف تارة، وينتظر الصيد تارة أخرى، والشمس اللاهبة ترسل

أشعتها على جسده الغض، فيسيل العرق على وجهه وصدره من غير انقطاع، أو وهو يحمل الصيد إلى الشاطئ، ومن ثم إلى السوق بتلك السرعة التي يخشى معها أن يتعفن السمك قبل أن يصل إلى الشيخ صديق.

ولكن حسونة كان قد جبل على الصبر منذ نعومة أظفاره.

فهو قد احتمل الجوع حين كان أبوه يعجز عن أن يأتي بما يسد هذا الجوع.

وهو يحتمل حياته القاسية بعد أن أصبح صيادًا، في نفس الوقت الذي يحمل فيه عبء الدراسة والاستذكار.

وكان من شأن طبيعة الصبر هذه أن أمدته بقدرة عجيبة على إخفاء ما به وكتمانه حتى عن أبيه، فكان يبدو أمام الجميع سعيدًا بحياته، ناعمًا بما يبذل من جهد لكي يساعد أباه.

وهكذا كان الابن يعاني بقدر ما يخفف عن أبيه عبء المعاناة.

كان حسونة يحرص على أن يحل مشكلاته بنفسه قدر إمكانه، وأن يخفي عن أبيه أي شيء يزعجه.

وحتى عندما كان سمك القرش يفترس أحيانًا سمكة كان يهم بإخراجها من الماء كان يقهقه ضاحكًا ويقول لأبيه وهو يحاول إخفاء آثار السمكة العالقة بالجلب:

ـ لقد أفلتت السمكة. . . ولعلي أنالها في المرة التالية.

ويعد الجلب من جديد، ويثبّت فيه اللعف، ويلقيه في الماء صابرًا، مانعًا نفسه من الإعراب عن أسفه وحسرته لاعتداء القرش على صيده.

ولكن بعضًا من تلك المعاناة التي يقاسيها حسونة كان أقوى من ذراعيه، لا سيما حين تهب الرياح فتتلاعب بالقارب القديم، ويروح حسونة يبذل جهده لنزح الماء المتسرب، أو لتخفيف حمولة القارب وإلقاء ما فيه في البحر بما في ذلك السمك الذي يكون قد اصطاده.

وأكثر من مرة انقلب الزورق براكبيه، فراح حسونة يجهد كالمجنون لإعادته إلى وضعه الطبيعي وانتشال أبيه من الماء.

كان حسونة يحس بمشاعر البهجة التي تشرق على وجه أبيه عندما يخرج برفقته إلى الصيد أيام العطلة دون أن يعكّر رحلتهما أو ينتقص من صفوها شيء.

وكان يعتبر إن هذه البهجة تفوق في قيمتها كل ما كان يتحمل من نصب وجهد، فكان يسعد لسعادة أبيه، ويراها خير جزاء يحمد الله عليه ويشكره.

لقد قرّب البحر ما بين الأب والابن كما لا يستطيع أي سبب آخر أن يفعل.

كان الأب العجوز يطوي صدره على عشرات، بل مئات، من الذكريات والحكايات التي تجمعت عبر السنوات الطويلة التي عاشها.

وكان ينتهز كل فرصة ليروي لولده شيئًا من تلك الذكريات والحكايات سواء ما مرّ منها به في حياته الشاقة، أو ما يتناقله الصيادون ورجال البحر من أساطير يحلق فيها الخيال، ويمتزج مع الواقع، لتتكون منها في النهاية قصص غاية في الغرابة والإثارة للفضول والاهتمام.

وكان حسونة يصغي إلى تلك الحكايات مبهورًا، فهو ـ بحكم ممارسته الفعلية لحياة البحر ـ يفهم معناها ويدرك مدلولاتها أكثر مما لو كان بعيدًا عن هذا الجو، فكان يختزنها في ذاكرته ـ تمامًا كما يفعل أبوه ـ فمن يدري؟ لعله في يوم من مقبل الأيام يروي هذه الحكايات لأولاده، ليثير في نفوسهم مثلما يثور في نفسه الآن من فضول واهتمام ومتابعة.

ولكن... هل تقف ذكريات حسونة وحكاياته عن البحر عند فترة معينة من حياته؟... أم أنه سيظل طوال عمره صيادًا كأبيه؟

إن أباه قد صارحه أكثر من مرة أنه لا يريد له أن يصبح مثله.

كان يريده أن ينهل من العلم ما يجعله قادرًا على أن يشق طريقه في الحياة نحو وجهة أخرى.

بل إن حسونة ليذكر أن أباه رفض بادئ الأمر أن يسمح له بالعمل معه بعد افتتاح المدارس، لأنه يريد له أن يواصل دراسته ويتفرغ لها.

ولاحظ حسونة، بعد ذلك، أن أباه لم يعد يتحدث كثيرًا عن آماله في ولده ورجائه أن يراه حاملًا أعلى الشهادات.

وشعر حسونة بقلق خفي.

ترى، هل صرف الأب نظره عن حماسته السابقة تجاه دراسة ولده بعد أن لمس بنفسه نتائج مشاركته له في العمل؟

مستحيل ان يفعل أبوه ذلك.

وكان يسترسل في خواطره، قائلًا لنفسه إن السبب في عدم إبداء الأب حماسة لدراسته أنه ليس في حاجة لأن يحثه عليها، فهو ما زال ـ رغم انشغاله وتعبه وإرهاقه ـ يحقق مراتب متقدمة في الدراسة بين زملائه في الفصل، وما زال ـ كما عهده أبوه دائمًا ـ يجدّ في دراسته وكأنه ليس له شاغل سواها، ويجدّ في عمله وكأنه ليس طالبًا ما زال يتلقى العلم في المدرسة.

وكان حسونة يطمئن إلى هذا التعليل، فينعطف بأفكاره نحو وجهة أخرى ناظرًا بعين الخيال إلى المستقبل الذي يرجوه.

الفصل الرابع

كان حسونة يرنو ببصره إلى السماء.

كان يتمنى أن يصبح طيارًا، يحلّق بطائرته في الأعالي، ويجتاز بها سماء البحر الأحمر، كما يفعل الطيارون الذين يرى طائراتهم في ذهابها وإيابها بينما هو في القارب يصطاد مع أبيه.

كان هدير محركات أية طائرة تحلق في سماء جدة أو سماء البحر الأحمر كفيلًا بأن يجعل الدماء تركض في عروقه، فيحلّق مع الطائرة بمثل لمح البصر في سماء الخيال، متصوّرًا نفسه وقد جلس وراء مقعد الطائرة، بدلًا من طيارها، يقودها وهو يلقي على الأرض نظرة، فيرى فتى صغيرًا، مثله تمامًا، يركب قاربًا قديمًا، يصطاد منه وهو يتطلع إلى الطائرة التي يقودها حسونة وهي تشق عباب الجو متجهة إلى مختلف الأنحاء.

ولم تكن لدى حسونة أدنى فكرة عن الطائرة، ولا عن كيفية عمل الطيار وكل ما يعرفه عنها هو شكلها العام الذي يراه من بعيد، ورغبته في أن يقودها دون أن يحاول الدخول في التفاصيل المملة.

لم يكن حسونة يكف عن التفكير في هذا الحلم، محاولًا أن يتخيل نفسه وقد أنهى دراسته والتحق بالعمل كطيار، فهذا هو كل ما يهمه، وهذا هو كل ما يشغل باله كلما خلا إلى نفسه.

ولم يكن حسونة يكتم حلمه هذا عن عائلته وأصدقائه، فهو كثير الحديث عنه، في معرض توكيده على رغبته في الاستمرار في الدراسة، وتحقيق تفوق ملحوظ فيها.

ومع إن عائلته كانت تثق ـ من غير حدود ـ بإمكاناته، وقدرته على مجابهة الصعاب، إلا أن أحدًا ما، حتى أبوه، لم يكن يحمل ذلك على محمل الجد.

والحق أن ثقة حسونة بنفسه كانت أبرز ما يلمسه الآخرون فيه حين يتحدثون إليه، وكان البعض يسمى هذه الثقة غرورًا، وبعضهم يسميها كبرياء، وبعضهم ـ في أحسن الأحوال ـ يسميها اعتدادًا واستقلالية.

وكان حسونة يعرف، ويشعر بتلك الآراء، ولكنه كان يقول بينه وبين نفسه أن الأيام المقبلة كفيلة بأن تقنع من لم يقتنع، بأنه ليس مغرورًا ولا ذا كبرياء فارغة، ولا مبالغًا حين يتحدث عن آماله وأحلامه... فهو يثق بنفسه ويعتبر أن هذه الثقة في النفس هي ـ فعلًا ـ من أسباب النجاح.

وكان يتمتع بقدرة عجيبة على الصبر، ولقد تزايدت هذه القدرة بعد خروجه مع أبيه للعمل، لأنه كان في حاجة إلى هذه الصفة بالذات أكثر من حاجته لأية صفة أخرى، ولقد علّمه البحر الصبر، وعلّمه تحمل الصعاب، وعلّمه قبول التحدي ومواجهته.

وكان يشعر، مع كل يوم يعاني فيه ما يعاني من قسوة الخروج إلى البحر، أنه يزداد قوة وصلابة ومقدرة على مواجهة الصعوبات والعقبات، بل بات وكأنه يستعذبها ويستمتع بها.

ولقد تعلم حسونة من أبيه، دون أن يشعر، عادة غريبة، ولكنها مألوفة جدًا في عالم البحر، وهي عادة التحدث إلى البحر.

كان حسونة قد لاحظ أن أباه يجلس أحيانًا على الشاطئ، مع بدء انحسار الشمس في طريقها إلى الغروب، ويغرق في حالة من التأمل والصمت لا يعرف الرائي معها إليه أنه كان يتحدث، ويتحدث طويلًا.

كان الأب يخاطب البحر في سره، يشكره تارة على ما أعطاه، بعون الله، من جوفه ما يقتاب به هو وعياله.

ويعاتبه، تارة أخرى، لأنه يشحّ عليه في العطاء بعض الأحيان.

ويسترضيه، تارة ثالثة، إذا ما شعر بأنه «غاضب» يدمدم ويزمجر في ثورة من الأمواج المتلاطمة التي تمنع الصيادين من الخروج إليه بقواربهم الهشة.

ولقد أصبح حسونة مثل أبيه.

إنه يجلس الساعات الطوال على شاطئ البحر، يتحدث إليه حديثه الصامت الذي كان يختلف عن أحاديث أبيه.

كان يحدّث البحر، ماء وموجًا وهواء، عن آماله وأحلامه وعما عزم على أن يفعل في مقبل أيامه إذا أعانه الله تعالى وشاء.

وما إن يتناهى إلى سمعه صوت محركات طائرة تشق طريقها من جدة وإليها، حتى يرفع بصره نحوها ويتابعها حتى تغيب عنه، وقد أجلس نفسه مكان قائدها ـ مدري كيف ـ يرتفع بها في الأجواء، أو ينخفض بها إلى الأرض، وجسمها الضخم كله رهن إشارته... أو هذا ما كان يظن.

❋ ❋ ❋

وذات يوم جاء الأب وهو يحمل نبأ هامًا.

إن الشيخ صديق ـ قال الأب بفرح واعتزاز ـ قد طلب إليه أن يأخذ بناته في جولة عبر البحر، وإنه قد اختاره لهذه المهمة من بين الصيادين جميعًا، لأن ذلك ـ كما ذكر له ـ ادعى إلى الاطمئنان.

وعجب حسونة لاهتمام أبيه بتلبية رغبة الشيخ صديق هذه، رغم ما قاله الأب من أنه يعتبر هذا الطلب فرصة يقدم بها خدمة للشيخ صديق، ويرد له بعض أفضاله عليه.

وقال الأب وقد بدت على وجهه معالم تفكير عميق زادت من استغراب حسونة:

ـ المشكلة أن قاربي صغير وقديم... وبنات الشيخ، على ما فهمت، كثر... وعليّ أن أجد قاربًا أكبر.

ولم يعلّق حسونة بشيء على كلام أبيه، فهو مع اعترافه بحسن معاملة الشيخ صديق، كان يرى أن العلاقة بينه وبينهم هي علاقة عمل يؤدي كل من طرفيها نصيبه فيها من المسؤولية، فلا حاجة، إذن، إلى المبالغة في الاهتمام بإيجاد قارب أكبر يتسع لنبات الشيخ صديق في جولتهن المزمعة.

وتهلل وجه الأب فجأة وهو يقول بجذل:

ـ آه... وجدت الحل... هناك قارب زميلنا «العود»... إنه متوسط الحجم... وهو لا شك أفضل من قاربي لأداء المطلوب.

ولاحظ الأب أن حسونة لم يعلّق على هذا الرأي بشيء فسأله باستغراب:

ـ إيش رأيك يا حسونة؟

ورد حسونة بهدوء:

ـ في إيش؟

ـ فيما قلته... عن مركب الأخ العود... إنه أفضل من قاربنا... أليست فكرة موفقة؟

وتمهل حسونة بعض الوقت قبل أن يجيب بنفس الهدوء:

ـ عفوك يا أبي... فإنك قد أدهشتني باهتمامك الكبير بهذا الأمر... وأنا أعتقد أن على الإنسان أن يقدّم خدماته في حدود إمكاناته... ولا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها... أليس كذلك؟... فما دام قاربنا صغيرًا... وغير مناسب... فلا داعي أن نأخذ قاربًا من أحد الناس... والله وحده يعلم ما يمكن أن يحدث له... ثم إن بإمكان الشيخ صديق أن يكلف شخصًا آخر قاربه يتسع لبناته.

وحدّق الأب في ولده بدهشة... فما توقع منه أن ينظر إلى الأمر من تلك الزاوية قط، بل كان يحسب أن حسونة سوف يتحمس، مثله، لهذه اللفتة التي بدرت من الشيخ صديق إذ اختاره دون جميع الصيادين لاصطحاب بناته في نزهة بحرية.

وقال الأب بلهجة بدا فيها كثير من خيبة الأمل:

ـ أنت ما تبطّل العنطزة دي ابدًا؟... على إيش رافع مناخيرك في السما؟

وابتسم حسونة وهو يجيب بلطف:

ـ لأنني أعرف نفسي... والوالدة علّمتنا... مدّ رجلك على قد فراشك... وأنت كذلك.

وبدا على الأب أنه لم يفهم ما قصده ابنه من جوابه، ولكنه لم يكترث لذلك كثيرًا... فقد كان اهتداؤه إلى حل للمشكلة قد أسعده، ورسم معالم الارتياح والغبطة على وجهه، فما تزعجه تلك الملاحظة السلبية من ولده.

وقال الأب بصوت مسموع وكأنه يخاطب نفسه:

ـ يا ترى يرضى العود يعيرنا مركبه؟

وبدا وكأن فكرة عدم موافقة العود إلى إعارة المركب قد أقلقته فهبّ واقفًا وهو يقول:

ـ الأحسن أن أسأله دحين... أعود بعد قليل.

وخرج الأب غير متلكئ، وحسونة يبدي، بينه وبين نفسه، دهشته لهذا الاهتمام العظيم الذي أبداه أبوه تجاه مسألة بسيطة كمثل هذه المسألة... فهو لا يرى داعيًا لكل هذا... ولكن أباه رجل يحب الناس... ويحب أن يساعد ولو بجهد يسير بما يستطيع... ولذا كانت تلك السعادة الغامرة التي انتابته عندما طلب منه الشيخ صديق تلك الخدمة، ومن ثم ذلك الأمل في أن يوافق العود على إعارته قاربه.

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة، حتى عاد الأب منفرج الأسارير، وقد تهلل وجهه بفرحة الظفر.

وأعلن النبأ فور دخوله:

ـ خلاص... الأخ العود وافق على أن يعيرني مركبه.

وعمت الفرحة المسكن، رغم أن أحدًا غير حسونة لم يكن يعرف مغزى موافقة العود على إعارة مركبه، ولكن ما دام سيد الأسرة قد قال أنه نبأ مفرح فهو ـ إذن ـ كذلك بصرف النظر عن أية تفاصيل أخرى.

ومضى الأب يتحدث ونشوة الظفر تغشى كل كلمة من كلماته:

ـ جزاه الله خيرًا... أخونا العود... لم يتردد لحظة واحدة في الموافقة عندما أنهيت إليه غايتي... وأخبرته أنني إنما أستعير مركبه من أجل بنات الشيخ صديق الصغيرات... بارك الله فيه... لقد أبدى استعداده للخروج معي لمساعدتي، ولكنني شكرته قائلًا أن ولدي حسونة فيه البركة.

وتلاعبت ابتسامة خفيفة على شفتي حسونة وهو يتهيأ للجواب الذي ارتسم على وجهه قبل أن ينطق به عندما نظر إليه أبوه وهو يقول الجملة الأخيرة من كلامه.

وقال حسونة بلهجة متأنية لا يبدو فيها أنه يشارك أباه فرحته ونشوته:

ـ سوف أبذل كل جهدي يا أبي فاطمئن... وأرجو أن نوفق في إدخال السعادة على نفوس بنات الشيخ صديق.

وزفر الأب زفرة دلت على ضيقه بكبرياء ولده، ولكنه لم يعلّق بشيء.

وفي اليوم التالي خرج الدخش وولده مبكرين إلى الشاطئ حيث استلما من العود مركبه وأخذا يهيئانه للرحلة في انتظار قدوم الشيخ صديق وبناته.

وراح حسونة يجمع «اللعف» وهو خالي الذهن من أي شيء، فهو يعتبر خروجه هذا إلى البحر مثل خروجه في المرات السابقة، أي كواجب عليه تجاه أبيه بصرف النظر عن أي اعتبار آخر... وألقى

نظرة على أبيه وهو منهمك، من جهته، في الاستعداد فترك ما بين يديه واتجه نحو أبيه ليقول له في خجل:

ـ أبي... أريد أن أقول لك شيئًا.

ورفع الأب إليه نظره متسائلًا، فقال:

ـ إنني آسف... وأعتذر... عما قلته الليلة البارحة.

وابتسم الأب في عطف وهو يجيب مستأنفًا عمله:

ـ لا عليك... لا عليك يا ولدي.

الفصل الخامس

في الموعد المحدد جاء الشيخ صديق ببناته الصغيرات.

وألقى حسونة من مكانه نظرة على القادمات اللائي ارتفعت ضحكاتهن الطفولية منذ أن اقتربن من المركب، وكانت معالم الرفاهية والأناقة بادية عليهن.

وتبادل الدخش وصديق التحية من بعيد، وسارع الصياد يرحب بالشيخ ويدعوه إلى مشاركتهم الرحلة، ولكن الشيخ اعتذر قائلًا أنه مرتبط بالتزامات هامة وأنه يترك بناته في رعاية الدخش من بعد رعاية الله.

وخفّ الدخش بنشاط إلى الشاطئ ـ سائرًا على قطعة عريضة من الخشب كان قد أقامها ما بين الشاطئ والمركب لكي تعبر البنات عليها ـ وأخذ يحمل ضيفاته الصغيرات واحدة بعد الأخرى لينقلهن إلى المركب، حتى إذا بقيت كبراهن ـ واسمها «عزة» ـ تردد، فقد كانت على صغر سنها فارعة العود، بادية الجمال، ظاهرة الكبرياء.

ومد إليها يده لتستند عليها، وساعدها على الانتقال إلى المركب عبر قطعة الخشب المقامة لهذه الغاية.

ووقفت عزة تجيل بصرها في أرجاء المركب وعلى وجهها معالم الضيق والتأفف، وبعد أن استكملت عيناها جولتهما اتجهت بهما إلى الدخش وقالت بشيء من الاستخفاف:

ـ هيّ دي المركب اللي قال أبويا عنها؟

وشعر الدخش بصدمة، فقد كان مركب زميله العود أجمل مراكب

الصيادين على الإطلاق وقد عني صاحبه بنظافته وطلائه وزينته.

وقفز ذهن الدخش في الحال إلى قاربه المتداعي، وتساءل في سره عما كانت الفتاة ستقوله لو أنه دعاها لركبوه بدلًا من مركب العود.

وقال بشيء من الارتباك:

ـ هذي يا بنتي أفضل مركب على الشاطئ كله... وأنا استعرتها مخصوص علشانك وعلشان أخواتك.

ولم تجب الفتاة بشيء، بل دلفت إلى داخل المركب بحذر وكأنها تخشى أن تتسخ قدماها من أرضيته.

وكان حسونة قد توقف عما كان فيه من تجميع اللعف عندما سمع الكلام الذي دار بين الفتاة وأبيه، وشعر بالغيظ يجتاحه إذ سمع كلام الفتاة المترفة، وكاد أن يرد عليها بخشونة طالبًا إليها أن تغادر المركب إذا كان لم يعجبها، ولكنه تمالك نفسه بحكم ما جبل عليه من قدرة على التحكم بأعصابه، وحوّل نظره إلى أبيه الذي بدا عليه الارتباك والخجل، فقرر أن يملك نفسه، وأن يكتم ما بها مهما بدر من الفتاة، إكرامًا لأبيه الذي كان يعتبر هذه الخدمة التي يؤديها للشيخ صديق حدثًا هامًا أولاه كل اهتمامه، وحرص على استكمال استعدادته له منذ أن طلب إليه الشيخ صديق أن يقوم به.

وانتبه حسونة من خواطره على صوت أبيه وهو يطلب إليه أن يساعده في رفع المرساة وتوجيه الشراع، والانطلاق بالمركب إلى عرض البحر، فلبي ما طلبه منه أبوه في سرعة ونشاط، وما هو إلا بعض الوقت حتى كان المركب في طريقه، فارتفعت صيحات الصغيرات في حبور وابتهاج، وأخذن ينظرن إلى الرذاذ الكثيف المتطاير على جانبي المركب في سعادة، وبدا للدخش، مع كثير من الارتياح، أن الرحلة قد بدأت بداية موفقة رغم ما كان يشعر به من غضاضة بسبب التعليق الذي بدا من كبرى بنات الشيخ صديق.

وكان الدخش قد قدّر أن بنات الشيخ سوف يطالبن ممارسة

الصيد بأنفسهن، بل لقد عوّل على أن يعلمهن إياه، وأن يشعرهن بمتعة رفع الجلب وفي نهايته سمكة تختلج، فأعد ما يلزم لذلك ومضى يعلمهن، وكلًا على حدة، كيفية إلقاء الجلب والانتظار وهو يوجه التعليمات والملاحظات وكأنه مدرب في مدرسة بحرية.

ويبدو أن «اللعبة» قد راقت لابنة الشيخ صديق الكبرى بصورة استغرقت اهتمامها كله، فكانت تلقى الجلب إلى البحر ثم تنحني على الماء باهتمام شديد وكأنها تريد أن ترى السمكة وهي تلتهم الطعم ثم تعجز عن الفرار، ثم لا تلبث أن ترتفع في الهواء وهي تنتفض لتصبح صيدًا يدخل المتعة على صاحبه.

وكانت عزة تتلهف على أن تصطاد شيئًا، وهي تحسب أن الصيد يأتي بمجرد إلقاء الجلب في الماء، وكانت تنظر بغيظ إلى أخواتها إذا رأت أن إحداهن قد اصطادت سمكة ورأت إحدى أخواتها قد اصطادت أكبر منها ضربت أرضية المركب في غيظ وحنق:

ورأى الدخش أن عزة في حاجة إلى عناية خاصة، فصاح بولده الذي كان في أقصى المركب عند الدفة:

ـ تعال يا حسونة يا ولدي... ساعد عمتك عزة.

وتجهم وجه حسونة، إذ سمع عبارة أبيه، فسار في تمهل إلى حيث وقف الأب وهمس في أذنه قائلًا:

ـ أرجوك يا أبي... لا تحرجني... هذه البنت ليست عمتي... إنني على استعداد لأن أساعدها ولكن أرجوك... لا تقل أنها عمتي.

وحدّق الأب في وجه ولده بدهشة، فقد استغرب أن يقيم حسونة أهمية لهذا الأمر، وأن يستنكر في أدب وهدوء أن يصف أبوه بنت الشيخ صديق بأنها «عمته».

وانفرجت أسارير الأب في ابتسامة عريضة، وربت على كتف ولده ملاطفًا وقال:

ـ خلاص يا حسونة... لن أقول تلك الكلمة مرة أخرى... والمهم أن تساعد «البنت» وترعاها.

وأومأ حسونة لأبيه موافقًا، واقترب من عزة، وراح يوجهها إلى الطريقة السليمة للصيد، والفتاة تبدي سعادة فائقة بتنفيذ تعليماته.

وبينما هو مستغرق في ذلك، أتاه صوت أبيه وهو يناديه من مقدمة المركب:

ـ هه... كيف سوّت عمتك عزة؟... هل استطاعت إتقان العمل؟

وشعر حسونة بالغيظ، حتى اضطرم وجهه بحمرة قانية، ورمق أباه من بعيد بنظرة مستعطفة يرجوه فيها أن يكفّ عن اعتبار الفتاة «عمته» لا سيما وأنه كان قد وعده بذلك فعلًا، ولكن الأب وهو في غمرة انهماكه بضيوفه الصغار لم ينتبه إلى أنه قد خالف ما كان قد وعد به.

ونظرت إليه الفتاة نظرة تأنيب وهي تقول في تأفف:

ـ إيش هذا؟... صار لي دقائق وأنا أنتظر أن أصطاد سمكة... وما زلت أنتظر.

وصوّب إليها حسونة نظرة حادة وقال بلهجة قاسية:

ـ الصيد يبغاله صبر... واللي ما يصبر ما يقدر يصطاد شي.

وقالت الفتاة بنفس اللهجة المتعالية:

ـ الأحسن أنك ما تضيع الوقت بالكلام... وتجيب لي خيط تاني علشان أصطاد أكثر.

وعض حسونة على شفته السفلى في قهر، وكاد أن يلقي إليها بجواب لاذع يعبّر لها به عن رأيه فيها، ولكنه تمالك نفسه وقدّر أن انزعاج الفتاة سوف يكون سببًا في انزعاج أبيه، وما كان له أن يتسبب في ذلك مهما كانت الظروف وهو يعلم أن أباه يولي هذه الرحلة كل اهتمامه.

وتنهد في غيظ مكظوم، ومضى يعد للفتاة ما طلبت وهو صامت.

وفجأة صاحت الفتاة بسرور، فقد اهتز الخيط مما دل على أن سمكة قد علقت به، فهرع حسونة إليها يساعدها، وما إن ارتفعت السمكة في الهواء حتى قالت الفتاة في سخط:

ـ إيش هذا؟... سمكة صغيرة؟... أنا أبغى سمكة كبيرة، سمكة كبيرة مرّة.

وعاد الغيظ يجتاح حسونة، وهم بأن يوجه إليها جوابًا قاسيًا يقول لها فيه إن السمك ليس رهن إشارتها، وإن كونها ابنة الشيخ صديق لا يخوّلها حق اختيار نوعية السمك الذي تصطاده، وإن الصيد هو قسمة ونصيب، ولا خيار لأمهر صياد في العالم به.

ولكن قدرته الفائقة على التصابر، جعلته يطوي جوابه هذا بين ضلوعها ويبارد إلى مساعدتها دون أن ينبس ببنت شفة.

وهكذا انقضى الوقت.

الدخش يحاول جهده لرعاية بنات الشيخ صديق، وإدخال البهجة والمتعة على نفوسهن وحسونة يبذل جهده لإرضاء عزة على حساب أعصابه، فيكتم غيظه مما يرى من مظاهر اعتيادها إلقاء الكلام على عواهنه ولو تسبب في أيلام الآخرين، والرغبة في أن تتحقق مطالبها كلها حتى ولو كان نوعًا معينًا من السمك تريد أن تصطاده أو ضرورة أن يسارع السمك إلى التهام اللعف الذي تلقيه إليه فور وصوله إلى الماء.

وقال حسونة في نفسه والغيظ يتأكله:

ـ هذه فتاة اعتادت على أن تأمر فتطاع... وأن تجد الجميع رهن إشارتها.. يلبون طلباتها... ويستجيبون لنزواتها.

وما أكثر ما نازعته نفسه لأن يطرح قدرته على الصبر جانبًا، وأن يلقنها درسًا يجعلها تنتبه إلى نفسها، وتعرف أن طريقتها هذه ليست هي الطريقة المناسبة للتعامل مع الناس، ولكن نظرة منه إلى أبيه وهو يوجه اهتمامه لإنجاح الرحلة، وإدخال السعادة على نفوس بنات الشيخ صديق، تجعله يتراجع عما خطر له، ويتحمل كل ما بدا له من الفتاة من تصرفات تتسم بالكبرياء والاستخفاف بالآخرين.

وأخيرًا، آذنت الرحلة بالانتهاء، فأدار الدخش مقدمة المركب نحو الشاطئ وهو يشعر بسعادة عميقة، فقد كانت الرحلة ناجحة إلى أقصى الحدود، وازدادت سعادته وهو يسمع ضحكات الصغيرات وصياحهن ومرحهن، وهذا هو كل ما يهمه، لأن إرضاء الشيخ صديق وتلبية رغبته في الخروج ببناته في هذه الرحلة كان هو الغاية، ومن فضل الله تعالى إن هذه المهمة قد تحققت على أتم ما ينبغي.

وكانت حرارة الشكر الذي أزجاه الشيخ صديق للدخش خير جزاء ـ في نظره ـ على ما لقي من عناء في ترتيب الرحلة والقيام بها.

وأعرب الدخش عن انطباعاته هذه عندما عاد وولده إلى البيت، وعبّر عن رضاه البالغ عما تحقق هذا اليوم من نتائج أرضت الشيخ صديق، ولم ينس أن ينوه، وهو يضحك، عن ضيق حسونة بوصفه كبرى بنات الشيخ صديق إنها «عمته».

وابتسم حسونة ابتاسمة مغتصبة، ولم يحاول أن يشرح وجهة نظره التي تتفق مع ما يشعر به من اعتزاز بنفسه، وثقة بإمكاناته، وما مسّت تصرفات الفتاة ـ اللامسئولة حسب رأيه ـ من تلك الثقة وذلك الاعتزاز.

كان حسونة يشعر بألم الجرح الذي أحدثته تلك الفتاة ـ التي دعاها «الدلوعة» بينه وبين نفسه ـ في كبريائه وكرامته.

كان الغيظ يفترس كل ذرة من كيانه، إذ لم يعبر للفتاة عن رأيه فيها ولم يؤنبها على تصرفاتها الصبيانية الرعناء.

ولكن استرسال الأب في الإشادة بالشيخ صديق وبناته، وتركيزه على ما تتصف به عزة من جمال جعلا حسونة يعلّق، دون انتباه منه، على كلمات أبيه قائلًا:

ـ أخشى أن أكون مخالفًا لرأيك يا أبي... فالفتاة في حاجة إلى من يشدّ لها أذنها... أو يوجه لها صفعة كي تعود إلى صوابها وتعرف أن للناس كراماتهم ومشاعرهم وكبرياءهم.

وضحك الدخش وهو يفسر الأمر كما يراه هو:

ـ إنك تبالغ كثيرًا يا حسونة... ولا يجمل بك أن تقيم وزنًا لتصرفات طفلة مثلها... نحن من جهتنا كنا نؤدي واجبًا تجاه الشيخ صديق الذي طلب إلينا أن نأخذ بناته في رحلة بحرية... وقد نجحنا في ذلك ولله الحمد... وهذا يكفي.

وهتف حسونة على الفور:

ـ طفلة؟... أحسب أن الخطّاب قد بدأوا في التوافد على أبيها.

وقهقه الدخش بسرور وأجاب:

ـ جائز... ولكنها ما زلت طفلة على أية حال.

وقال حسونة:

ـ أعتقد أنها لا تصغرني بأكثر من عام أو عامين.

وأمّن الأب على كلامه:

ـ أعتقد ذلك.

واعتصم حسونة بالصمت، فلقد كان عسيرًا عليه أن يشرح لأبيه وجهة نظره، وأن يعرب له عن أحاسيسه، لا سيما وأنه كان حريصًا على ألا يعكّر صفو نشوته بما اعتبره إنجازًا هامًا في علاقته بالشيخ صديق.

* * *

ولأول مرة عرف حسونة السهاد.

كان يشعر بالتعب يهد جسمه هدًّا، مع أن المجهود الذي بذله في يومه هذا هو أقل من المجهود الذي اعتاد أن يبذله في رحلات الصيد.

وراح يستعرض أحداث يومه لحظة بلحظة.

كان طيف الفتاة يلوح له فيمنعه من الرقاد.

وكانت تصرفاتها وكلماتها تتردد في خياله واحدة واحدة.

كان غاضبًا... متألمًا وهو يتذكر تصرفاتها المتعجرفة.

كان يشعر بالقهر لأنه لم ـ ولا ـ يستطيع أن ينفّس عن غضبه، وأن يعبر للفتاة عن ضيقه من مسلكها «السخيف» وأن يبين لها أنه لا يقل عنها كبرياء وثقة بنفسه.

ولكن شعوره بالمسؤولية، ومراعاته لخواطر الآخرين، يحولان بينه وبين أن يؤذي الناس كما فعلت هي.

كما أن حرصه على عدم التسبب في أي إزعاج لأبيه كان سببًا آخر فيما التزمه، هذا النهار، من تمسك بالصبر، واعتصام بالهدوء الذي يخفي وراءه عواصف من الغضب.

وما يدري حسونة كيف تسلل النعاس إلى أجفانه... ولا متى نام... ولكنه لاحظ أنه قد استيقظ نشطًا، وقد زال عنه كل أثر لتعب الأمس.

وإذا خطرت له عزة ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فقد بدا له أن كل ما حدث لا يستحق منه أي اهتمام، وأنه قد بالغ في السماح لمشاعر الغضب والضيق أن تسيطر عليه وتؤرق ليلته.

وحمل كتبه وتوجه إلى مدرسته وقد طويت ـ في اعتقاده ـ صفحة ما حدث بالأمس بكل ما فيها من أسباب الغيظ والغضب و.. الأرق.

الفصل السادس

نسي حسونة، خلال الأيام التالية، كل ما يتعلق بتلك الرحلة البحرية التي قام بها تكريمًا لبنات الشيخ صديق. . . وما كان فيها من منغصات عانى منها حسونة، وحده، بسبب تلك الفتاة المتعجرفة التي أثارت غيظه وغضبه.

وسارت الحياة في بيت حامد الدخش كما كانت تسير من قبل.

حسونة في مدرسته يواصل دراسته ويخرج مع أبيه إلى البحر في العطل، وقد أصبحت الحياة أكثر سهولة على الصياد العجوز سواء بسبب مشاركة حسونة له في عمله، أو بسبب الأفكار التي جاءه بها ولده للحصول على أكبر صيد ممكن في أقصر وقت ممكن وبأقل مجهود، أو بسبب ما كان الشيخ صديق يمده به من المال في أوقات الحاجة، بحيث لم يعد تأمين اللقمة يسحق الدخش، جسديًا ونفسيًا، كما كان يحدث من قبل.

وكان يمكن أن تستمر الحياة في بيت الدخش على وتيرتها تلك، وأن تظل صورة مكررة لكل ما يحدث في بيوت الصيادين على شواطئ جدة القريبة من الميناء، لولا أن الأب عاد ذات يوم متهلل الوجه، مستبشر الطلعة، ليعلن لأهل بيته:

ـ الشيخ صديق يريد أن أخرج ببناته في رحلة بحرية أخرى.

وكانت رنّة السرور والانتصار تبدو بوضوح في كلماته وكأنه يزفّ إلى العائلة نبأ عظيمًا.

ورفع حسونة وجهه عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه وهو جالس

في ركن من الغرفة، وقد شعر بأصابع فولاذية تعتصر قلبه.

وقال في هدوء:

ـ وهل هذا ضروري يا أبي؟

ودهش الأب وسأل ولده باستغراب:

ـ ماذا تظن أنت يا ولدي؟

فأرخى حسونة عينيه وثبتهما في الكتاب وهو يقول وكأنه يحدث نفسه:

ـ هو أحنا فاضيين، نجري ورا لقمة عيشنا وألا نضيع وقتنا في تسلية بنات الشيخ صديق؟

ولمعت عينا الأب في فهم لما يعنيه الابن، فقد تذكر ما كان من ضيق حسونة بتلك الرحلة التي قاما بها، أول مرة، لتسلية بنات الشيخ صديق، وما كان من تعليقه عليها بعد نهايتها.

وابتسم الأب في عطف، وقال لولده في صوت جهد أن يكون طبيعيًا:

ـ لا عليك يا ولدي... إذا كنت لا تريد الخروج فلا بأس.

وأجاب حسونة:

ـ إنني طوع أمرك يا أبي... ولكنني كنت أقول... أعني كنت أفكر أننا قد لا نستطيع العثور على مركب مناسب كما حدث في المرة الأولى... وقاربنا كما تعلم.

وقاطعه أبوه في الحال:

ـ من جهة المركب تستطيع أن تطمئن... فلقد رضي الأخ العود بأن يعيرني مركبه مرة أخرى... بل إنه عرض عليّ أن يرافقني في الرحلة... إنه رجل طيّب.

وصمت حسونة، وعاد يلقي بنظراته على الكتاب الذي بين يديه وقد حلّقت أفكاره في آفاق بعيدة.

لقد عادت تفاصيل الرحلة الأولى إلى ذهنه دفعة واحدة وتخيل

كبرى بنات الشيخ صديق وهي تتصرف وتتحدث بطريقتها المترفعة التي أثارت غضبه وغيظه.

ولقد خشي حسونة ألا يتمكن في المرة التالية، من السيطرة على أعصابه تجاه تلك الفتاة إذا ما تصرفت كما فعلت في المرة الأولى.

خشي أن يقول شيئًا يحاول معه أن يعبّر للفتاة عن رأيه فيها، أو أن يفعل شيئًا خارجًا عن إرادته... أن يصفعها مثلًا... فيما لو حاولت أن تعيد ما قالت وما فعلت من قبل.

إنه لا يهتم لما سيكون من نتيجة لذلك، لأن كرامته وكبرياءه أغلى عنده من كل شيء... ولكن ما يهمه هو ما يكون من ردة الفعل لدى أبيه، فإن ذلك سيحزنه، وربما يغضبه، وحسونة لا يطيق أن يكون سببًا في إيلام أبيه أو إزعاجه مهما كانت الظروف.

ثم إن عدم الخروج مع أبيه يعتبر تخلفًا عن أداء واجب تجاه الأب، وهو أمر لا يرضاه حسونة أيضًا.

ورفع حسونة بصره إلى أبيه، والتقت عيناه بعينيه، فقرأ حسونة في عيني أبيه عطفًا عميقًا وحبًا بغير حدود.

وقبل أن يفتح فمه ليتكلم قال له بلطف:

ـ كما قلت لك يا ولدي... لا عليك بشأن الخروج معي هذه المرة... المهم هو أن تنصرف إلى دراستك... سيساعدني الأخ العود... فلا تزعج نفسك بشيء.

ولكن حسونة ردّ بسرعة:

لا تخش شيئًا يا أبي... سأكون معك... وسأفعل كل ما بوسعي لراحة بنات الشيخ صديق... لقد أبديت لك رأيًا فقط... وأمرك لي على الرأس والعين والله يعلم مقدار سعادتي بالعمل إلى جانبك.

ـ ولكن.

ـ أرجوك يا أبي.

وأقبل حسونة على يدي والده يقبلهما بحرارة، كأنما يريد بذلك أن يثبت له أنه راغب حقًا في مرافقته وأنه غير منزعج من شيء.

ولم يسع الأب، إزاء ذلك، إلا أن يوافق وهو يدعو لولده بالتوفيق.

❋ ❋ ❋

وبدأ كل شيء طبيعيًا... تمامًا مثل الرحلة السابقة.

جاءت بنات الشيخ صديق وصياحهن يتصاعد في مرح محبب وهن يقتربن من الشاطئ.

وراح الدخش يحمل الصغيرات واحدة بعد الأخرى إلى مركب العود وحسونة يتناولهن منه إلى أن جاء الدور على عزة، وأحس الدخش بالحرج وهو يتناول يدها ويعينها على ارتقاء قطعة الخشب العريضة التي أقامها ما بين الشاطي والمركب.

وصاح الدخش بحسونة أن يساعد الفتاة بعد أن باتت أقرب إلى سطح المركب، فمدّ حسونة كلتا يديه، وتناول بهما يدي عزة اللتين أفلتتا من يدي الأب لتستقرا في يدي الابن.

كانت اليدان ناعمتين، تعبّران عن الترف الذي تعيشه صاحبتهما، ويقينًا أنها لم تتجشم يومًا عناء الغسيل، ولا ساهمتا في تنظيف الأواني والأرض كما تفعل اختاه... إن هاتين اليدين اللينتين لتفسران سر الكبرياء التي اعتادت عزة أن تعامل الآخرين بها، فهما يدان لا تعرفان، ولا تعرف صاحبتهما، المسؤولية، وإنما خلقتا، للتمتع بمسرات الحياة.

ومضت هذه الأفكار كالبرق في ذهن حسونة وهو يساعد الفتاة على الوصول إلى سطح المركب، وكان وجهه هادئًا، يقبل على ما كلّفه به أبوه بجدية دون أن ينم عما يعتمل في داخله من عواصف الأفكار.

وقفزت عزة إلى المركب برشاقة وهي تقول لحسونة بصوت خافت رقيق:

ـ شكرًا لك... يا حسونة.

ورد حسونة على الفور.

ـ يا مرحبًا بك.

وكان صادقًا في ترحيبه بها، لا لشيء إلا لأنها كانت هذه المرة أكثر هدوءًا واتزانًا وتلاشى من تصرفها ذلك الأسلوب المترفع في الحديث والحركة، وبدت كما هي: فتاة صغيرة السن، تتصرف بشكل طبيعي، وتنظر إلى الآخرين نظرة عادية.

وشعر حسونة بالارتياح، لأن بداية الرحلة أوحت بأن من المحتمل أن تسير على ما يرام، وأن تخلو من المنغصات التي أزعجته في المرة السابقة، وبذلك تكون الرحلة حدثًا عاديًا مثل أية رحلة صيد قام بها مع أبيه... بلا مزعجات... وبلا سبب من أسباب الإرهاق النفسي.

والواقع أن عزة تغيرت فعلًا عما كانت عليه في المرة السابقة، فقد كانت تخاطب حسونة بلطف وبشيء من الاهتمام، وحتى عندما بدأت تلقي بالجلب إلى الماء، بمساعدة حسونة، كانت تبدو أكثر هدوءًا عما كانت عليه في الرحلة السابقة، سواء خرجت بسمكة صغيرة، أو مضى وقت طويل دون أن تصطاد شيئًا.

وهكذا سارت الرحلة دون أن يحدث فيها ما يزعم حسونة، مما كان يتوقعه ويتخوف منه، وزاد في ارتياحه أن أباه لم يشر قط إلى عزة بصفتها «عمته»... بل إنه كان منهمكًا في مساعدة أخوات عزة وأصوات مرحهن تتردد في المركب.

وفيما كانت عزة تجلس صابرة وقد تدلى الجلب في الماء، منتظرة دون تأفف أو تذمر، قالت مخاطبة حسونة دون أن تلتفت إليه:

ـ حسونة... هل تحب البحر؟

وفوجئ حسونة بالسؤال، وتداعت إلى ذهنه كل أفكاره وأحلامه حول أن يصبح طيارًا دون أن يتعارض ذلك مع ما يشعر به من حب عميق للبحر، تعلّمه من أبيه وزاد عليه من مشاعره الفتية الخاصة شيئًا كثيرًا.

مزينة

والتفتت إليه عزة في نظرة استغراب وهي تتساءل:

ـ هه... ليس ما ترد؟

فقال حسونة بشيء من الارتباك:

ـ لا أظن أن أحدًا يمكن ألا يحب البحر... ولكن...

ـ ولكن إيش؟

ـ إنني... إنني أحبه كشيء عايشته منذ أن وعيت على الدنيا... ثم ازددت محبة له عندما صرت أخرج إليه كـ... كصياد... ولكنني لا أتوقع أن أظل على صلتي به متى أنهيت دراستي.

وأشرق وجه الفتاة في اهتمام واضح وهي تسأله:

ـ إيش تبغي تسوّي لما تخلص دراستك؟

ووجه حسونة بصره نحو البحر وهو ينظر في فضائه اللانهائي وتكلم وكأنه يخاطب نفسه ويوجه الحديث إليها لا إلى عزة التي كانت تصغي إليه باهتمام وانبهار، وكأن حسونة قد حقق أحلامه فعلًا، وأنهى دراسته، وأصبح طيارًا يسبح بطائرته في أجواء البحر ذهابًا وإيابًا كل يوم.

وكان مما ارتاح له حسونة أن الفتاة كانت تصغي إليه بكل جوارحها، وإنها «تصدّق» كل ما يقوله لها، وكانت الأسئلة التي تقاطعه بها بين جملة وأخرى تتضمن استفسارًا عن شيء لم تفهمه، وكأن حسونة يحدثها عن شيء طبيعي وبديهي وليس عن أحلام فتوّة مجنحة لا يدري إلا الله تعالى إن كان سيكتب لها أن تتحقق أم لا.

وطال الحديث بين الاثنين وتشعب، وقد سهت عزة تمامًا عن الصيد، وكأنها ما جاءت إلا لتتحدث إلى حسونة ولتسمع منه الكلمات وهي تتدفق بحرارة وصدق واقتناع.

وانتقل حسونة إلى الحديث عن البحر، وراح يروي لها ما سمعه من أبيه وزملائه الصيادين من أحاديث وأقاصيص وأساطير، هي ـ في الأغلب ـ من نسج الخيال ولكن تناقلها من لسان إلى لسان

كان يضيف إلى وقائعها أشياء جديدة وتفاصيل أخرى، تجعل السامع يحار بين أن يأخذ بها كحقائق، أو يعتبرها ضربًا من الخيال الخصب ليس غير.

وحانت من حسونة التفاتة، ففوجئ بأخوات عزة وقد جلسن خلفهما على أرضية المركب صامتات يصغين إلى حديثه بمثل الاهتمام الذي كانت عزة تبديه.

وشعر الفتى بالخجل، وتوقف عن الحديث، ولكن صيحات الصغيرات تصاعدت من حوله تطالبه بالمزيد، وبحث حسونة عن أبيه بعينيه وكأنه يستنجد به فوجده جالسًا إلى الدفة يوجهها وهو ينظر إليهم من مكانه في رضى وسعادة.

ولم يجد حسونة بدًّا من الاستسلام، واستأنف الحديث وهو يوجه اهتمامه إلى الصغيرات جميعًا دون أن ينتبه إلى أن عزة كانت أكثرهن إصغاء واهتمامًا ومتابعة لكل كلمة من كلماته.

* * *

ـ الحمد لله... ثم الحمد لله... لقد كانت هذه النزهة بفضل الله أفضل بكثير من المرة السابقة.

هكذا أوجز الدخش نتائج الرحلة الثانية التي قام بها مع بنات الشيخ صديق تلبية لرغبة صديقه العزيز.

وأضاف الدخش مخاطبًا زوجته:

ـ يا ريتك شفتي حسونة وهو جالس يتكلم مع بنات الشيخ صديق وكأنه بحار عجوز قضى على صفحة البحر ألف عام.

وضحك الجميع، وكان حسونة بين الضاحكين، فهو لا يشعر هذه المرة بالمرارة والسخط اللذين أسفرت عنهما الرحلة الأولى، وبالتالي فهو يعتبر أن رحلة اليوم كانت موفقة من كل الوجوه، إذ خلت مما كان يتوقعه ويتخوف منه من المنغصات.

وطلب إليه أبوه أن يحدثهم عما كان عليه يومه، وعن سرّ

استغراقه وعزة في ذلك الحديث الطويل الذي اجتذب إليه أخواتها فجعلهن يصغين إليه بذلك الاهتمام.

واستجاب حسونة إلى رغبة أبيه، فمضى يروي وقائع الرحلة كما عاشها وخلا حديثه من أي انتقاد للفتاة التي كانت سببًا في انزعاجه أول مرة.

وقال حسونة مضيفًا:

- يبدو أنني لم أفهم عزة على حقيقتها في المرة الأولى... وقد انزعجت إذ ذاك من تصرفاتها وانفعالاتها... وكان عليّ أن أدرك أنها فتاة مترفة و«مدلعة» وكان عليّ ألا أنزعج كما فعلت في المرة السابقة.

وسأله أبوه باسمًا:

- وهل ارتحت إليها هذه المرة أكثر من الرحلة السابقة؟

- ربما... ولكنها، على أية حال، من عالم آخر.

- ماذا تعني؟

- أعني أنني أعتقد أن الرفاهية قد أفسدت عليها حياتها.

- وهل الرفاهية سوء يا بني؟

- لا بالطبع... ولكن السوء أن نجعلها تفسد علينا جمال حياتنا الطبيعية.

- أنت فيلوسف.

- تعني أنني واقعي؟

وضحك الأب في عطف، فهو لم يكن يجهل حقيقة مشاعر حسونة الذي يعتز بنفسه تعبيرًا عن رفضه لأن يكون مقياس النظر إليه هو ما يملك من مال أو جاه.

لقد فهم الأب الذي خبر الحياة وعرف من أمور الدهر شيئًا كثيرًا كل مشاعر ولده سواء تلك التي كانت سلبية تجاه الرحلة الأولى وإصراره بشكل عجيب على أن عزة ليست «عمته» ورجاؤه إلى أبيه بألا يصفها هكذا أمامها، ثم استكانة مشاعره وردود فعله الحيادية عندما

تغير سلوك الفتاة تجاهه من الترفع إلى التواضع، ومن الكبرياء إلى التفاهم، ثم إلى ذلك الاستغراق العميق في الحديث بصورة لم تغب عن عيني، وذهن، الأب اللّماح بالفطرة.

وهكذا أمن الأب من انزعاج الابن من مرافقة بنات الشيخ صديق في رحلة بحرية ثالثة عندما طلب منه صديقه ذلك، ومرّت الرحلة بسلام كسابقتها.

والحق أن الخروج إلى البحر مع بنات الشيخ صديق أصبح شيئًا طبيعيًا في حياة الدخش وولده، لأن هذا الطلب تكرر عدة مرات من الشيخ صديق، بل إن هذا الأخير، نفسه، قد رافقهم في رحلة أو رحلتين، وبات «العود» ـ صاحب المركب ـ يرافقهم أيضًا في بعض تلك الرحلات، ولكن ذلك كله لم يخرج في نظر حسونة عن أن يكون سعيًا وراء الرزق كالخروج للصيد ما دام الشيخ صديق قد كفاهم مؤونة الحاجة، واستمر في إمداد الدخش بما يحتاج من المال بشكل منتظم، ليسترده كلما عاد الدخش من البحر بصيد كثير أو قليل.

واستطاع الشيخ صديق أن يلمس ما انطوى عليه حسونة من مشاعر الاعتزاز بالنفس، والطموح، والهمة، والرجولة المبكرة، فأكبر فيه ذلك، وأعجب بما رآه منه وتلطف معه في الحديث مشجعًا إياه على أن يواصل سعيه في سبيل التقدم في الحياة، واكتساب العلم الذي يؤهله ليتبوأ درجة مرموقة في المجتمع.

وازدادت الصلاة بين الشيخ صديق والدخش قوة وتوثقة لدرجة دعا الشيخ صديق معها صديقه الدخش إلى زيارة عائلية، تصحبه فيها زوجته وأبناؤه.

وكانت هذه الدعوة حدثًا هامًا في حياة أسرة الدخش، فهي لم تقم بمثلها من قبل، وهي لا تستطيع ـ بالمقابل ـ أن ترفضها أو تعتذر عنها لعدم توفر الملابس اللائقة، ولكن الدخش حلّ هذا الإشكال بأن أعطى زوجته ما يكفي لتبتاع لنفسها وابنتيها ما يحتجن إليه من اللباس

المناسب، أما حسونة فقد اعتذر بلطف عن المشاركة في تلبية الدعوة، وادعى لأبيه أن عليه كثيرًا من الواجبات المدرسية التي يتعين عليه إنهاؤها، ولم يلح أبوه عليه فهو يفهم الأسباب التي أملت عليه ذلك ولم يشأ أن يضايقه.

ولم تكد الأسرة تعود من الزياة حتى انهال حسونة عليها بالأسئلة المتلاحقة:

ـ هه... كيف كانت زيارتكم؟... هل عاملوكم معاملة طيبة؟... هل احترموكم؟... ألم يصدر منهم شيء يمس كرامتكم؟... هل كنتم مرتاحين خلال الزيارة؟

ولم يكن بوسع أمه وأختيه أن تجيبا على أسئلته من الزاوية التي ينظر منها، هو، إلى الأمور: فالأم قد اعتادت عيش الكفاف الذي رافقها طوال حياتها والذي يجعلها تنظر إلى كل ما يمر بها نظرة استسلام وقبول أيًا كان نوعه، وكانت تنظر إلى من هم أحسن منها، ماديًا، نظرة احترام مشوبة بذلك الاستسلام، فالأرزاق من الله تعالى، يعطيها لمن شاء بحكمة ـ ولحكمة ـ يعرفها جلّت قدرته، فما كان لها أن تميز بين ما يعاملها به الناس بميزان بالغ الحساسية كميزان ولدها حسونة، ويكفي ـ في نظرها ـ أن تستقبلها عائلة الشيخ صديق بالترحاب، وأن تتناول الطعام على مائدتها، وأن تحتسي معها الشاهي، من ثم، في رضى دون أن توجّه انتباهًا للكيفية التي تم بها ذلك والمعاملة التي عاملتها بها زوجة الشيخ صديق.

وأجابت الأم على أسئلة ولدها بسذاجة وبساطة، فليس عندها ما تشكو منه في هذه الزيارة التي لم يسبق لها أن قامت بمثلها، ولم يفتها أن تنوه بإعجاب عفوي عن «الست عزة» ابنة الشيخ صديق، بجمالها وكمالها، وأدبها واحتشامها وعما أحاطتهن به من عناية وتكريم:

ـ الله يسلمها بنت الشيخ صديق الكبيرة... إيش اسمها؟... آه... اسمها عزة... دي زي السكرة... جمال وكمال... وأدب وحشمة... ما شاء الله كان.

ونظرت الأم إلى ابنها نظرة حانية، ثم رفعت رأسها ويديها متجهة إلى السماء تبتهل في حرارة:

ـ إلهي وأنت جاهي... تجعل الست عزة من نصيب ابني حسونة... يا رب.

وصعق حسونة، ونظر إلى أمه بذهول، إذ لم تكن أمنية الأم هذه قد خطرت له ببال فقال دون تردد:

ـ كلام إيه ده يا أمي؟... إيش خلاكي تقولي كده؟

وردت الأم بثقة وإيمان:

ـ ربنا قادر على كل شيء... وهذه أمنيتي.

ولم يجب حسونة، إذ لم يكن قادرًا على أن يفهم أمه وجهة نظره في علاقة عائلته بعائلة الشيخ صديق... فهي تنظر إلى الأمور بمنظارها الساذج البسيط، ولا تستطيع أن تفهم، أو تتفهم، وجهة نظره فيما لو أدلى إليها بها.

وأمّن الأب على دعاء أم حسونة وهو يبتسم.

ـ ربنا يسمع منك يا أم حسونة.

وقال حسونة بلهجة عتاب مهذبة:

ـ أبويا...؟

فقال الأب وابتسامة تزداد اتساعًا:

ـ ليه لأ يا ولدي؟... ربنا قادر على كل شيء.

واحمر وجه حسونة، فهبّ واقفًا ثم غادر الغرفة بسرعة بينما أبواه يرمقانه في عطف ومحبة.

وإذ خلت الغررفة من حسونة، أقبلت الأم على زوجها تحدّثه عن عزة حديثًا مستفيضًا.

قالت له إنها أعجبت بالفتاة إعجابًا بالغًا، وأن سلوكها الذي يدل على ما تعيش فيه من رغد ورفاهية، دون أن ينتقص من أدبها وتهذيبها، قد أعجبها وأشارت إلى العناية الزائدة التي وجهتها الفتاة

إليها، وحرصها على خدمتها والإشراف بنفسها على راحتها.

ونوّهت عن الحديث الذي دار بينها وبين الفتاة في معزل عن مسامع الآخرين حول حسونة، فقد أبدت الفتاة تقديرها له، وأثنت على همته ونشاطه وأدبه، وسألتها عنه أسئلة كثيرة... عن طفولته... عن صباه... عن حياته في المنزل... عن حياته في المدرسة... عمّا يفضل من المآكل... عمّا يحمل به ويتطلع إليه.

وأضافت الأم إلى حديثها ما تعتقد أنه وجهة النظر الصحيحة، وهي أن حسونة قد استلفت انتباه الفتاة، وأنها توليه ـ بشكل أو بآخر ـ كثيرًا من اهتمامها، وأنها ـ أي الأم ـ على استعداد لأن «تقطع ذراعها» إذا لم يكن ذلك كله يعني أن الفتاة لن تمانع لو أن أهل حسونة تقدموا إلى أبيها طالبين يدها لولدهم الوحيد.

وكان الدخش يصغي إلى كلام زوجته صامتًا وهو يمر بيده على لحيته في حركة رتيبة تدل على استغراقه في الإصغاء، ويهز رأسه بين الفينة والفينة مؤمّنًا على ذلك الكلام، موافقًا عليه، فهو ـ أيضًا ـ قد لاحظ ما أشارت إليه زوجته، ونوّه عنه في معرض المداعبة إذ أشار إلى استغراق الفتى والفتاة في الأحاديث الطويلة.

وانتهى الحديث بين الدخش وزوجته بدعاء إلى الله أن يحقق آمال الأم في أن ترى عزة زوجة لحسونة، فهما لم يشعرا قط أن تحقيق تلك الآمال ضرب من المحال، بل هما إلى إمكان تحقيقها أقرب إلى الاقتناع والتصديق.

وتوقفت الأم عن الحديث ونظرت إلى زوجها منتظرة تعليقه، فهزّ هذا رأسه ويده لا تزال تمر على لحيته بتلك الحركة الرتيبة:

ـ كل هذا الذي قلناه حسن وجميل... ولكن.

ونظرت الزوجة إليه بقلق وهي تتساءل:

ـ لكن إيش؟

وقلب الدخش شفته السفلى قائلًا:

ـ مدري... ولكن المسألة ليست بسيطة... هناك الشيخ صديق... هل يقبل يا ترى؟... ثم هناك حسونة.

ـ ماله حسونة؟

ـ تعتقدي إنه يحب البنت ويبغاها؟

ـ ليه لأ؟

ـ اسأليه هوّ.

وأخلد الاثنان إلى الصمت برهة، ثم استطرد الدخش قائلًا ببطء:

ـ ربنا يسمع منك ويجعل البنت دي من نصيبه... بس متهيأ لي إنه الولد ما هو مفكر في الحاجات دي.

وردت الأم بسرعة:

ـ هوّ بسم الله ما شاء الله صار رجال... وكلها كم سنة وياخذ الشهادة ويبني مستقبله.

واختتم الأب الجلسة بهزّة من كتفيه عبّر بها عن عدم قدرته على الإدلاء برأي حاسم ثم قال:

ـ ربنا يسمع منك... ويبعث لابننا بنت الحلال اللي تسعده وترضيه.

وأمنت المرأة على كلام زوجها الذي نهض متجهًا إلى الغرفة المجاورة باحثًا عن حسونة، فوجده مستغرقًا في قراءة دروسه كعادته، وكأن شيئًا ما لا يشغله سوى هذه الدراسة.

وانتبه حسونة إلى دخول أبيه، فرفع بصره إليه متسائلًا، فابتسم الأب بعطف وقال له وهو يستدير للخروج:

ـ لا شيء يا ولدي... ربنا ياخد بيدك... وينجّح مقاصدك.

الفصل السابع

ومضت سنوات العمر حثيثة.

وكبرت الفتاة عزة.

وكبر الفتى حسونة الذي أسهم البحر في إعطاء جسده مزيدًا من القوة والفتوة، فنمت عضلاته واتسع صدره، وارتفعت هامته، حتى أصبح يلفت الانتباه إلى ما حباه الله به من وقوة ووسامة.

وكانت فرحة العائلة فوق كل حدود التصور عندما تكلل جهد حسونة بالنجاح، وحصل على «التوجيهية» وبدأ الحديث بين المتخرجين وأهلهم حول احتمالات ابتعاث هذا أو ذاك من الناجحين في بعثة دراسية إلى مصر.

ولم يكن الدخش يعرف، تمامًا، المدلول الذي يشير إليه ابتعاث أحد الشباب ولكن رغبة ولده في هذا الابتعاث كانت تكفي لكي يشاركه إياها وأن يتمنى على الله أن يحققها له.

وخلال فترة الانتظار والترقب تلك، كان الدخش يعيش بعواطفه كلها مع ولده، وقد أبعد جانبًا كل تفكير في النتائج المترتبة على سفر حسونة بالنسبة إليه، وافتقاده لشباب وفتوة ولده في مساعدته عند الخروج إلى الصيد، بل لعل الأصح أن يقال أن دور الدخش لم يعد يتعدى في المدة الأخيرة مهام المساعدة التي يقوم بها، عادة، الصياد المبتدئ، وأصبح حسونة يقوم بكل مجهود فيطلب منه في عبارات مهذبة تدل على الاحترام العميق أن يفعل كذا... أو يتكرم ـ مشكورًا ـ بأن يفعل كذا... والأبن يلبي الطلب بهمة تتفق مع إمكاناته الجسدية،

وتذكرنا بما كان عليه أمر حسونة عندما خرج مع أبيه للصيد أول مرة.

أجل.

لم يخطر على بال الدخش أن يقفز بذهنه إلى مقبل الأيام فيما لو فاز ولده بالبعثة، إذ كان يكفيه أن هذا الابتعاث ـ لو تم ـ سيكون من شأنه أن يرفع من مستوى ولده وظيفيًا واجتماعيًا وهذا يكفيه.

ومضى حسونة يتابع أنباء البعثات والترشيحات بقدر ما سمح له الوقت، وسرّ حين علم أن اسمه قد وضع بين أسماء المرشحين، فكانت تلك خطوة أولى أثلجت صدره وأنعشت الآمال في قلبه.

ولا بد من أن يعترف حسونة أنه، وقد ازداد نضجًا وعلمًا، لم يعد كثير التحمس للحلم الذي كان يراود فكره في أن يصبح طيارًا، بل بات ينظر إلى الأمور أكثر واقعية واتزانًا، وكان يستعرض أحيانًا في ذهنه ما كان يتمنى أن يكونه عندما كان صغيرًا... فوجد أنه كان يتمنى في بعض الأحيان أن يكون ضابطًا، وذلك عندما شاهد بعضًا من الجند يقومون بتمارينهم اليومية في ساحة «القشلة» وضابطهم يوجههم ويصدر إليهم الأوامر والإيعازات.

ومرة أخرى تمنى لو أصبح مثل الشيخ صديق، وكان ذلك بعد يوم مرهق عانى فيه كثيرًا من التعب والنصب في الصيد، فاتجه ذهنه إلى صورة رأى نفسه فيها، جالسًا على دكة وحوله صبيانه وغلمانه من مستخدميه، يأمرهم وينهاهم ويشتري محصول الصيادين وهو يمد يده إلى صدر ثوبه ليخرج منه كيسًا من الجلد المهترئ قد حشاه بالقطع النقدية، فيأخذ في عدّ نصيب كل صياد بعناية ليدفعه إليه، ثم يعيد كيسه إلى داخل صدر ثوبه، ويستأنف جلسته المسترخية التي لا يعاني معها شيئًا من التعب والنصب اللذين يعاني منهما الصيادون.

ومرة ثالثة تمنى حسونة لو أصبح ربّانًا لإحدى السفن الكبيرة التي كانت تؤم ميناء جدة... وكان ذلك عندما دخل مع أبيه إلى الميناء، وصعدا إلى أعلى السفينة بعد أن استأذن أبوه صديقًا له من موظفي الميناء، فنظر حسونة مبهورًا إلى الربان بلباسه «الكحلي» الأنيق

والأزرار الصفر تلمع على سترته، والقبعة المذهبة تعلو رأسه، وكان الربان أجنبيًا يضع في جانب فمه «بيبة» يدخنها وهي مثبتة بين أسنانه، فيخاطب الناس ودخانها يتدافع من فمه، فخيل لحسونة في غمرة ذلك الانبهار أن الربان ـ ولا شك ـ شخص مهم، يمارس عملًا مهمًا، هو ـ بكل تأكيد ـ خير من عمل صيادي الأسماك، لا سيما وأنه يسيطر على سفينة هائلة من الفولاذ لها مدخنة ضخمة، وعلى متنها كثير من البحارة الذين يعملون وفق أوامر ربانهم، ووجد أنه لا مجال للمقارنة ـ وأية مقارنة! ـ بين هذه السفينة الجبارة وبين قاربهم المتداعي.

لم يعد ذهن حسونة يتجه إلى مهنة بعينها، وإنما إلى أفكار عامة تقوم على أسس واقعية من المعلومات التي بات يعرفها عن التخصصات التي يوفد المبتعثون من أجلها، فكان يؤجل اختيار الاتجاه النهائي إلى حين البت في أمر ترشيحه للابتعاث، وتقرير ذلك فعلًا، فربما يستبعد اسمه لأي سبب من الأسباب، ولذا فهو لا يمكن أن يعتبر نفسه مبعثًا إلا إذا تبلغ ذلك رسميًا، أما الآن ـ وقبل ظهور النتيجة ـ فإن التريث في إطلاق العقال للأحلام والتخيلات هو خير ما يفعل.

وإن هي إلا أيام سمع الدخش بعدها طرقًا شديدًا على باب المسكن وكأن الطارق لا يطيق الانتظار ثوان معدودة ريثما يفتح الباب، فهو يستحث من في الداخل بذلك الطرق الشديد.

ونهض الدخش وهو يبذل جهده، قدر الإمكان، للإسراع وهو يقول:

ـ خيرً إن شاء الله... اللهم اجعله خيرًا.

ثم يرفع صوته مخاطبًا الطارق:

ـ طيب... طيب... هي الدنيا طارت؟

وفتح الباب ليرى وراءه ولده حسونة وقد شعّت من وجهه سعادة طاغية، فهتف وهو يعانق أباه ويقبّله قبلات متلاحقة:

ـ بارك لي يا بوي... لقد اختاروني للبعثة.

فأشرق وجه الأب بمثل سعادة ولده، ودمعت عيناه، ورفع يديه إلى السماء وهو يقول بصوت متهدج:

ـ الحمد لك يا رب... ما أكرمك يا رب.

وضجّ البيت كله بسعادة البشرى، وارتفعت عبارات الحمد والشكر لله على هذه المنّة، مع أن الأم وابنتيها لم تدركا ـ بالضبط ـ ما تعنيه تلك البشرى، إذ كان يكفيهنّ أن حسونة وأباه سعيدان لتنتقل السعادة إليهن من غير أن يحاولن معرفة التفاصيل.

وبعد أن ثرثر الجميع، بصوت واحد، تعبيرًا عن الفرح والسرور، وأوضح حسونة ماذا تعنيه البعثة بالنسبة له ولهم، وبالنسبة لمستقبله ومستقبلهم نهض الأب فجأة واتجه إلى الباب وهو يقول:

ـ لازم أقول للشيخ صديق... ضروري يعرف الشيخ صديق... فهو بمثابة الأب الثاني لحسونة.

وما لبث أن غاب وهو يحثّ الخطا نحو دكان الشيخ صديق.

ولم يكن فرح الشيخ صديق بأقل من فرح الدخش، فقد استقبل النبأ السعيد بالارتياح والحمد لله، وشارك الأب سعادته الفائقة، وتمنى لحسونة كل نجاح في البعثة.

وتناول الشيخ صديق بعض النقود من كيسه ودسّها في يد الدخش وهو يقول:

ـ هذه لحسونة... لولدي حسونة... سوف يحتاج إلى أشياء كثيرة عند سفره.

وحاول الدخش أن يعترض، ولكن الشيخ صديق أطبق على النقود وهو يقول بلهجة حاسمة:

ـ خلاص... حسونة زي ابني... وليس بيننا تكليف.

ولم يسع الدخش إلا أن يقبل، فوضع النقود في جيبه وهو يتمتم بعبارات الشكر والامتنان... وقضى بعض الوقت لدى الشيخ الذي

راح يستوضحه عن مختلف الأمور المتعلقة بالبعثة، ولكن الدخش قال في خجل:

ـ والله يا شيخ صديق ما أعرف حاجة... كل اللي أعرفه أنه ربنا أكرمنا باختياره للبعثة... وأنا راح أخلّيه يزورك وأنت تسأله عن كل حاجة.

وضحك الشيخ صديق وهو يقول:

ـ الله يحييه وقت ما يحب... أنا والله لا أتمنى له إلا كل خير... دا زي ابني.

وشعر الدخش بالألم، لأن الشيخ صديق كان يشير إلى حرمانه من الذكور بعد أن فقد ولده البكر وهو رضيع، وإلى توقه لأن يرزقه الله ولدًا يحيي ذكره، ويدير أعماله ويساعده.

وعلى مائدة العشاء تذكر الشيخ صديق النبأ الذي أخبره به صديقه الدخش، فقال موجهًا كلامه إلى العائلة المجتمعة على العشاء:

ـ على فكرة... اليوم زارني أخونا الدخش... أبو حسونة.

ولم ينتبه الشيخ صديق إلى أن ابنته عزة قد توقفت عن تناول الطعام، ووجهت إليه انتباهها منتظرة بقية الحديث.

واستطرد الشيخ صديق.

ـ ربنا يوفقه وياخذ بيده... أعني الولد حسونة... الحقيقة أنه شاب يستحق كل خير.

وتحولت عزة إلى كتلة من اللهفة والترقب والإصغاء، وقد تركزت عيناها على شفتي أبيها وكأنها تريد أن تتلقف كل كلمة فور خروجها من فمه.

ـ قال لي أبو حسونة أن ولده سوف يبتعث إلى مصر... هذه ميزة لا يحظى بها سوى الطلبة المتفوقين... وحسونة ـ ما شاء الله ـ حقق نتائج جيدة في التوجيهي.

وتصلبت يد عزة على الملعقة وقد تجمدت اللقمة في حلقها،

وغاض الدم من وجهها، واعترها رجفة هزتها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

وتناثرت التعليقات من العائلة، فزوجة الشيخ صديق تعجب كيف استطاع حسونة أن يحقق تلك النتائج رغم رقة حال أبيه وضيق ذات يده.

وأجاب الشيخ صديق على هذا السؤال:

ـ وأزيدك من الشعر بيت أن الولد ما كان متفرغًا للدراسة بل كان يساعد أباه في العمل.

ـ بسم الله... ما شاء الله.

تمتمت الزوجة في إعجاب... وأضافت بلهجة لم تخل من رنة التحسر:

ـ ربنا يوفقه وياخذ بيده... لا اعتراض على حكمك يا رب... لو بقي لنا الولد لكان الآن في مثل سنّه.

وأطرق الشيخ صديق في ألم، كما اعتاد أن يفعل كلما أشارت الزوجة إلى ولدهما البكر الذي كان يماثل حسونة في عمره لوكتب الله تعالى له الحياة.

وتنحنح الشيخ صديق محاولًا أن يزيل هذا الخاطر الأليم من ذهنه وذهن زوجته، وقال وهو ينهض عن المائدة:

ـ الحمد لله... كل شيء بإرادة الله.

وهمست الزوجة في خشوع:

ـ لا إله إلا الله.

ونهض الجميع عن المائدة، وانهمكت البنات و«الدادة» في رفع بقايا الطعام والاستعداد للسهرة بينما كانت عزة تتحرك في تثاقل، إذ كان رأسها مسرحًا لانفعالات عاصفة لم يشعر بها ـ على شدتها ـ أحد ممن كانوا حولها.

وفي السهرة قالت عزة مخاطبة أباها وهي تحاول أن تكسب صوتها رنة عادية قدر الإمكان:

ـ أنت مبسوط يا بويا عاشان البعثة هادي... حقّت ابن عم حامد الدخش؟

وأبعد الأب مبسم الشيشة عن فمه ونفث دخانها وهو يقول في تعجب:

ـ إيش السؤال هذا يا بنتي؟... طبعًا مبسوط.

ـ ليه.

ـ لأنه الولد... أقصد حسونة... راح يتقدم ويتحسن مستقبله... أيامنا هذي أيام شهادات وعلم يا بنتي.

ـ طيّب... وبعد ما يرجع... إيش راح يشتغل؟

ـ إيش عرّفني؟... هذا شيء يخصّه هوّ.

وأطرقت الفتاة هنيهة ثم تمالكت نفسها وقالت لأبيها بلهجة من لا يعنيه الأمر كثيرًا:

ـ أنا من رأيي أنه... أنه ما يسافر.

ـ عجيب... ليه؟

ـ أنا أقولّك يا بويا ليه.

واندفعت الفتاة تتحدث في حماسة وهي تشرح وجهة نظرها.

قالت أن الصداقة التي جمعت بين أبيها وبين الدخش قد فاقت الحدود العادية، لتصبح علاقة حميمة تزداد مع الأيام قوّة ورسوخًا... وإن حسونة قد بات ـ كما قال أبوها نفسه ـ ابنًا له، ولعله يجد فيه عوضًا عن ابنه البكر الذي فقده، وإن حسونة قد أثبت أنه أهل للثقة، وجدير بالمسؤولية، وإن النتائج التي حققها في دراسته تقدّم دليلًا آخر على ذلك.

وختمت الفتاة كلامها قائلة:

ـ ولذا فإنني أعتقد أن من الأفضل لك وله أن تستفيد من مواهبه وإمكاناته بأن يساعدك في إدارة أعمالك لكي تستريح بعض الشيء... مع ما تعرفه عن حسونة من كفاءة وثقافة وخبرة.

وكان الشيخ صديق يصغي إلى ابنته بادئ الأمر بغير كثير من الاهتمام فكلامها هو كلام طفلة محدودة التفكير والخبرة بأمور الحياة، ولكنه بدأ يولي هذا الكلام نصيبًا أكبر من الانتباه كلما استرسلت، حتى أصبحت معالم وجهه تتغير مع كل كلمة تقولها ابنته، وكأن اقتناعها الذي عبّرت عنه بتلك الحماسة قد انتقل إليه، فشعر بأن من الضروري، فعلًا، أن يحتضن حسونة ويوجه خطواته بما يعود عليهما ـ كليهما ـ بالنفع والخير.

وقال الشيخ صديق وعلى وجهه معالم التفكير:

ـ كلامك طيّب يا ابنتي... ووجهة نظرك معقولة... ولكن... أعتقد أن حسونة لن يقبل.

ـ ولماذا لا يقبل؟... إنك تفتح له أبواب مستقبل مشرق لا يمكن لأيّ مستوى من الدراسة أن يحققه له.

ـ حسونة... على ما فهمت من أبيه... سعيد جدًا بالبعثة... وقد سعى إليها بجدّه واجتهاده... وهذا يدل على أنه قد خلق للدراسة والتحصيل.

ـ تستطيع أن تغريه بالمميزات الكثيرة التي ستقدمها له.

ـ الواقع أن أي عرض أعرضه عليه، مهما يكن سخيًا، فإنه يكون في صالحي أكثر مما هو في صالحه... ولكن... هل يقبل؟

ـ إذا أقنعت عم الدخش فسوف يقبل... ويكفيهم ما هم فيه من رقة الحال وقلة المال... إنك ستنتشلهم من الفقر جميعًا... وتريحهم من الجهد المرهق الذي يبذله الأب وابنه لتأمين عيش دون الكفاف لعائلتهما.

وهزّ الشيخ صديق رأسه، وقد بدأ أن الفكرة قد راقت له ورسخت في ذهنه:

ـ كما قلت لك... كلامك طيّب... ورأيك معقول... غدًا، إن شاء الله، أخاطب الأخ الدخش في الموضوع.

كانت أم عزة ترمق ابنتها خلال الحديث بنظرات ذات معنى، ذلك أنها أحست، بفطرتها الأنثوية، أن هناك شيئًا ما يلوح في أفق حياة عزة، وأن حماستها تلك لم تكن بقصد انتشال عائلة الدخش من الحياة التي تعيشها، وإنما هي لأسباب أخرى، هي نفسها الأسباب التي ما زالت تتكرر ملايين المرات في كل مكان من العالم منذ أن خلق الله آدم وحواء.

ولم تقل الأم شيئًا، بل راحت تصغي إلى الحديث الدائر بين زوجها وابنتها دون أن تشارك فيه بكلمة واحدة... فقد قررت أن تعرف كل شيء من ابنتها، أو ـ بالأصح ـ كانت تريد أن تتأكد من أنها كانت على صواب فيما شعرت به منذ أن أعلنت عزة رفضها لبعثة حسونة بتلك الحماسة، ومحاولتها تبرير ذلك بمختلف الحجج والمعاذير.

* * *

التفتت عزة بدهشة نحو باب غرفتها وهو يفتح، لترى أمها واقفة عنده تنظر إليها في صمت، ثم تغلق الباب بعناية وتتقدم منها وعيناها ما زالتا مركزتين عليها.

وشعرت عزة بهزة تجتاح جسدها... إذ كانت عينا الأم تفصحان عن سبب قدومها من غير أن تنطق بكلمة واحدة.

كان هناك ألف سؤال وسؤال ترتسم على وجه الأم.

كان هناك اتهام يطلّ من عينيها.

كان هناك إصرار، يبدو في خطواتها الهادئة التي تقدمت بها من ابنتها وعيناها لا تتحولان عنها.

ونظرت عزة حولها في يأس.

كانت كالطريدة التي أحكم الطوق من حولها فما تستطيع فرارًا ولا نجاة وما عليها إلا أن تقف وتنتظر مصيرها صاغرة مستسلمة.

وتوقفت الأم، إذ باتت على بعد خطوة واحدة من ابنتها، ثم

أشرق وجهها فجأة بابتسامة فيها العطف... وفيها السؤال... وفيها الفهم.

وأطرقت عزة صامتة.

وكأنما بدأ الحديث بين الأم وابنتها وانتهى في تلك اللحظات الخاطفة التي التقت فيها العينان بالعينين، فسألت الأوليان وأجابت الأخريان، وتم الكلام دون أن يسمع في الغرفة أي صوت.

وتناولت الأم يدي ابنتها، وجذبتها نحوها برفق وقالت لها وهي تبتسم بعطف:

ـ هه يا ابنتي... حدثيني.

وخارت قوى الفتاة حتى أحست بأنها عاجزة عن الوقوف، وتمتمت بصوت مرتجف:

ـ عن أيّ شيء أحدثك يا أماه؟

وأحاطت الأم خصرها بذراعها، وأجلستها على طرف السرير وهي تقول بلهجة حانية:

ـ أنا أمك... وقد عوّدتك منذ صغرك على ألا تخفي عني شيئًا.

ـ لا أدري عمّ تتكلمين يا أماه.

ـ لقد أصبحت، اسم الله عليك، صبية ناضجة... وأنا وأنت صديقتان أليس كذلك؟

وأطرقت عزة دون أن تجيب.

وازدادت ابتسامة الأم اتساعًا وهي تقول:

ـ إنني على يقين من أن لديك ما تقولينه لي.

ودارت عزة بعينيها في الغرفة وكأنها تبحث عن منفذ للهرب وأجابت:

ـ عم تتحدثين يا أماه... إنني لا أفهم.

وجذبتها الأم إلى صدرها لتستكين عليه كطفلة صغيرة، ثم قالت وهي تمسح على شعرها بيدها في حنان:

ـ أتحدث أنا إذن.

وظلت الفتاة صامتة.

ـ لا بأس... سأتحدث... إن الأمر يتعلق بابن حامد الدخش... حسونة.

وركضت الدماء في عروق عزة بعنف، وأحست الأم بها وهي ترتجف انفعالًا.

ـ هل تعتقدين أنك كنت تفكرين في مصلحة أبيك فقط وأنت تعرضين عليه أن يعمل حسونة معه ويلغي سفره في البعثة؟

وأغمضت عزة عينيها في راحة عميقة لم تشعر بمثلها من قبل أبدًا... واسترخى رأسها على صدر أمها في هدوء واستسلام، فلقد تأكدت الآن من غاية أمها من حديثها إليها، وفهمت أن سرها الذي حملته أكثر من سنتين لم يخف على هذه الأم، وإن لها شريكة، وأية شريكة، في سرها هذا، وإن العبء الذي كان يثقل على قلبها طوال ذلك الزمن قد خفّ كثيرًا، لأنها وجدت من تحمله معها.

ولم تدهش الأم عندما رأت خيطين من الدموع يسيلان على وجه ابنتها بل اعتبرت ذلك من قبيل تحصيل الحاصل فهي ـ إذن ـ لم تكن واهمة.

وقالت الأم في عطف:

ـ هيا... حدّثيني... متى كان ذلك... وكيف؟... ولم لم تخبريني به من قبل الآن؟

وكطفلة صغيرة ارتبكت ذنبًا تحاول تبريره في عبارات مستعطفة، راحت عزة تروي لأمها القصة.

قالت لها أن حسونة قد لفت انتباهها منذ اليوم الأول الذي رأته فيه، وساء بوسامته وفتوته، أو بثقته بنفسه واعتداده بها، وزادها تقديرًا له أنه لم يحاول التقرب منها بصفتها ابنة الشيخ صديق، بل ـ على العكس ـ كان قاسيًا معها، بل وسخر منها ومن كبريائها، ولم يبد عليه

ـ قط ـ أنها أثارت اهتمامه، أو استلفتت انتباهه، إذ كان يعاملها كطفلة مشاكسة ولم يتورع عن تأنبيها أكثر من مرة بكلامه.

وتحدثت عن اللقاءات التالية، وكيف حاولت أن تزيل من ذهن حسونة الفكرة السلبية التي أخذها عنها في المرة الأولى، وكيف استطاعت أن تستدرجه للحديث عن نفسه، وعن آماله ومشاعره، وعن البحر وحكاياته وأساطيره، بعد أن زهدت تمامًا في الصيد، وأصبح الإصغاء إلى حسونة هو المتعة الحقيقية التي تجنيها من النزهات البحرية التي خرجت بها مع أخواتها بصحبة أبو حسونة وولده على مركب العود.

كانت الأم تصغي وهي تهزّ رأسها في تفهم وعطف، فهي لم تجد فيما قالته عزة شيئًا تأخذه عليها... فالاهتمام الذي توجهه ابنتها نحو ابن الدخش ليس سوى شعور خاص بها، بل إن حسونة ـ كما قالت عزة ـ لا يدري به، ولا جرى بينها وبينه أي حديث أو اتصال حوله.

وقالت الأم بعد أن أخلدت إلى الصمت برهة وانتهت الابنة من كلامها:

ـ ليس عندي ما ألومك عليه يا ابنتي... فما دمت قد التزمت حدود الأدب والحشمة، وكتمت مشاعرك في أعماقك... فليس لأحد أن يؤاخذك على شيء ولكن... هل تظنين أنك واثقة من صدق مشاعرك؟... إنك ما زلت صغيرة.

ـ أعرف أنني صغيرة... ولكن هذا ما حدث.

ـ لذا أقول إنك ما زلت صغيرة على مثل هذه الأمور... فهل تحسبين أن الأمر جدّي؟... أم هو مجرد مشاعر طفولية لا تلبث أن تنسى وتزول؟

وقالت عزة في صوت هادئ:

ـ لقد صارحتك يا أماه بكل شيء... ولقد مضى على أول مرة رأيته فيها أكثر من سنتين... كنت خلالهما أتابع كل شيء عنه...

أشاركه فرحة النجاح كلما انتقل من فصل إلى فصل أعلى دون أن يدري بذلك أحد... وأتسقّط أنباءه من أمه وأختيه... وأحس رغمًا عني أن حصوله على الشهادة هو حادث فاصل في حياتي... حياتي أنا... إذ يمكن، عندها، أن أستبشر بقرب تحقيق آمالي.

وبدت الحيرة على الأم فما تدري بماذا تجيب... ذلك أنها تعرف، وتدرك أن أمور «القلب» لا تخضع عادة لأي مقياس أو منطق... وأن ما يبدو لها غريبًا وغير معقول، يبدو لصاحبه، أو صاحبته، هو الأمر الطبيعي الوحيد... والأمر المعقول الوحيد... فماذا يمكنها، كأم وكصديقة لابنتها، أن تفعل؟

وفي عطف فائق ضمّت عزة إلى صدرها وقالت لها:

ـ إنني سعيدة جدًا يا ابنتي لأنك صارحتني بكل ما في نفسك دون حرج... إنني فخورة بذلك... لأن معناه أنك تعتبرينني، فعلًا، صديقتك، إلى جانب كوني أمك، وهو ما حاولت أن أعوّدك عليه منذ الصغر... وأنا معك... أنا معك يا ابنتي دون تردد... وبدون حدود... ولكن ليس بوسعنا أن نفعل، الآن، شيئًا... وسننتظر حتى نرى نتيجة ما يفعله أبوك بعد أن اقتنع برأيك في شأن حسونة... وبعدها نتصرف، أنا وأنت، حسب مقتضى الحال.

وانهمرت الدموع من عيني عزة، وتألقت عيناها بفرح طاغ، فطبعت على خد أمها قبلة حارة وهي تقول بصوت مرتجف امتزجت فيه الفرحة بالأسى:

ـ أماه... يا أعزّ صديقة لي في الوجود.

الفصل الثامن

في الليلة التالية، كان الحديث عن بعثة حسونة يتكرر في بيت الدخش.

ذلك أن الرجل ما كاد يعود مساء إلى البيت بعد أن قضى جانبًا من أمسيته في حانوت الشيخ صديق، حتى سأل عن حسونة فور وصوله، فجاءه هذا ملبيًا.

واتجه الأب إلى ركنه المعتاد في الغرفة التي تتخذها الأسرة للجلوس والأكل والسمر، وتهالك جالسًا وهو يطلق تنهيدة تدل على الارتياح، وقال لحسونة وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه:

ـ مبروك يا ولدي... مبروك... أنت حقًا ولد محظوظ... ولكن هذا ليس كثيرًا عليك لأنك تستحق كل خير.

ودهش حسونة وتساءل:

ـ مبروك على إيش يا بويا؟

وعدل الأب من جلسته وكأنه يتهيأ لإعلان نبأ عظيم مهّد له بتلك البداية التي تصور أن تكون مشوّقة:

ـ بخصوص مستقبلك... وموضوع البعثة.

ـ مستقبلي؟... البعثة؟... سبق لك يا أبي وأن باركت لي... وشاركتني فرحتي.

ـ بعثة؟... بعثة إيش يا ابني؟... حاجة أهم من البعثة... حاجة عن مستقبلك... مستقبلك.

وزادت دهشة حسونة وهو يجيب:

ـ حاجة أهم من البعثة؟

ـ مرّة. . . أهم مرّة.

وقلب حسونة شفتيه في حيرة وقال:

ـ والله ما أنا فاهم حاجة يا بوي. . . خيرًا إن شاء الله؟

فقال الأب وهو يضغط بعطف على ركبة ولده الجالس بجانبه:

ـ الشيخ صديق يبغاك تشتغل معاه.

ـ إيش.

هتف حسونة في ذهول.

وضحك الأب وهو يعلّق:

ـ شايف كيف انفجعت؟. . . أنا حصل لي زيك كده لما كلّمني الشيخ صديق وقاللي أنه يبغاك تشتغل معاه بعدما صرت متعلم. . . ومعاك شهادة و. . .

وقاطع حسونة أباه بنفس اللهجة المستغربة:

ـ وإيش اللي يخلي الشيخ صديق يعمل كده؟. . . والبعثة؟

ـ مالك ومال البعثة؟. . . أنت انفتحلك باب خير ما كان حد يحلم به.

وأعقب الأب كلامه بضحكة سعيدة هانئة، وراح يترقب جواب ولده الذي عقل الذهول الشديد لسانه فما علّق على كلام أبيه بشيء.

ولما طال صمت حسونة قال له أبوه باسمًا:

ـ شفت؟. . . أنا سكتت كده لما كلمني الشيخ صديق. . . ووين ووين حتى أتلميت على روحي وعرفت أجاوبه.

ـ وإيش قلتله؟

تساءل حسونة ببطء وقد امتقع وجهه.

ـ قلت له أنها فكرة معقولة مرة. . . وأنها فرصة علشانك. . . بكرة ربنا يفتح عليك وتصير زي الشيخ صديق. . . ويمكن أغنى. . . بعد ما تتعلم الشغل. . . و. . .

وتوقف الأب عن الكلام، فقد رأى حسونة يطرق في ألم، وبدا واضحًا أن حديث أبيه لم يسعده كما كان يعتقد. . . كما أنه لم يكن ـ على ما يبدو ـ مفاجأة سارة لولده كما كان يتوقع.

وقال الأب في اهتمام وقلق:

ـ إيش فيه يا ابني؟. . . ما لك؟

فقال حسونة وفي صوته رنة خيبة الأمل:

ـ سامحني يا بوي. . . كلامك هذا هزّني. . . وخللاني ما أعرف إيش أقول. . . أنت عارف أنه كل آمالي معلقة بالبعثة هذي. . . وبذلت كل جهدي لحد ربنا ما وفقني فيها. . . ودحين تقوللي أنه الشيخ صديق.

وغلب عليه التأثر، فاختنق صوته ولم يعد قادرًا على أن يكمل حديثه.

وتساءل الأب في قلق:

ـ يعني. . . ما تبغي تشتغل مع الشيخ صديق؟

ـ إذا كنت تبغاني على حريتي يا بوي. . . أنا أبغى البعثة. . . وأرجوك تبلغ الشيخ شكري وتقديري. . . وتفهّمه أنه البعثة هذي مهمة جدًا بالنسبة لي. . . مستقبلي متوقف عليها.

وفجأة عاد الإشراق إلى وجه الدخش وقال لولده دون تردد:

ـ خلاص. . . بلاشي من الشيخ صديق. . . زي ما قلت يا ابني. . . البعثة أهم. . . إحنا ما لنا ومال الشغل مع الشيخ صديق؟. . . أنت لازم تكمل تعليمك وتاخذ أكبر شهادة. . . بكرة أقول الكلام ده للشيخ صديق. . . ولا تزعل يا ولدي.

فتناول حسونة يد أبيه يقبلها في امتنان وهو يقول:

ـ كتر خيرك يا بوي. . . ربنا يخلليك لنا. . . ويطول عمرك.

وانتبه اثنان على صوت أم حسونة وهي تدخل متسائلة:

ـ إيش فيه؟. . . خير إن شاء الله.

فقال لها زوجها في عدم اكتراث يتناقض مع ما كان عليه من حماسة عندما جاء إلى البيت:

ـ الشيخ صديق كان يبغى حسونة يشتغل معاه... لكن حسونة ما يبغى... أصله لازم يكمل دراسته ويروح البعثة.

وأدرف بعد توقف:

ـ أنا برضه كان رأيي كده من الأول... بس قلت لازم أسأل حسونة.

ولم يجد الدخش أي حرج في الانتقال برأيه من النقيض إلى النقيض، فهو ـ في الواقع ـ قد فرح كثيرًا للعرض الذي قدمه له الشيخ صديق هذا الصباح، إذ وجد فيه ما يحقق آمال ولده في مستقبل زاهر، وجاء يعرضه بحماسة على حسونة، حتى إذا ما عارض الابن وأعلن تمسكه بالبعثة عاد يفرح مرة أخرى لأن ولده سوف يبتعث ويحصل على شهادة «كبيرة» دون أن يلاحظ ذلك التناقض الذي وقع فيه، فلقد كان رجلًا بسيطًا، بل ساذجًا، لم يجد نفسه على طول ما عاش في هذه الدنيا في موقف الاختيار بين قرار وقرار في أي يوم من الأيام.

كانت حياته، منذ وعى على الدنيا، بسيطة مثله... ساذجة مثله... تسير على وتيرة واحدة لا تتقلب عند الاختيار أمام الأشياء البسيطة والساذجة التي ما صادف سواها طوال حياته، حتى إذا وجد رجلًا ـ كالشيخ صديق ـ يعرض عليه أن يعمل ولده حسونة معه، قبل العرض فورًا وتحمس له، فإذا ما رفض الابن هذا العرض رفضه على الفور وبنفس الحماسة، بل وزاد على ذلك، دون شعور منه، بأن الرفض كان يتفق مع رأيه منذ البداية... لقد كان رجلًا بسيطًا جدًا... وعفويًا جدًا.

وقال الدخش لولده في عطف:

ـ هو كده يا ابني... طيب... طيب... ربنا يختار ما فيه الخير... بكره أروح للشيخ علشان أشكره وأقول له أننا نفضل البعثة... ولا يهمك يا حسونة.

وقال حسونة بسرور واضح:

- ربنا يطول عمرك يا بوي... إذا تبغى... أروح معاك للشيخ صديق علشان أشكره على اهتمامه وأعتذر له أني ما راح أسيب البعثة.

- ما يحتاج... ما يحتاج يا ابني... أنا أقول له بنفسي.

* * *

ومع أن الدخش كان يعد في سريرته الكلمات التي سيدلي بها إلى الشيخ صديق وهو يشكر له فضله واهتمامه، فإنه لم يجد حاجة لأي إيضاح أو شرح عندما أبلغ الشيخ صديق بجواب ولده وإيثاره الذهاب في البعثة، فقد هزّ الشيخ صديق رأسه وهو يجيب:

- خلليه على راحته... ما دام يبغى يكمل تعليمه.

وانتقل إلى حديث آخر ببساطة دون أن يبدو عليه أن جواب الدخش قد أزعجه أو كان له أي نصيب من اهتمامه، أو أنه متمسك بالعرض الذي تقدم به إلى الصياد وولده.

وأمضى أبو حسونة مع الشيخ صديق بعض الوقت وهما يحتسيان الشاهي ويتحدثان في شتى الأمور دون أن يتطرقا إلى موضوع حسونة، فقد اعتبره - كلاهما - أمرًا عاديًا قد انتهى وطويت صفحته.

واستأذن الدخش من صديقه الشيخ في الذهاب، واتجه في طريق عودته إلى الخور حيث لقي بعض زملائه، فراح يحدّثهم - بسذاجته المعهودة - عن بعثة ولده، والشهادة الكبيرة التي سيعود بها، إن شاء الله، بعد أن يتم دراسته.

أما في بيت الشيخ صديق فقد كان الأمر مختلفًا تمامًا.

لقد بدا على الرجل أنه قد نسي الموضوع فلم يتطرّق إليه، أثناء العشاء مع أنه تحدث في أمور شتى.

وكانت عزة تتلقف كل كلمة تصدر عن أبيها بلهفة، علّ كلامه التالي يتناول المسألة التي تشغلها، والتي لم تعد سرها وحدها، بعد أن شاركتها أمها فيها، فكان قلبها يثب إلى حلقها، أو هكذا كانت

تشعر، كلما انتهى أبوها من موضوع وشرع بالحديث في موضوع آخر، حتى إذا تبينت أنه ليس هو الحديث الذي تترقب، أصابتها خيبة أمل وراحت تتلهف على أن ينتهي أبوها من ذلك الموضوع، لعل حسونة يكون هو مدار الحديث التالي.

ولم تنتبه عزة إلى أن أمها كانت في مثل حالتها تقريبًا، وأنها كانت ـ هي الأخرى ـ تتبّع حديث زوجها بنفس اللهفة، فتتراوح مشاعرها بين الرجاء ونقيضه.

ولكن الشيخ صديق لم يأت قط على ذكر حسونة.

والتقت عينا الأم والابنة في لحظة خاطفة، ولكنها كانت كافية لكي تتبادلا حديثًا صامتًا أبلغ من كل كلام.

لقد تبادلتا الشعور باللهفة، والخيبة، وضرورة فتح موضوع حسونة مع الأب ما دام قد أغفله عامدًا أو ساهيًا.

واستجمعت الأم شجاعتها، وقالت لزوجها بصوت جهدت في أن تبدو نبراته طبيعية:

ـ على فكرة... إيش صار في مسألة حسونة؟

ـ أية مسألة؟

وتبادلت الأم وابنتها نظرة تفاهمتا، خلالها، على أن النتائج ليست كما كانتا ترجوان.

وقبل أن توضح الأم مقصدها قال الشيخ صديق وكأنه قد تذكر ما كان غائبًا عن باله:

ـ آه... حسونة... صحيح.

وتعلقت أنظار الأم وابنتها بشفتي الأب لتتلقفا منهما كل كلمة.

واستطرد الشيخ صديق:

ـ ما صار شيء والله... الولد مصمم على أنه يكمل دراسته ويسافر في البعثة... وأفتكر أنه عمل طيّب... زمانه هو زمان العلم والشهادات.

ـ كيف يعني؟ . . . مصمم يسافر؟

قالت عزة جملتها هذه بسرعة، وبلهجة حادة بعض الشيء، وكأنها تعلن احتجاجها على ذلك الموقف الذي يقفه حسونة.

ولم ينتبه الأب إلى مغزى سؤال ابنته، ويبدو أنه حسبه سؤالًا عابرًا، فأجاب عليه ببساطة:

ـ هوّ حر. . . يختار اللي يعجبه. . . أنا صحيح كنت أفضل أنه يشتغل معايا. . . لكن. . . أهو. . . ما يبغى. . . وهو على كل حال أدرى بمصلحته.

وعاد حديث النظرات الخاطفة يدور بين الاثنين: الأم وابنتها.

وبنفس البساطة تحول الأب إلى حديث آخر، وقبل أن يسترسل فيه سمع عزة تقول له بصوت مرتجف:

ـ ما حاولت تقنعه يا بوي؟

وتساءل الأب:

ـ أقنع مين؟

كان واضحًا تمامًا أن هذا الموضوع لا يشغل من تفكير الشيخ صديق أيّ حيّز.

ـ حسونة.

أجابت عزة بصوت أقرب إلى الاختناق.

ـ آه. . . حسونة. . . وليه أقنعه؟ . . . هو حرّ. . . على كل حال أنا عملت اللي عليّ.

وبدون وعي منها، وضعت عزة ملعقتها التي لم تكن تناولت بها طوال فترة العشاء أكثر من بضع لقيمات، واستأذنت بصوت خافت، وتوجهت إلى غرفتها وهي تكاد تترنح.

وراح أبوها يرمقها في قلق ثم قال:

ـ عزة.

ـ نعم يا بوي.

أجابت عزة بصوت ضعيف وهي تتوقف عن السير.

ـ ما لك؟

ـ ولا حاجة يا بوي.

ـ حاسّة بحاجة؟

ـ لا يا بوي... تصبحوا على خير.

وواصلت سيرها حتى غابت وراء الباب.

والتفت الشيخ صديق إلى زوجته يسألها في استغراب:

ـ ما لها؟... بها حاجة؟

فقالت الأم بوجوم وهي تطرق برأسها:

ـ يمكن تعبانة شوية.

وعندما بدأت السهرة، بدأ الشيخ صديق أحاديثه المتشعبة دون أن يبدو عليه أن موضوع حسونة يهمه كثيرًا أو قليلًا.

وكان رأس الأم مسرحًا لصراع عنيف، فهي ـ كأنثى أولًا وكأم ثانيًا ـ كانت تعرف ما انتاب ابنتها بعد النبأ الذي أعلنه الأب دون اكتراث... وكانت واثقة من أن عزة، هذه اللحظة، غارقة في نوبة من البكاء تخفيفًا لمشاعر الصدمة التي أصيبت بها، فآثرت أن تتركها وحدها بعض الوقت ريثما تتخذ قرارها بين أن تفاتح زوجها في الموضوع بكل صراحة، وبين أن تؤجل ذلك إلى فرصة أخرى.

ومضى الشيخ صديق يتحدث كعادته، وهو يحتسي الشاهي ويجذب أنفاسًا من شيشته دون أن ينتبه إلى أن زوجته لم تكن تصغي إليه كما تعودت أن تفعل، فصوته يصل إلى سمعها حقًا، ولكنها لم تكن تفقه كلمة واحدة.

وحزمت الأم أمرها أخيرًا، فطلبت إلى بناتها الأخريات أن يتوجهن إلى النوم، حتى إذا خلت إلى زوجها قالت له بصوت خافت ولكنه قوي النبرات:

ـ اسمع يا صديق.

فنظر إليها باستغراب، وقد لمس في صوتها رنة لم يعهدها من قبل، فيها من العزم والتصميم والجدية ما لم تعتد زوجته على أن تحدثه بها.

وقال لها متسائلًا:

ـ خيرًا... إن شاء الله؟

أبغى أكلمك عن حسونة.

ـ تاني؟... إيش الحكاية يا جماعة... ما قلنا لكم ما يبغى... إيش أسوّيله؟... أشغّله عندي بالقوة يعني؟... ثم بدي أفهم إيش هوّ سر اهتمامك أنتي وبنتك في الموضوع ده... عمركم ما تدخلتوا بشغلي... اشمعنى المرة دي تبغوني اشغّل حسونة بالعافية؟

وعادت الزوجة تستجمع شجاعتها وتقول له بكل ما في غريزة الأم والأنثى من حماسة في الدفاع عن وجهة نظرها فيما تعتبره أمرًا بالغ الأهمية، دون أن تفقد حذرها من أن تفلت منها كلمة في غير محلها:

ـ أفتكر... أنه... البنت... مهتمة بحسونة.

ـ يعني أيه مهتمة؟

ـ أنت عارف قصدي.

ولمعت عينا الرجل، أخيرًا، في فهم... وبدا عليه أنه قد أدرك كل شيء فبدت الدهشة الشديدة على وجهه، حتى إنه لم ينبس بكلمة واحدة... ثم قال ببطء وكأنه يضغط على كل كلمة:

ـ إيش عرّفك إنتي أنها... أنها مهتمة بالولد ده.

ـ أنا عارفة... وبس.

ـ هيّ قالتلك؟

ـ تقريبًا.

ـ والغرض؟

ـ ما يخفاك.

وفكر الشيخ قليلًا ثم قال:

ـ يعني فيه حاجة بينها وبينه؟

ـ أبدًا... أبدًا.

ـ أجل كيف.

وقاطعته المرأة بسرعة:

ـ هو ما يدري حاجة... ولو كانت المسألة غير كده كان وافق على طول على أنه يشتغل معاك.

وبدا على وجه الشيخ صديق الاقتناع بهذا المنطق، فلم يجد في الأمر ما يزعجه ما دام لا يتعدى مجرد شعور من جانب الفتاة قد كتمته في نفسها، ولعلها ـ كما قدّر ـ قد صارحت أمها به.

وقال لها بنفس اللهجة المتباطئة:

ـ وإيش تبغيني أسوّي؟

ـ أول حاجة... أنت عندك مانع لو... يعني... لو حسونة يتزوج عزة؟

وأطرق الشيخ مفكرًا... وبدا عليه شيء من الحيرة، إذ فوجئ بهذا الأمر دفعة واحدة ودون أن تكون لديه فكرة مسبقة عنه.

وراحت الزوجة ترقبه بلهفة وعيناها مسمرتان على شفتيه، وكأنها متهم ينتظر أن يسمع من القاضي الحكم عليه.

وأخيرًا تكلم الشيخ صديق، وكانت لهجته توحي بأنه ما زال يناقش الموضوع في ذهنه، وأنه يفكر بصوت عال، كما يقال:

ـ الحقيقة أنه الولد طيب... أيوه... طيّب... أنا متأكد من كده... وأوتقع له مستقبل مهم... أهم حاجة في الرجال عندي أنه يقدر المسؤولية، ويشيل حملها... وحسونة، من الناحية دي، سبق عمره... سبق عمره بزمان... يعني كان رجال وهو لسه صغير.

وبدا الارتياح على وجه الأم، فمع أن كلام زوجها لا يعني

الموافقة النهائية، إلا أنه يوحي بأن هذا الموضوع ـ على الأقل ـ قابل للمناقشة.

وأضاف الشيخ صديق:

ـ طبعًا كنت أتمنى لو يكون زوج بنتي من... من عيلة كبيرة... و... بس في أيامنا هذه فيه حاجات كثيرة تغيرت... المهم هو الأخلاق... والثقافة... وحسونة من الناحية دي ما عليه كلام.

وقالت الأم بوجه متهلل:

ـ يعني... أبشّر البنت؟

ـ حيلك... حيلك... ما تنسي أنه حسونة ما هو زي الشباب التانيين... رفض فرصة كبيرة عرضتها عليه لأنه يبغى يكمل تعليمه... وما أستبعد أنه لو عرضنا عليه الزواج يمكن يرفض.

فهتفت الأم باستنكار غريزي:

يرفض؟... ليه هوّ طايل الأول؟

وضحك الشيخ صديق وقال:

ـ سيبولي الموضوع ده أسبوع أو أسبوعين وأنا أشوف إيه اللي ممكن يتعمل.

وساد الغرفة جو من الارتياح بعد هذه الجملة التي أوحت لأم عزة أن الأب قد أدلى بموافقته من ناحية المبدأ... وأنه يعلق هذه الموافقة على الطريقة التي سيسلكها لتحقيق غاية ابنته.

* * *

ولم يدر أحد من الزوجين أن ذلك الارتياح قد انتقل إلى خارج الغرفة أيضًا... فوراء الباب كانت عزة تتبع حديث أبويها بلهفة، فتبتسم تارة وتعبس أخرى، حسب تطور الحديث، إن أن أدلى بجوابه الأخير الذي يبشر بالأمل.

وسارعت إلى غرفتها وارتمت على سريرها وهي تبتسم وتتنهد بارتياح.

الفصل التاسع

ـ جيتي في وقتك يا فاتن. . . لأنه عندي حاجات كثيرة أبغي أقولها لك. . . بصفتك صديقتي المفضلة.

همست عزة في أذن صديقتها فاتن بهذه الجملة وهي تستقبلها بالقبل والعناق أمام والدتها، عندما جاءت الصديقة لزيارة ابنة الشيخ صديق.

وابتسمت فاتن في فهم، فهي تعرف بعض المعلومات السطحية عن حسونة وهي معلومات سمعتها من صديقتها عزة في مناسبات مختلفة، وكانت عزة تستحلفها دائمًا أن تكتم ما تقوله لها، وأنها قد سمحت لنفسها بالإفضاء بأسرارها الشخصية لها لأنها تعتبرها ـ كما قالت ـ صديقتها المفضلة.

وهكذا أدركت فاتن أن تلك «الحاجات الكثيرة» التي تريد عزة أن تقولها لها، تتعلق بحسونة بشكل أو بآخر، لا سيما وأنها أمضت بعبارتها، تلك، همسًا.

وجلست الفتاة بعض الوقت مع الأم، تجيب على أسئلتها التقليدية حول صحة الوالدة والأخوات والعائلة، وعزة تتحرق للانفراد بصديقتها كي تفضي إليها بما كان، وتخفف عن قلبها تلك الأحاسيس التي كانت تثقله منذ أن رأت حسونة أول مرة، ولاحظت كبرياءه الطبيعية التي كانت أول ما لفت انتباهها إليه، لا سيما وأنه لم يبد ـ إذ ذاك ـ أي اهتمام بكونها ابنة الشيخ صديق، وهو من هو في عالم المحيط الذي يعيشون فيه.

واستأذنت فاتن من الأم بعد قليل، وانسحبت من المكان متوجهة إلى غرفة عزة وقد بلغ منها الفضول كل مبلغ، تريد أن تعرف شيئًا جديدًا عن صديقتها المعروفة بين زميلاتها بالكبرياء بل بالعجرفة، وبأنفها المرفوع دومًا، ولهجتها الحادة التي تلجأ إليها إذا ما استثيرت.

ولم تكد الفتاتان تدخلان إلى غرفة عزة، حتى ارتسم السؤال الكبير على وجه فاتن، فقالت بلهجة من تنتظر أن تعرف كل تفاصيل سؤالها:

ـ هه؟.

وأجابت عزة وعيناها تلمعان في انتصار:

ـ سأتزوجه.

وذهلت فاتن، فهي لم تكن تتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد بتلك البساطة والسرعة، فقالت دون أن تحاول إخفاء دهشتها:

ـ هكذا؟... بهذه البساطة؟

وأمسكت عزة بيدي فاتن وهما جالستان على طرف الكنبة، وأخذت تروي لها ما جرى، وما كان من أبيها عندما صارحته أمها بالموضوع.

وأطرقت فاتن تفكر، وعزة تنظر إليها وما زالت ومضة الانتصار تطل من عينيها.

ولما طال صمت فاتن قالت لها صديقتها تستحثها على الكلام:

ـ هه... ما رأيك؟

وأجابت فاتن ببطء:

ـ إنك لم تذكري لي شيئًا عنه... عن حسونة.. هل اتفقتما على هذه الطريقة.

ـ أنت تعلمين أنه لا يدري شيئًا عن الأمر.

ـ آه... صحيح... طيّب... هل بلغه الأمر؟... هل وافق؟... وماذا كان موقفه من الموضوع عمومًا؟

وردت عزة باستنكار دون أن تنتبه إلى أنها تعيد نفس الجملة التي قالتها أمها من قبل لأبيها:

ـ رأيه؟... ليه؟... هوّ طايل؟

فهزت فاتن رأسها بغير اقتناع وهي تجيب:

ـ وجهة نظرك أنت شيء... والواقع شيء آخر... أنت نفسك قلت لي أنه شاب غير عادي... وأنه لا يبدي كثير اهتمام بمال أبيك ومركزه... ألم تقولي أنه رفض العمل وفضّل أن يكمل دراسته؟

وتلاشت معالم الانتصار من عيني عزة، وعبست فجأة، كأنما كانت تلك الحقائق التي تذكرها بها صديقتها قد غابت عن ذهنها.

وساد الصمت الغرفة، وبدا وكأن عزة لا تملك تعليقًا على الحقيقة التي ذكرتها صديقتها.

ومدّت فاتن يدها إلى ذقن عزة ترفعها، وتسدد نظراتها إليها سائلة بهدوء:

ـ قولي لي يا عزة... هل... تحبينه؟

وأجفلت عزة، فالسؤال صريح كسهم نفذ إلى هدفه في خط مستقيم، وبدا عليها وكأنها قد فوجئت به.

ونهضت في صمت، وراحت تسير في الغرفة جيئة وذهابًا دون أن تجيب، وعينا فاتن تتابعانها.

ـ إنك لم تجيبي على سؤالي.

قالت فاتن بهدوء.

وتوقفت عزة عن السير، ونظرت إلى صديقتها نظرة حائرة وهي تقول:

ـ الحقيقة... الحقيقة يا فاتن... إنني... إنني... لا أدري.

وعلّقت فاتن بنفس الهدوء:

ـ هذا ما توقعته.

ـ ماذا تعنين؟

ـ أعني أنني أعرفك... وأعرف طباعك... وأعرف اندفاعك... وأنا واثقة من أنك لم تتوقفي لحظة واحدة لكي تطرحي على نفسك السؤال الذي طرحته عليك.

وعادت عزة إلى الجلوس وهي تقول:

ـ سؤالك قاس يا فاتن... وتعليقك أقسى... ولكننا صديقتان اعتادتا على المصارحة في كل شيء.

ـ إذن تستطيعين مصارحتي بالجواب.

ـ لقد أجبتك... لا أدري... ولكنني... ولكنني شديدة الاهتمام به.

ـ لاحظي إن الاهتمام شيء... والحب شيء آخر... والزواج شيء ثالث كذلك.

ـ أعرف ذلك... وأنا مصممة على الزواج منه... هذا ما أستطيع أن أؤكده لك... وهو ـ بدون شك ـ شاب ممتاز... بل إن والدي وصفه بأنه ذو مستقبل ولديه إمكانات نادرة.

وهزّت فاتن رأسها يمنة في أسى وهي تقول لصديقتها في بطء:

ـ إذا صدق حدسي فإن حبّك لامتلاك كل ما يروق لك هو السبب... ولو أن حسونة أبدى نحوك شيئًا من الاهتمام أو الحب لأعرضت عنه... وهزئت به... أليس كذلك؟

ولم تجب عزة، فقد تكاثرت الحقائق التي نبهتها فاتن إليها والتي يدهشها أن تعترف ـ وهي تحرص على ألا يبدو على وجهها شيء ينم عما في ذهنها ـ في داخلها، أنها لم تفكر فيها تفكيرًا جديًا، ولكنها لم تتمالك نفسها من الاعتراف بأن صديقتها فاتن قد أصابت، بشكل أو بآخر وأنها كانت جديرة بأن تعرض عن حسونة لو أنه حاول أن يبثها شيئًا يدل على أنه يحبها أو يهتم بها... على الأقل.

وهكذا وجدت أنها، هي نفسها، عاجزة عن أن تعرف ما إذا كانت عاطفتها نحو حسونة هي حب أو رغبة في التملك.

ولأول مرة خامرها شعور بالخوف تجاه هذا الشاب «المتعجرف» الذي لا تستطيع الادعاء لنفسها أن لديها أي دليل على أنه مهتم بها.

ونظرت إلى صديقتها فوجدتها ترقبها في هدوء، فشعرت برجفة تنتابها فلقد نفذت هذه الصديقة إلى أعماقها ووضعتها وجهًا لوجه أمام الحقائق التي لم تحاول يومًا أن تفكر فيها، واعترفت بأن فاتن كانت مصيبة ـ ربما ـ في تقديرها أن حب التملك قد يكون هو سبب اهتمامها بحسونة.

وأخيرًا هزت كتفيها بغير اكتراث وقالت بصوت خافت ولكنه مسموع:

ـ حب... أو رغبة في التملك... هذا لا يهم... فأنا أريده... وما اعتدت على أن يرفض لي طلبًا... مهما كان.

وأطرقت فاتن في ألم، فقد استنتجت ما يدور في ذهن صديقتها، وتوقعت أن تكون المسافة بعيدة، بل جدّ بعيدة، بين ما تفكر فيه عزة... وبين الواقع.

وتنهدت وهي ترجو أن تكون على خطـ فيما ذهبت إليه.

الفصل العاشر

كان الشيخ صديق يشعر بالضيق، للحرج الذي وضعته زوجته وابنته فيه، فما تعود الناس أن يخطبوا لبناتهم، وإنما العكس هو الصحيح.

ولو كان الأمر متعلقًا بغير حسونة لكان الأمر، في نظره، مختلفًا، بل وطبيعيًا، أما هذا الفتى فشيء آخر إذ يعترف الشيخ صديق أنه يتهيب الحديث إليه، بعد أن رفض من قبل فرصة نادرة عرضها عليه.

واعترف الشيخ صديق ـ أيضًا ـ أن اعتزاز الفتى بنفسه يبث حوله نوعًا من الاحترام الخفي، وهو ما يشعر به الشيخ صديق نفسه الآن، مع شيء من الضيق لأن «التفاهم» صعب مع هذا الفتى حول أمور لا يريدها، وما دام زاهدًا في المغريات المادية ـ التي تكون عادة مفاتيح بعض الأشخاص ـ فقد كان حائرًا يتساءل: ـ هل يعرض ابنته على الفتى ببساطة مع أن العكس هو الذي ينبغي أن يحدث؟... وإذا رفض الفتى، وهو أمر لا يستبعده الشيخ صديق، فماذا يفعل في هذه الحالة؟... وماذا يكون من أمر ابنته؟

وشعر بموجة من الحنق تجتاحه عندما خطرت عزة على باله.

إنه لا يدري سرّ شخصية هذه الفتاة التي نشأت على نوع من العجرفة التي طالما تسببت في توجيه الانتقادات إليها، والتي لا يدري سببها، فإذا كان شعورها هو أن أباها ثري ذو مال كثير ومركز متميز في الحي، فإذن ذلك لا يبرر سلوكها ذاك... فهناك من هم أغنى منه

وأكثر تميزًا ومع ذلك فإن بناتهم في منتهى الرقة والتواضع... فمن أين أتت هذه الفتاة بتلك الكبرياء؟... وعلام الكبرياء؟

كان الشيخ صديق مستغرقًا في هذه الخواطر، وهو يلقي بين الحين والآخر نظرة على الطريق، فقد بعث صبيانه إلى حامد الدخش يستدعيه إليه، ليفاتحه في الموضوع الذي أثقلت به زوجته وابنته كاهليه.

وعاد بخواطره إلى ابنته.

لقد عوّدها على أن يلبي كل رغباتها، ويهيئ لها أسباب العيش الرغد، تصورًا منه أن هذا من واجبه ما دامت ابنته، وما دام قادرًا على أن يفعل ذلك.

وتساءل الشيخ صديق في سره: ترى... هل كان مخطئًا في إغراق ابنته بالدلال حتى أصبحت تعتقد بأن من اليسير الحصول على أي شيء ببساطة ودون عناء؟... وأنها تعتقد خلال تعاملها مع الناس أنها صاحبة الرأي الأصح؟ وأنها تكره حتى مجرد الاعتراض على رأيها؟

واستفاق من خواطره على الدخش وهو يبدو من بعيد، يحث السير نحوه بهمة يغالب فيها صحته وسنه.

ووصل الدخش أخيرًا... وألقى السلام وبادله الشيخ صديق إياه في عطف وقد أشرق وجهه بالابتسام، وأشار إلى المقعد الطويل الذي يتصدر متجر الشيخ والذي اعتاد أن يجلس عليه، فجلس الرجل وهو يكرر تحياته ويلقي تلك الأسئلة الرتيبة حول الصحة والأحوال والبيت والأبناء.

وطالت الجلسة، والرجلان يرشفان الشاهي وهما يتحدثان في شتى الأمور عن البحر، والصيد، والسوق، والأسعار، وعن الأمور الدولية التي يسمع عنها الشيخ صديق بواسطة الراديو الذي يملكه.

كل هذا والدخش يحس في قرارة نفسه بأن هناك غاية أخرى غير هذا الحديث استدعاه الشيخ صديق من أجلها، وكان يرجح أن تلك

الغاية تتعلق بولده حسونة بصورة أو بأخرى، رغم أن الشيخ صديق لم يذكر حسونة قط، ولا أتى على اسمه في حديثه خلال الجلسة.

ووجد الشيخ صديق أن الحديث في غير الموضوع الأساسي قد طال أكثر مما يجب، وأن عليه أن يفاتح الدخش فيما استدعاه من أجله، وبخاصة أن الدخش كان ـ كعهده دائمًا ـ شديد الإصغاء للشيخ صديق، سريع التعليق ـ إعجابًا وثناء بمناسبة وبدون مناسبة ـ على كل ما يقوله له صديقه الكبير.

وتنحنح الشيخ صديق شيء من الارتباك ثم قال وكأنه قد تذكر حسونة فجأة:

ـ على فكرة... إيش أخبار المحروس؟

ـ محروس مين؟

ـ المحروس ابنك الكبير... حسونة طبعًا.

قالها الشيخ صديق هو يبتسم.

ولم يكن أحب إلى الدخش من الحديث عن ولده والفخر به، فاندفع يعيد ما سبق أن قاله لكثير من معارفه حول ما وفق الله تعالى إليه بحصول حسونة على البعثة، وأنه مشغول بالاستعداد لها، واستكمال أوراقها، وإجراء معاملاتها.

ووجد الدخش أن من الضروري أن يكرر اعتذاره للشيخ صديق عن عدم موافقة ولده على العرض الذي تفضل بتقديمه له، معللًا ذلك ـ كما سبق أن كرر مرارًا ـ بحداثة سن «الولد» وقلة تجربته، ورغبته في مواجهة الحياة على طريقته الخاصة، وبمجهود الذاتي.

واختتم الحديث قائلًا:

ـ هوّ حسونة كده... راسه ناشفة... والشيء اللي يحطه بدماغه لازم يعمله مهما كانت الأمور.

وابتسم الشيخ صديق في تفهم وعلق:

ـ بالعكس... المسألة ليست مسألة «راس ناشفة»... وإنما

مسألة شخصية قوية... وأنا أهنّيك يا أخ حامد على هذا الابن.

ـ كتّر خيرك يا شيخ صديق.

وأضاف الشيخ يقول في تمهل:

ـ تعرف؟... أنا أعتبر حسونة مثل أي واحد من أبنائي.

ـ لا شك في ذلك يا شيخ صديق... ولولا أفضالك علينا لما تسنى له أن يصل إلى البعثة... لأن مساعدتك لي جعلته ينصرف إلى دراسته حتى حقق الله تعالى أمله.

ـ هوّ يستاهل كل خير.

ـ كلك خير وبركة يا شيخ صديق.

واستأنف الشيخ صديق حديثه المرسوم قائلًا بنفس التمهل والبطء:

ـ أنا لا أتكلم كلامًا عاطفيًا... وإنما أتحدث عن شيء محدد في ذهني.

ولم يفهم الدخش ما يقصد الشيخ صديق واستمر يصغي إلى الحديث:

ـ أنت تعلم أن كل أب يتطلع إلى زواج بناته... وقد يختار لهن الأزواج بنفسه دون أن ينتظر أن يأتوا لخطبتهن.

وأيضًا لم يفهم الدخش شيئًا، ولم يخطر له أن الشيخ صديق يتحدث عن شيء معين، ولذا فقد علّق:

ـ هذا صحيح... بل إن البعض يكرم من يثق فيه من أصدقائه بأن يعرض عليه أن يتزوج إحدى بناته... أو يزوجها لأحد أبنائه.

ـ عليك نور يا حامد... أنت تفهمني بسرعة.

ونظر الشيخ صديق إلى الدخش بعد أن اعتقد أن هذا قد فهم مقصده، وكأنه ينتظر منه أن يساعده ويكمل الحديث.

ولكن الدخش لم يقل شيئًا، وظلت عيناه معلقتين بشفتي الشيخ صديق تتلقفان حديثه دون أن تكون لديه أدنى فكرة عما وراء هذا الحديث.

ولما طال الصمت، أدرك الشيخ صديق أن الصياد العجوز لم يفهمه بعد، فرأى أن يختصر الطريق ويتحدث مباشرة في الموضوع:

ـ قلت لك كم أنا معجب بحسونة.

وفتح الدخش فمه ليرد على هذه المجاملة بسيل من عبارات الشكر، ولكن الشيخ صديق أسكته بحركة من يده وكأنه يطلب منه أن ينتظر نهاية حديثه، واستطرد قائلًا:

ـ لقد خطر لي أن يتزوج ولدك حسونة من ابنتي الكبرى... عزة... فماذا تقول؟

وفغر الدخش فاه بذهول، إذ لم يخطر له قط أن يؤول الحديث إلى ما آل إليه، وأن يكون موضوع زواج ابنه من ابنة الشيخ صديق مادة للحديث أو التفكير.

وإذ لاحظ الشيخ صديق ذلك، ابتسم وربت على كتف الدخش في مودة أخوية وهو يقول:

ـ إنني لن أجد لابنتي زوجًا خيرًا من ابنك... فأنا شديد الإعجاب به كما قلت لك أكثر من مرة... فما رأيك؟

وتدحرجت دموع التأثر من مقلتي الدخش الواهنتين وهو يستمع إلى كلام صديقه، فقد بدا إن هذا الفضل الذي يعرضه عليه الشيخ صديق يفوق أي فضل سالف، فهزّ رأسه في تأثر وهو يقول:

ـ رأيي؟... وهل يحتاج الأمر لأن تسألني رأيي؟

وبحركة لاشعورية تعانق الصديقان في تأثر، والدموع تسيل على لحية الدخش الذي كان يردد بصوت شبه باك:

ـ أكرمك الله يا شيخ صديق... أكرمك الله.

وما لبث أن نهض وقال وهو يتحرك للذهاب:

ـ أستأذنك في الذهاب... أريد أن أزفّ البشرى للعائلة... ولحسونة... هذا شرف عظيم لم نكن نحلم به.

وانفتل متوجهًا إلى بيته سريع الخطا، والشيخ صديق يتابعه

بأنظاره صامتًا وقد شعر بأن حملًا ثقيلًا قد انزاح عن صدره، فهو قد فعل ما رغبت إليه زوجته، وابنته ضمنًا، أن يفعل ولعله يرتاح بعد الآن من هذا الموضوع الذي بات هو الحديث الرئيسي بينه وبين زوجته.

ونهض هو الآخر متثاقلًا ليتوجه إلى بيته ويبلغ أهله النبا.

* * *

كان أول ما قاله الدخش وهو يدخل بيته والفرحة الطاغية تشع من عينيه:

ـ مبروك... مبروك يا جماعة... أين حسونة؟

ودهشت الزوجة والبنتان، والتففن حوله يردن أن يفهمن سر هذه الفرحة التي جاءت به إليهن في غير موعده.

وقالت الزوجة:

ـ خيرًا إن شاء الله... يا بو حسونة.

ـ أين الولد؟... أين حسونة؟

ـ خارج المنزل... خير... إيش فيه؟

وبعبارات حماسية سريعة، راح الدخش يعلن النبأ الهام، وسرد التفاصيل حول الحديث الذي دار بينه وبين الشيخ صديق، والذي لم يخطر له على بال حين استدعاه الشيخ صديق لمقابلته.

وبدا الذهول على الزوجة، فصمتت مبهورة، ولاحظ الدخش ذلك فقهقه في سعادة وهو يقول:

ـ أرى أن لسانك قد انعقد من الدهشة... معك حق... أنا نفسي حصل لي ذلك... تصوري أن نصاهر، نحن البسطاء الفقراء، عائلة كعائلة الشيخ صديق.

وأفاقت الزوجة إلى نفسها، فأطلقت زغرودة حارة عبّرت فيها عن سعادتها بالنبأ، وفي خيالها ولدها الحبيب وقد أصبح زوجًا لابنة الشيخ صديق ذات الجمال والكمال والأصل والعلم... وفي نفس اللحظة كان باب البيت يفتح، ويدخل حسونة حاملًا تحت إبطه مظروفًا

فيه بعض أوراق بعثته، فتوقف إذ سمع زغرودة أمه، ثم ابتسم وهو يتجه إليها خالي الذهن من أي شيء، فقد اعتاد على أن يسمع زغاريد أمه في مختلف المناسبات، فلم تعد تدهشه أو تثير تساؤله.

وأقبلت عليه أمه تحتضه وتمطر وجهه بالقبلات وهي تردد في تأثر:

ـ مبروك يا ابني... مبروك... مبروك.

وتطلع حسونة إلى أبيه متسائلًا وهو يحاول الانفلات من ذراعي أمه:

ـ إيش الحكاية يا بويا؟

وجاءه رد أبيه يزيد الموقف غموضًا:

ـ مبروك يا ولدي... مبروك يا حسونة... ألف مبروك.

ـ مبروك على إيش؟

وجلس الجميع في حلقة يتحدثون في وقت واحد، وحسونة يصغي مشدوهًا حتى إذا تبين له فحوى الحديث تحجر وجهه في نظرة غير راضية وقال وهو ينهض:

ـ ومين قال لكم إني أبغى أتجوز؟

ـ إيه؟

صاح الجميع بالسؤال في استنكار بصوت واحد وقد بدا لهم أن مسًّا قد أصاب حسونة الذي راح يشرح وجهة نظره ببساطة:

ـ أيوه... مين قال لكم أني أبغى أتجوز؟

وغامت الدنيا في عيني الأب، فهو يعلم أن قرارات ابنه ومواقفه تكون، عادة، حاسمة لا رجوع عنها، لأن لها خلفية من القناعة العميقة في نفسه، فقال بصوت متخاذل:

ـ كلام إيه ده يا حسونة يا ابني؟... ناس أكابر يبغوك تصير صهرهم وأنت ترفض؟... كلام إيه ده الله يهديك؟

وأجاب حسونة ببساطة:

ـ أنت تعلم يا أبي إن أمامي بضع سنوات من الدراسة. . . وأنا أريد الانصراف إليها بكل قواي. . . فكيف يتسنى لي الزواج من ابنة الشيخ صديق أو سواها؟

وخيّم الوجوم على المكان، وقفز ذهن الدخش في الحال إلى الشيخ صديق واللقاء الودي الذي كان بينهما قبل قليل. . . ماذا يقول لصديق الآن؟. . . كيف ينهي إليه النبأ الذي لم يكن يتوقعه أحد؟. . . كيف يقول له أن حسونة يرفض مرة أخرى، إحدى مكارم الشيخ صديق؟. . . كيف سيجد الكلمات الملائمة للتعبير عن ذلك دون أن يتسبب في إغضاب الشيخ صديق وإزعاجه؟

وأحنى الدخش رأسه في يأس وهو يتمتم:

ـ ما أدري أنت طالع عنيد كده ليه يا ابني؟. . . أنت فاكر نفسك مين؟ فاكر نفسك إيه؟. . . أنت مهما طلعت أو نزلت ابن حامد الدخش الذي يلتقط رزقه بمشقة من بين مياه البحر.

ونفذت كلمات الأب كالخنجر في قلب الفتى، فجلس إلى جانب والده وراح يتكلم بحرارة:

ـ أستغفر الله يا بويا أن تكون رغبتي في الاستمرار بالدراسة نابعة من تكبر أو غرور. . . ولا شك في أن موافقة الشيخ صديق على زواجي من ابنته هو شرف لي. . . ولكن الزواج لا يتم هكذا. . . فأنا ما زلت صغيرًا على الزواج. . . وعليّ أن أكوّن نفسي أولًا.

فقال الأب ببطء وهو مطرق في وجوم:

ـ عرض عليك الشيخ صديق قبل أن يساعدك على تكوين نفسك. . . وهيأ لك فرصة نادرة. . . ولكنك أبيت.

ـ صحيح. . . لأنني أريد أن أبني حياتي بمجهودي الشخصي. . . لا بالصعود على أكتاف الآخرين.

وهزّ الدخش رأسه في ألم، وكأنه يعبّر عن عدم اقتناعه بهذا المنطق الذي لا يفهمه.

وتدخلت الأم، محاولة إقناع ولدها بقبول ما يعرضه الشيخ صديق، بواسطة أبيه، من فرص وهي تستخدم لهجة ترغيب ومبالغة في بيان مزايا هذا الفرص.

ولكن حسونة هزّ رأسه في أسى، فقد كان يؤلمه أن تقوم هذه الهوة بينه وبين أهله، فيكون هو في واد وهم في واد آخر، وأن تتباين وجهات النظر فيرى الأبوان أن عروض الشيخ صديق هي فرص مادية للحياة، ويراها هو انتقاصًا من رجولته وقدرته على تكوين نفسه بجهده وعرقه.

وقال الأب أخيرًا وكأنه يعرض حلًا وسطًا:

ـ طيّب... لا تريد الزواج الآن... ليكن... ممكن إتمام الخطبة بينك وبين ابنة الشيخ صديق... وعندما تنتهي من دراستك وبعثتك تتزوجان.

ولكن حسونة ظلّ على موقفه:

ـ يؤسفني جدًا يا أبي أن تختلف وجهات نظرنا بهذه الصورة... المسألة مسألة مبدأ... أمامي بعثة طويلة الأمد... سنوات عديدة من الدراسة... لا يدري سوى الله تعالى ما يحدث خلالها لي أو لها... فكيف تريدني أن أرتبط بها من أجل زواج لا يدري أحد إن كان سيتم أم لا؟... ألا أحرمها بذلك من فرص الزواج؟

وأطرق الأب وقد أقنعه، في داخله، منطق ولده، ولكن ما كان يزعجه ويقلقه هو ما سوف يقوله للشيخ صديق... وكيف يقوله.

وهمس الأب بصوت خافت وكأنه يخاطب نفسه:

ـ الله يهديك يا ولدي... الله يهديك... هذا كل ما أستطيع أن أقوله... أودّي وشي فين داحين من الشيخ صديق... وإيش أقول له؟

ـ لا عليك يا أبي... فأنا أعتقد إنه سوف يتقبل الأمر بكل بساطة... فهو راجل عاقل وسوف يفهم موقفي.

ـ إن شاء الله يا ولدي... ولكن.

وقطع الدخش جملته، وهزّ رأسه بحركة تدل على الحيرة والفهم في آن واحد، ثم استأنف كلامه وهو يقول في أسف وكأنه أمام أمر لا حيلة له فيه:

ـ إنكم أولاد زمانكم... وكما يقال... زمان كأهله... وأهله كما ترى.

ـ آسف يا أبي إن كنت قد أزعجتك... ولكن.

ـ ولكن ماذا؟

ـ ولكنني متألم لقولك إني مهما طلعت أو نزلت فأنا ابن حامد الدخش.

ـ وماذا في ذلك؟... إنها الى حقيقة.

ـ إنني أعتز بأني ابن حامد الدخش... كما لا أعتز بشيء آخر في حياتي لأنك رجل شريف... يكافح ليأكل رزقه بعرق جبينه.

وأغرورقت عينا الدخش في تأثر وهو يسمع كلام ولده فقال بصوت متهدج:

ـ بارك الله فيك يا ولدي.

واستطرد حسونة يقول بحماسة:

ـ أجل... أنت القدوة الحسنة لي... وأنا أعتز بك... أعتز بك كثيرًا يا أبي... وأرى الحياة كلها من خلالك... أنت وأمي... فأرجوك ألا تستهين بنفسك على هذه الصورة التي آلمتني في الصميم.

ـ لا عليك يا ولدي... لا عليك... سامحني... ما كنت أقصد.

* * *

في اليوم التالي كان الشيخ صديق جالسًا في مكانه المعتاد بالمتجر وهو يشعر بارتياح عميق... فقد كان على ثقة تامة من أنه لمن يلبث أن يرى صديقه الدخش وولده حسونة يقبلان عليه، فيعانقهما، ويقبّل حسونة يده، ثم يجلسان على جانبيه يشكرانه على

مبادرته الكريمة وينتقل الجميع بعد ذلك للبحث في التفاصيل وترتيب الأمور.

وعاد بذاكرته إلى الأمس، عندما دخل البيت لتستقبله الأم فور وصوله بالسؤال عما تم، ولم يفته أن يلمح ابنته عزة وهي تتوارى وراء أحد الأبواب إما خجلًا منه، وإما لتنصت إلى كلامه، أو للسببين معًا.

وقال بصوت مرتفع وهو يخلع «جبته».

ـ خلاص... كل شيء على ما يرام.

وجلس يروي للزوجة ما جرى بينه وبين حامد الدخش، واللباقة التي عالج بها الموضوع بحيث لا يشعر الدخش بأن في ذلك العرض امتهانًا له أو انتقاصًا من قيمة ابنته.

وتنهدت الأم بارتياح، وتمتمت بكلمات الحمد لله، ونهضت في الحال إلى الباب الذي توارت عزة وراءه، وعادت بعد قليل ومعالم وجهها تفصح عن الصدى الطيب الذي أحدثه النبأ، وفهم صديق أن الأم قد أبلغت ابنتها وإنها تفاهمت معها، وإن كل شيء ـ كما قال هو ـ على ما يرام.

ولم يستغرب أن تعتكف عزة في غرفتها فلا تشاركهم الطعام، ولا تبدو أمامه حتى خروجه هذا الصباح، فالفتاة تشعر بالخجل الطبيعي المفروض في مثلها.

ومضى إلى متجره متوقعًا أن يرى الدخش وولده بانتظاره، ولكنه لم يستغرب كثيرًا عندما لم يجدهما، فربما أراد الأب والابن أن يبدوا على شيء من الاتزان بالمجيء بعد موعد افتتاح المتجر بساعة أو ساعتين.

ولكن الوقت مرّ ولم يأت الدخش وولده.

وبدأ القلق يتسرب إلى ذهن الشيخ صديق.

لم هذا التأخير؟

هل ذهب الاثنان، مثلًا، لشراء هدية يقدمانها بهذه المناسبة؟

لا . . . فلا تزال هناك عدة مراحل قبل الوصول إلى موضوع الهدية. . . فضلًا عن أن الدخش لا يملك، بطبيعة الحال، ثمنها. . . فما الذي أخرهما إذن؟

وإذ مضت بضع ساعات، صار القلق يفترس الشيخ صديق، فهو قد استنفد جميع الأعذار والمبررات والتعليلات التي حاول أن يفسر بها غياب الدخش وولده. . . واستبعد المرض. . . والطوارئ وكل ما يمنع الدخش من إبلاغه بسبب تأخره بأية صورة من الصور.

واتجه ذهنه وجهة أخرى. . . ماذا سيقول لزوجته وابنته؟. . . وكيف ينهي إليهما أن «العريس» لم يأت إليه كما كان يتوقع؟. . . وكيف يبرر لهما هذا التصرف المحرج من قبل الدخش وولده؟

وبدأت عواطفه تتجه بالسخط نحو الدخش، فقد كان عليه أن يأتي في جميع الأحوال، حتى ولو كان الابن قد رفض عرضه ـ وهو ما يستبعده الشيخ صديق ـ إذ ليس من اللائق أن يتوارى عنه بهذه الصورة ويدعه ينتظر مع أن بينهما أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة لكليهما.

وخطر له أن يبعث أحد صبيانه إلى مسكن الدخش ليستفسر منه عن سبب غيابه ولكنه أزاح الفكرة عنه في الحال، إذ أن مثل هذا الاستفسار يعتبر انتقاصًا من مكانته تجاه صديقه الصياد. . . وأيقن، في آخر النهار، أن الدخش لن يأتي، فنهض متثاقلًا وأفكاره تسبقه إلى بيته حيث تنتظره التساؤلات والاستفسارات التي لا يجد لها، هو نفسه، جوابًا أو تعليلًا.

وصحّ ما توقعه.

فحين دخل البيت بمشيته المتثاقلة، ووجهه لا ينمّ عن شيء مما تتوقعه زوجته وابنته، بهتت الزوجة وسألته بقلب واجف:

ـ هه. . . بشّر.

فلم يجب، بل اتجه إلى مكانه في المجلس وتهالك عليه وهو يزفر في ضيق.

وعادت الزوجة إلى السؤال بصوت مرتجف عما لديه من أنباء، ومع أنه كان قد نوى الترفق في الإدلاء بما لديه والتدرج في إبلاغ زوجته ـ وابنته التي تنصت وراء الباب دون شك ـ ثم محاولة تخفيف وقع النبأ بإيجاد المعاذير والتعليلات لعدم حضور الدخش وولده... مع أنه كان قد نوى ذلك ورتّب له في ذهنه العبارات المناسبة، فإنه وجد نفسه يقول الحقيقة دون أن يعني حتى باختيار ألفاظه:

ـ لم يحدث شيء... الرجل لم يأت.

وضربت الزوجة على صدرها في دهشة واستنكار وقالت:

ـ إيش؟

فأعاد كلامه بحرفيته وهو يتحاشى أن يلتقي نظره بنظر زوجته.

واستطرد يقول بحنق مكتوم:

ـ هذه هي نتيجة إحراجكم السخيف لي... لقد حملتموني على أن أعرض ابنتي على ذلك الرجل... فلم يكلف نفسه حتى عناء الاعتذار.

وقالت الزوجة بذهول وهي تختلس نظرة سريعة إلى الباب الذي كانت عزة تقف وراءه.

ـ ولكنك قلت بالأمس أن الرجل قد جنّ من الفرح... وأنه مضى متلهفًا لإبلاغ ولده.

ـ صحيح ولكن.

ـ ولكن ماذا؟

ـ لعل الولد قد رفض.

وقبل أن تعلق الزوجة باستنكار على جملة زوجها سمع الاثنان صوت إغلاق باب غرفة عزة بعنف مما دل على أنها كانت ـ كما حدس الاثنان ـ تنصت إلى الحديث منذ بدايته.

ومضت بضعة أيام، ساد الوجوم خلالها بيت الشيخ صديق، كما ساد مسكن الدخش، فالشيخ صديق قد منع زوجته من مفاتحته في ذلك الموضوع منعًا قاطعًا، والفتاة قد اعتكفت في غرفتها ترفض الخروج وتأبى أن تفتح بابها لأحد، والخجل يلفّ الشيخ صديق من قمة رأسه إلى أخمض قدميه، إذ تبين له الآن كم كان متسرعًا في مفاتحة حامد الدخش في موضوع كموضوع زواج ولديهما، وما كان يتمنى ـ بعد هذا ـ إلا أن يرى الدخش لكي يعرف منه سبب غيابه، وبعدها يتصرف معه بما يتفق وكرامته التي جرحت.

وبينما كان الشيخ صديق يرشف الشاهي وهو مستغرق في هذه الخواطر، كاد الفنجان يقع من يده عندما رأى حامد الدخش يبدو على البعد وهو يتجه إليه، يجرجر خطاه. . . ورأسه ملقى على صدره في انكسار.

ولم يعجب الشيخ صديق عندما وجد نفسه متسمرًا في مكانه ينظر إلى الدخش صامتًا وقد بلغ منه الفضول كل مبلغ، فكأن لهفته على معرفة سر غياب الدخش، وما لديه من أنباء، قد أنسته كل العبارات والتصرفات القاسية التي كان قد أعدّها لمثل هذا اللقاء.

وقال الدخش بصوت خافت دون أن يحاول أن يمد يده للشيخ صديق بالمصافحة:

ـ السلام عليكم يا شيخ صديق.

وردّ الشيخ صديق السلام ببرود بينما جلس الدخش على مقعد بعيدًا عن مكانه المعتاد وعيناه مسمرتان بالأرض.

وتلاشى في لحظات كل ما كان في نفس الشيخ صديق من غضب وسخط على الدخش، إذ كانت هيئته تدل على أنه ما زال ـ كما عهده الشيخ صديق ـ ذلك الصياد العجوز الذي يرتبط بالشيخ صديق بمشاعر من الاحترام الشديد، والاعتراف بالجميل، وإن هناك أسبابًا أقوى منه هي التي حاولت دون حضوره في اليوم التالي منذ لقائه الأخير بالشيخ صديق.

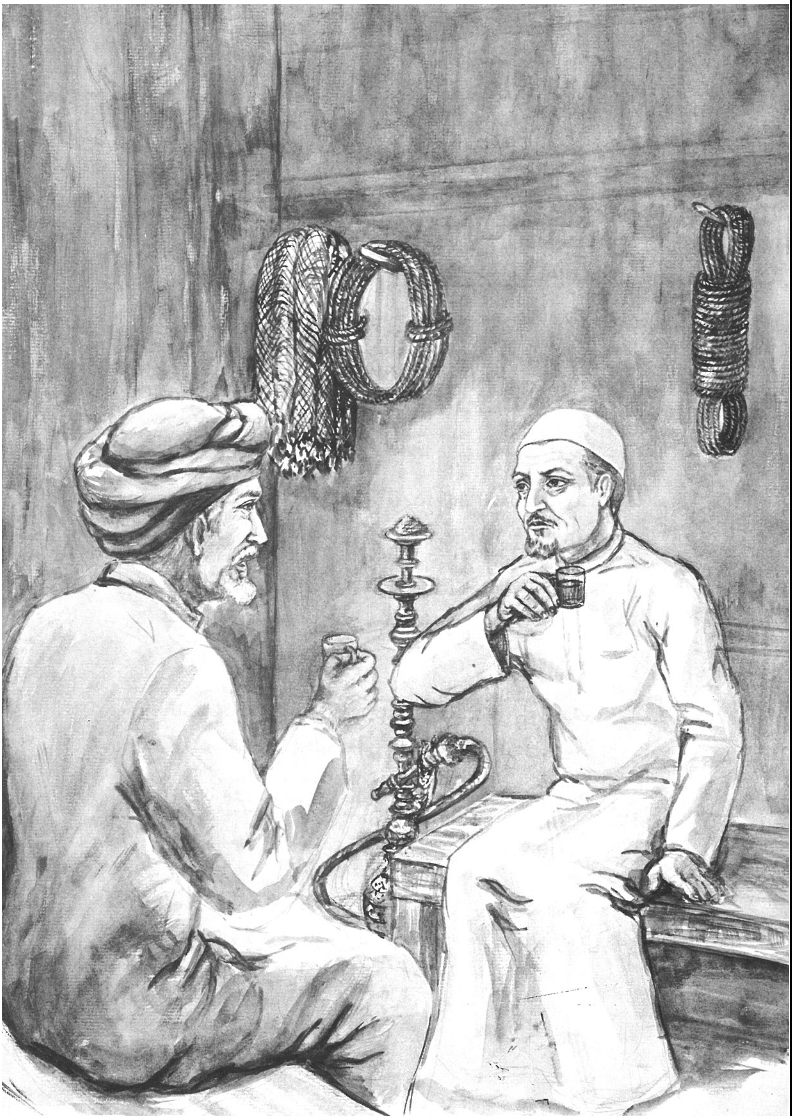

وطال الصمت بين الاثنين حتى قطعه الشيخ صديق بلطف ولكن بلهجة ذات مغزى:

ـ إيش الغيبة الطويلة دي يا حامد؟... شغلت بالنا.

فقال الدخش دون أن يرفع عينيه عن الأرض:

ـ ربنا ما يشغل لك بال يا شيخ صديق.

وعاد الصمت يخيم من جديد، بينما كان فضول الشيخ صديق قد بلغ منتهاه، فقال وكأنه يستحثه على الكلام:

ـ هه... إيش عندك؟

ورفع الدخش عينيه لتلتقيا بعيني الشيخ صديق، فشعر هذا برجفة تجتاح كيانه.

كانت نظرات الدخش تمثل كل ما في الدنيا من حزن وخجل وحيرة وكان واضحًا أنه لا يجد الكلمات التي يعبّر بها عما يدور في خلده.

وقال له الشيخ صديق في عطف:

ـ على راحتك... خد... اشرب الشاهي.

وبعد صمت يسير تكلم الدخش.

ـ الحق إني لا أدري ماذا أقول لك يا شيخ صديق... فضلك على راسي.

ـ أستغفر الله يا حامد... الفضل لله وحده.

ـ وقد زدت تلطفًا بما أبديته لي من عطفك على ولدي حسونة بموافقتك على زواجه من ابنتك المحروسة.

وتلاعبت ابتسامة خفيفة على شفتي الشيخ صديق، فقد كانت الحرارة التي يتحدث الدخش بها تدل على أنه ما زال كما كان إخلاصًا ومحبة له، وإن هذا الرجل الأمي يختار عباراته بلباقة فطرية تستحق التقدير والإعجاب.

وقال الشيخ صديق:

ـ لا عليك يا أخ حامد... الأمور قسمة ونصيب... فقط أريد أن أعرف ماذا جرى.

وضرب الدخش كفًا بكف وهو يقول:

ـ عجايب والله... العادة أنه الواحد يخطب البنت... والبنت أو أهلها يرفضوا... عمري ما سمعت عن واحد يرفض يتزوج بنت من عيلة كبيرة وناس شاريينه.

ولم يعد الشيخ صديق في حاجة إلى سماع المزيد... فقد أوجز له الدخش بعباراته تلك كل شيء، ومع أن الدخش قد استرسل يروي في حرارة تفاصيل الحديث الذي دار بينه وبين ولده، ويبين أنه لا يتمنى شيئًا سوى أن يرى ولده زوجًا لابنة الشيخ صديق، فقد كان هذا قد قفز بذهنه إلى ناحية أخرى، فترك الدخش يتكلم وراح يفكر.

هذا فتى من نوع غريب... ولكنه ـ على أية حال ـ يستحق الإعجاب لأن إصراره على رفض كل عون يقدمه له الشيخ صديق، وإصراره على بناء حياته بمجهوده وتعبه أمر يدعو إلى التقدير حتى ولو كان يمس، بشكل أو بآخر، بالشيخ صديق نفسه... فهو يبدو معتدًا بنفسه، وليس مغرورًا.

ومن جهة أخرى ملأت ذهن الشيخ صديق فكرة ضجّت في عقله وملكت عليه تفكيره:

ـ يجب أن أزوج ابنتي من أي شاب آخر في أسرع وقت... لكي تنسى الأمر ونطوي صفحة هذه المشكلة التي لم تكن في الحسبان.

الفصل الحادي عشر

نظر الدخش، من خلال نافذة مسكنه إلى السماء، ثم إلى البحر، كعادته كلما أراد الخروج إلى الصيد، فاطمأن إلى أن الجو ملائم للعمل، وإن بوسعه أن يمارس مهنته التي ما يدري كم مرة وقف فيها هذه الوقفة المتفحصة لحالة الجو قبل أن يقرر الخروج أو المكوث.

ووضعت له أم حسونة إفطاره في صمت، وقد تحجرت في عينيها دموع جهدت كي تمنعها من الانحدار ولم تحاول أن تسأل زوجها ـ كعادتها ـ ماذا كان قد نوى الخروج إلى البحر أم لا.

كل شيء قد تغيّر الآن.

فحسونة يوشك على السفر، وقد أخبرهم بالأمس أنه سينهي ما تبقى من إجراءات السفر هذا اليوم، ومعنى ذلك أنه لن يتمكن من الخروج مع أبيه إلى الصيد.

وأبو حسونة قد بات أكثر صمتًا وإخلادًا إلى التفكير والوجوم، وما تدري الزوجة أذاك بسبب قرب سفر حسونة والفراغ الذي سوف يتركه في حياتهم أم بسبب ما وقع بين الشيخ صديق والدخش وولديهما.

صحيح أن الشيخ قد تفهّم وضع الدخش خير تفهم، فلم يغير شيئًا من معاملته له، وخاصة من ناحية السلف النقدية التي يدفعها له بانتظام، إلا أن شيئًا ما قد وقع بين الاثنين على أية حال. . . فلم يكن سهلًا أن يتقبل الشيخ صديق الرفض المستمر الذي واجه به حسونة كل عروضه لمساعدته، وتحسين وضعه وضمان مستقبله، دون أن يشعر

بشيء من الغضاضة. . . ولذا فقد انكمش الدخش في علاقته بالشيخ صديق، وأصبح متحفظًا يشعر بالخجل كلما تذكر موقف ولده من الرجل الذي أعطاهم الكثير، وكفاهم مؤونة الحاجة والحرمان.

وتناول الدخش طعامه في صمت هو الآخر، ولم يحاول أن يتجاذب أطراف الحديث مع أم حسونة كما اعتاد أن يفعل من قبل.

وأخيرًا نهض وهو يحمد الله بصوت خافت، وحمل أشياءه على ظهر من المسكن وهو يجر رجليه في تثاقل.

ومن النافذة كانت عينا أم حسونة ترمقانه من بعيد وقد ترقرقت الدموع فيهما، وهمست بصوت خافت طالبة له التوفيق والعون:

ـ ربنا ياخذ بيدك يا أبو حسونة.

أما الدخش فقد واصل سيره الرتيب حتى وصل إلى الخور، وبدأ في قذف شباكه لجمع اللعف، وهو يقوم بعمله هذا بصورة آلية وقد اتجه ذهنه إلى أشياء أخرى سيطرت عليه منذ أن حصل حسونة على شهادته الثانوية وجرى ما جرى من أمور.

هذه أول مرة يخرج فيها الدخش بدون حسونة منذ سنوات، فلقد حمل عنه ولده الشطر الأكبر من أعباء هذا العمل الشاق، حتى بات ـ كما سبق له أن فكر ـ أقرب إلى أن يكون مساعدًا لولده الذي كان يتولى بنفسه كل الأعمال الشاقة ويحاول أن يريح أباه قدر إمكانه.

الآن، لا يدري إلا الله ما سيكون من أمره، هو الصياد العجوز، بعد أن حرم من مساعدة ولده، وأصابه ما أصابه من آلام بسبب مواقف حسونة المتصلبة تجاه عروض الشيخ صديق السخية. . . ولم ينكر الدخش على نفسه أن اكتئابه لموقف ولده يعود إلى أسباب قد تعتبر نوعًا من الأنانية.

فلو أن حسونة قبل العمل مع الشيخ صديق وتزوج ابنته، لاستراح من عناء السنوات التي سيقضيها في الدراسة، وأراح أباه وأمه وأختيه، وانتظمت حياتهم جميعًا بشكل يرضيهم، بدلًا من الجراح والآلام التي ملأت نفوس كثيرين منهم. . . عزة. . . الشيخ صديق. . .

الدخش. . . والدتا الفتاة والفتى كلهم أصابتهم الجراح والآلام. . . ووحده حسونة يبدو غير مكترث لشيء.

ـ أصلحه الله وهداه.

همس الدخش، رغمًا عنه، بهذه الجملة وهو يلقي شبكته لاستكمال جمع اللعف، حين سمع صوت سيارة تقترب من المكان، فلم يلتفت إليها لأن لديه ما يكفيه من الهموم والمشاغل. . . وسمع صوت فتح باب السيارة وإغلاقه، فلم يلتفت كذلك، ثم تناهى إليه وقع أقدام خفيفة على رمال الشاطئ فالتفت ثم ما لبث أن هبّ واقفًا وقلبه يدق بعنف.

كانت عزة هي القادمة. . . وقد سارت ـ هذه المرة ـ محنية الكتفين، واختفت من مشيتها تلك الكبرياء الواضحة.

وسارع الشيخ إليها مرحّبًا، فالقت عليه السلام بصوت خافت، فتلفت حوله يبحث عن مكان يجلسها فيه فلم يجد. . . وأدركت الفتاة مراده فابتسمت ابتسامة مغتصبة، واتجهت إلى صخرة قرب الخور فجلست عليها وهي تنظر إلى الرجل صامتة.

ولم يشعر الدخش بارتباك وحيرة في حياته مثلما شعر في تلك اللحظة، فهو قد رأى ما حلّ بالفتاة بعد تلك الصدمة، وأحس بأن ولده مسؤول عن ذلك، وأنه عاجز عن أن يفعل شيئًا يسترضي به الفتاة ويشفي جراح قلبها.

وراح يتشاغل بما كان بين يديه، مترقبًا أن تبدأ الفتاة حديثها ليعرف سبب قدومها إليه.

وأخيرًا تكلمت الفتاة.

قالت بلطف:

ـ قلت في نفسي إنني سأجدك هنا حتمًا. . . فالجو مناسب للصيد.

وغمغم الرجل بكلمات غير مفهومة، لعلها كانت تعليقًا على كلامها.

واستطردت الفتاة:

ـ عدت تعمل وحدك؟

وظل الرجل صامتًا.

لقد كان واضحًا أن عزة تحاول أن تجد مدخلًا للحديث عن حسونة، ولكن صمت الصياد العجوز ـ الناجم عن شعوره بالحرج ـ لم يتح لها هذه الفرصة.

ويبدو أنها قررت أن تطرق الموضوع مباشرة:

ـ متى يسافر... حسونة؟

قالتها بصوت ضعيف، بعث الرجفة في جسم الدخش، فتنحنح عدة مرات في ارتباك قبل أن يجيب:

ـ أعتقد... أعتقد أنه سيسافر خلال هذين اليومين.

ـ بهذه السرعة؟

هتفت الفتاة وقد بدا عليها أنها فوجئت بالنبأ.

فقال الرجل وهو يتشاغل بما بين يديه:

ـ فهمت إن هناك موعدًا محددًا للالتحاق بالجامعة.

ـ ربنا معاه... إنه يستحق كل خير.

وشعر الدخش بالألم، فقد كانت الفتاة تتحدث برقة وإخلاص ينمان عن اهتمامها بولده الذي كان منه ذلك الموقف الذي لا يفهم له سببًا.

وكأنما شعرت الفتاة بأنها قد تجاوزت الحد في الحديث عن حسونة، فقالت:

ـ آسفة يا عم حامد إذا كنت اسألك عن حسونة... إنني أعتبرك كوالدي تمامًا... ولقد خطر لي أن آتي إلى هذا المكان في هذه الساعة توقعًا مني بأن أجدك هنا... ما دامت حالة البحر ملائمة للصيد.

وتمهلت الفتاة وكأنها تتردد في إكمال كلامها، ولكنها حسمت هذا التردد بأن قالت:

ـ أعترف لك يا عم حامد... إنني كنت أتوقع أن أجد حسونة هنا... لم أكن أعلم أنه سيسافر بهذه السرعة.

وهزّ الرجل رأسه ليشعرها بأنه يصغي إلى حديثها، إذ لم يكن لديه ما يجيب به على كلامه.

وعادت عزة إلى الكلام:

ـ لست أدري كيف أشرح لك الأمر يا عم حامد... لقد... لقد كان ذلك كله رغمًا عني... لست أدري كيف... وأحمد الله على أن المسألة محصورة فيما بيننا... أعني عائلتينا فقط.

ورفع الرجل عينيه إليها قائلًا:

ـ اطمئني يا ابنتي... إن أحدًا منا لن يتحدث عن ذلك.

وأطرقت الفتاة وقد تورد وجهها خجلًا وقالت:

ـ ليس سهلًا أن يتناقل الناس أن شابًا رفض الزواج من فتاة مثلي.

فرفع الدخش ذراعه نحوها في توسل وهو يقول:

ـ لا تقولي هذا يا ست عزة... أنت مفخرة لأي شاب في الدنيا... ولكن حسونة غريب الأطوار... هذا هو كل شيء... إنه يحترمك احترامًا شديدًا... صدّقيني يا ابنتي... ولكنه مولع بدراسته إلى حد الهوس... وهو لا يريد أن يفوّت عليك فرص الزواج حتى ينتهي من دراسته... هذا هو كل شيء... أؤكد لك يا ابنتي.

وأجابت الفتاة وهي لا تزال مطرقة:

ـ لا تحاول التخفيف عني يا عم حامد... لو كان يريد الزواج مني لما كان أسهل عليه من ذلك... هناك كثيرون يذهبون إلى الدراسة مع زوجاتهم .

ـ ألم أقل لك يا ابنتي أن حسونة غريب الأطوار؟... لقد ترك عائلته... تركني أنا... ترك البحر... رغم ولعه به... ليسافر ويكمل دراسته.

ولم تجب الفتاة، بل ظلت على إطراقتها العميقة، فرفع الرجل رأسه إليها وروّعه منظر وجهها وقد تقلص في ألم. . . ثم وضعت يديها على صدرها، وانطلقت منها آهة ألم كتمتها في الحال، فجزع الدخش وقفز نحوها وهو يقول في لهفة:

ـ ست عزة خيرًا إن شاء الله. . . ماذا بك؟

ولم تجب، بل انحنت على ركبتيها وهي تضع يديها على صدرها، فحار الرجل ماذا يفعل، وراح يتلفت حوله حائرًا إلى أن وقع بصره على سيارة الشيخ صديق التي كانت واقفة على البعد تنتظر عزة، فجرى نحوها كالمجنون وهو ينادي السائق، فخرج هذا من السيارة مستجيبًا لندائه فصاح به الدخش:

ـ الحق يا أخ. . . الست عزة. . . لست أدري ما بها.

وركض الاثنان نحو الفتاة التي رفعت رأسها إليهما، واغتصبت ابتسامة باهتة ثم نهضت وهي تتحامل على نفسها:

وهتف السائق في جزع:

ـ خير. . . يا عمتي.

فقالت بصوت ضعيف:

ـ خير. . . خير. . . خلاص. . . ما في حاجة.

وقال الدخش:

ـ ما تشوفي إنه ناخدك على المستشفى؟

ـ ما في لزوم للمستشفى. . . أنا خفّيت خلاص. . . شوية ألم عارض في الصدر.

ووقف الدخش ينظر إليها في جزع، ولكنها اتجهت إلى السيارة في خطوات تنبئ عما تعاني من ألم، وعندما همّت بالركوب التفتت نحو الدخش ولوّحت له بيدها وهي تقول:

ـ مع السلام يا عم حامد. . . نشوف وشك بخير.

وانطلقت السيارة بها، بينما وقف الدخش مسمرًا في مكانه، ينظر

إلى الطريق الذي غابت فيه السيارة وهو يشعر بانقباض غريب.

وعاد إلى شباكه ولعفه، يريد أن يكمل عمله، ولكنه شعر بأنه زاهد في العمل، ساخط على كل شيء، حزين، ومتألم، وحائر، وما يدري ما يفعل.

وقرر أن يعود إلى مسكنه، فهناك يستطيع أن يفكر بصورة أفضل، ويرى ما يجب عمله تجاه ابنة صديقه العزيز.

* * *

دخل الدخش مسكنه محني الظهر، وكأن هموم الدنيا كلها قد أثقلت كاهليه... كان لا يفهم سر ما يجري أمامه ومن حوله... لا فيما يتعلق بموقف ولده من العروض السخية التي قدمها له الشيخ صديق، والتي تكفل له المستقبل الرغد الذي يتمناه له، ولا فيما يتعلق بتلك الفتاة الجميلة «عزة» التي يتفق اسمها مع وضعها كابنة لرجل كالشيخ صديق، وما هو سر تمسكها بولده ذلك التمسك الذي لم تكتمه عنه ولا عن أبيها ولا أمها، وهي القادرة على أن تتزوج من هو أفضل، ماديًا واجتماعيًا، من حسونة... ابن الصياد العجوز.

كان له من خبرته بالحياة يجعله يفهم أن مثل هذه الأمور لا تفسّر عادة لأنها نابعة من القلب، لا من العقل، ومن العاطفة، لا من المحاكمة المنطقية السليمة، فهي ـ إذن ـ أمر واقع لا سبيل إلى تغييره إلا إذا تغيّر القلب، وتحولت العاطفة... فهل هذا ممكن؟

سواء كان ذلك ممكنًا أو غير ممكن فإن من الضروري، من الضروري جدًا، أن يصبح ممكنًا قبل أن تقع مأساة مروّعة يحس الدخش، بفطرته، أنها تحوّم حولهم جميعًا، وسوف تمسّهم جميعًا... وتنهد في يأس وشجن، وهو يلقي بجسده الواهن إلى الأرض، ولم يجب على تساؤل زوجته التي تعجبت لعودته المفاجئة هذه:

ـ خير يا بو حسونة... إيش اللي جابك داحين؟... حاسس بحاجة؟

وهزّ رأسه نفيًا وغمغم بصوت خافت:

ـ حسّيت أني ما لي نفس في الشغل.

ـ ما هي عادتك.

أهو دا اللي حصل.

قال جملته بلهجة حاسمة، اعتادت أم حسونة أن تفهم منها أنه لا يريد مناقشة هذا الأمر، فقلبت شفتها السفلى في دهشة، وغادرت الغرفة دون أن تضيف كلمة واحدة.

وانتبه الدخش من أفكاره على صوت الباب وهو يفتح، ثم وقع أقدام حسونة بخطواته البطيئة، فرفع رأسه منتظرًا أن يمر الفتى أمام باب الغرفة، حتى إذا ما رآه ناداه:

ـ حسونة.

كان صوته خشنًا، قاسيًا، كأنه يعلن عبارة تأنيب.

وتوقف حسونة، وألقى السلام على أبيه، فردّ هذا بعبارة مقتضبة ثم أضاف:

ـ تعال هنا.

وتردد حسونة بعض الشيء، فقد كانت في صوت أبيه رنّة لم يسبق أن سمع مثلها، ولكنه ما لبث أن تقدم إلى داخل الغرفة.

ـ أجلس.

قالها الأب بنفس اللهجة الخشنة التي لم يسمع حسونة مثلها من قبل.

وجلس تجاه أبيه وهو واجف القلب، وقد تبدد ما كان في داخله من سرور وارتياح بعد أن أنهى جميع مستلزمات سفره، وبات بوسعه أن يخطو الخطوة الأولى على طريق تحقيق حلمه في استكمال تعليمه العالي.

وظل الأب مطرقًا ينظر إلى الأرض صامتًا ثم رفع رأسه وقال فجأة:

ـ أنت إيش حكايتك يا ولد؟

ودهش حسونة، فعبارة أبيه تحمل اتهامًا صارخًا بأنه قد ارتكب خطأ ما، فتساءل بصوت مرتجف:

ـ حكاية إيش يا بوي؟

ـ حكاية البنت دي... ابنة الشيخ صديق... هل تعلم أنها جاءتني هذا الصباح إلى الخور وراحت تسألني عنك.

وتنهد حسونة في ضيق، فقد فهم المقصود من حديث أبيه، وفهم أن عليه أن يعيد للمرة الألف، ربما، تفسير موقفه تجاه هذه المسألة، وقبل أن يفتح فمه بالإجابة استطرد أبوه يتحدث في ألم:

ـ يا إبني... لقد أخذتك معي إلى البحر... فساعدتني... وعملت إلى جانبي... وصرت أتفاءل بك، وما زلت.

لقد علمتك مهنتنا الشاقة أشياء كثيرة فيما أحسب... علّمتك الصبر... والجلد... والرضى بما يجود به الله علينا من خيرات البحر.

ولكنني كنت آمل أن تكون هذه المهنة قد علّمتك أشياء أخرى... لقد عشنا سنوات ونحن نعاني من جراح البحر... في أجسادنا... وفي نفوسنا... حتى أصبحت أتصور أنك قد تعلمت من تلك الجراح الرحمة والرأفة... والعمل على لأم تلك الجراح... لا أن تصطنعها أنت بنفسك... وتسببها للآخرين.

ـ أنا؟

قال حسونة في استغراب شديد يدل على أنه قد فوجئ بهذا الاتهام الذي ألصقه أبوه به.

ـ نعم... أنت.

ـ وكيف كان ذلك؟

ـ هل نسيت عزة؟... تلك الفتاة... ابنة الأصول... والجمال والمال والكمال؟... هل تستطيع أن تدلني على علّة واحدة فيها

تجعلك تعاملها بتلك القسوة وتسبب لها تلك الجراح والآلام؟

. . . أتراك، يا ولدي، قد تعلمت من البحر قسوته، ونسيت رأفته؟ . . . هل اكتسبت من البحر جبروته وتناسيت عطاءه؟

وأرخى حسونة عينيه إلى الأرض، وقد التهبت أذناه بالدماء الحارة التي تصاعدت إليهما وقال بصوت خافت:

ـ أنا رهن إشارتك يا أبي. . . إذا كنت تريدني أن أتزوج من ابنة الشيخ صديق فأنا، كما عهدتني، لا يمكن أن أعصى لك أمرًا.

ونظر الأب إلى ولده بدهشة، فهو لم يكن يتوقع منه هذا الجواب فتساءل:

ـ بهذه البساطة؟ . . . تغير رأيك من النقيض إلى النقيض؟

وبدت الحيرة على وجه حسونة، وبدا عليه وكأنه يبحث عن كلام يستطيع أن يعرب به عن وجهه:

ـ لقد قلت لك يا أبي. . . إنني أقبل تنفيذًا لرغبتك. . . لا أكثر.

وتمهل حسونة وهو يستطرد:

ـ إن الزواج، يا أبي، يجب أن يقوم على الحب. . . الحب المتبادل. . . بكل ما تعنيه هذه الكلمة من تفاهم وتكافؤ وتعاون بين الطرفين. . . وهو شعور داخلي ينشأ دون أن يعرف أحد كيف نشأ. . . وينمو دون أن يعرف أحد كيف نما. . . ويملك على الطرفين أحاسيسهما دون أن يملكا من أمرهما، تجاهه، شيئًا.

وإذا كنت يا أبي تعتقد بأن عزة تحبني، فاسمح لي أن أخالفك في الرأي لأنني لا أعتقد أنها تحبني كما تتصور أنت.

ومع أن الدخش لم يفهم معنى كل ما قاله له ولده، إلا أنه استوعب محتواه ولذا فقد قاطع ولده قائلًا بدهشة:

ـ تعتقد أنها لا تحبك؟ . . . وهذا الذي يبدو منها؟ . . . ماذا تسميه؟

ـ إنها تريد إخضاعي. . . تريد إذلالي. . . تريد امتلاكي. . . هل

تذكر، يا أبي، أول مرة خرجت فيها معنا في مركب العود؟... هل تذكر كيف كانت تعاملني؟... وكيف كنت أعاملها؟... ثم... ورغم أنها غيّرت كثيرًا من طريقتها في معاملتي فلست أظن أن ذلك عائد إلا لما لمسته مني من سلبية حاولت بها أن أحافظ على كرامتي تجاهها... هذا هو رأي واعتقادي، يا أبي، ولوكنت مخطئًا لكان حريًّا بي أن أشعر نحوها بشيء من العاطفة.

وهزّ الأب رأسه وكأنه يعبّر عن عدم فهمه، أو قناعته، وأجاب:

ـ ولكن... هل تظن، يا ولدي، أن رغبتها في امتلاكك وإخضاعك، كما تقول، تصل بها إلى حد الزواج بك؟... وهي ابنة الشيخ صديق... وأنت ابن حامد الدخش؟

ـ آه يا أبي... هذه هي النقطة التي أريد أن أشرحها لك... لقد هال ابنة الشيخ صديق أن يقف منها ابن حامد الدخش ذلك الموقف السلبي... ولم تستطع أن تفهم كيف يحدث ذلك؟... إنها لم تفكر لحظة واحدة أنني فخور بأبي الصياد مثلما هي فخورة بأبيها الثري... وثق يا أبي إن هذا الزواج، إذا تمّ، فلن يحمل لها أو لي إلا التعاسة والشقاء... لأنها ستفقد اهتمامها بي مجرد «حصولها» عليّ... ولك أن تتصور، يا أبي، كيف تكون حياتي معها إذا ذاك.

كان الابن يتحدث بحماسة وانفعال، ولم يعد يعنى باختيار ألفاظه التي توحي بما وصل إليه من تعليم... والتي يفترض أن أباه لم يفهمها كلها... ولعله، أيضًا، لم يفهم لبّ الموضوع كما يراه حسونة.

ومهما يكن من الأمر، فقد بدا التأثر على الأب واضحًا جليًا فأشرق وجهه بابتسامة راضية، وراح يربت على كتف ولده وهو يقول في عطف:

ـ لا بأس يا ولدي... لا بأس... أعتقد أنني فهمت ما تريد أن تقول... لا عليك... اذهب في بعثتك على بركة الله... وأسأل الله يوفقك في كل خطوة تخطوها.

وشعر حسونة بأن جبلًا قد انزاح عن كاهله، فأقبل على يدي والده يقبلهما ويمرّغ وجهه عليهما وهو يقول في تأثر:

ـ حفظك الله لنا يا أبي... وأمدك بالصحة والعافية وطول العمر... ثق أنني سأبقى، إن شاء الله، كما عهدتني دائمًا، ولدك المطيع، الطامع في دعائك ورضاك... وأنني لا أحمل للشيخ صديق وعائلته وحتى عزة نفسها إلا التقدير... والله يتولانا جميعًا.

ونهض حسونة متجهًا إلى الداخل، بينما شدّ الدخش مسندًا بجانبه فاتكأ عليه وهمس وكأنه يخاطب أحدًا أمامه:

ـ أولاد زمانهم... أولاد زمانهم.

الفصل الثاني عشر

عبثًا حاول الشيخ صديق أن يعرف حقيقة ما حدث لابنته عندما انتابها ذلك الألم الذي وصفه السائق له بأنه كان يبدو «فظيعًا»، وإن الفتاة حاولت كتمانه وإخفاء أعراضه رغم محاولته ـ أثناء الطريق ـ إقناعها بالمرور على أحد المستشفيات، فقد أجابته، رغم رنّة الألم الواضحة في صوتها، أنها في خير، وحذّرته من أن يخبر أحدًا بما حدث.

وقد تمسكت عزة بموقفها عندما سألها أبوها عما حدث، وعن سبب ذهابها إلى الشاطئ في تلك الساعة المبكرة من اليوم، فقالت له ببساطة أنها إنما كانت تقوم بنزهة، ثم صادفت الدخش وهو منهمك في عمله فتبادلت معه بعض الحديث ثم شعرت بمغص جعلها تقطع نزهتها وتعود إلى البيت و . . . هذا هو كل شيء.

وازداد الشيخ صديق قناعة بأن الحل الحاسم لهذه المشكلة التي بات يعتبرها ماسّة بمركزه، ومبعثًا لقلقه وانزعاجه هو أن يجد لعزة عريسًا مناسبًا، تطوى معه صفحة هذه المشكلة وينفض يديه منها بصورة نهائية.

ولكن فوجئ بعزة ترفض البحث في هذا الموضوع رفضًا باتًا، وتؤكد له أنها سعيدة بحياتها الحالية ولم تعد لديها أية رغبة في الزواج.

وهزّ الشيخ صديق رأسه في حيرة، فهو لم يصادف في حياته مشكلة من هذا النوع، إذ عاشت بناته في كنفه ومطالبهن مجابة،

ورغباتهن لا يحتاج تحقيقها إلى أي عناء، أما هذه الابنة التي بلغت سن الزواج، أو كادت فقد وضعته في مواقف لا يجد لها تفسيرًا، ولا يستطيع، بالتالي، أن يجد لها حلًا.

وقال الشيخ صديق لزوجته وهما ساهران وحدهما في المجلس:

ـ البنت دي حيّرتني... وماني عارف كيف أتفاهم معاها.

وردّت الأم كمن تهوّن الأمر:

ـ هيّ راسها ناشفة شوية.

ـ شوية؟... دي راسها زي الحجر... أبغى أعرف إيش تبغى... إيش أقدر أعمل عاشانها.

وأطرقت الزوجة في أسف وهي تقول:

ـ الله يهديه... الولد ابن الدخش ده... لو كان.

فقاطعها الرجل بحدة:

ـ لو كان إيش؟... هي الدنيا خلاص ما فيها إلا ابن الدخش ده؟... على كل حال أبشرك... الولد سافر.

وضربت الزوجة صدرها بيدها وهي تشهق وكأنها قد فوجئت بالخبر:

ـ سافر.

ونظر إليها الشيخ صديق بدهشة وقال:

ـ إيش جرالك إنتي التانية؟... ما أنتي عارفه أنه مسافر.

ـ لا والله... ما كنب عارفة.

ـ يمكن نسيت أقولك... على كل حال بقاله داحين أكثر من أسبوع... سمعت أنه سافر بالمركب على مصر.

وأطرقت الزوجة طويلًا، وقد جف قلبها، واجتاح الخوف والقلق كيانها فقد قفز ذهنها في الحال إلى ابنتها، وراحت تتساءل في سرها عما سيكون عليه رد الفعل لديها إذ تعلم بالنبأ.

وقال الشيخ صديق وهو يلاحظ صمتها ووجومها:

ـ سرحانة في إيه؟

ـ ولا حاجة... بس بفكر في سفر حسونة.

ـ إحنا مالنا وماله؟... المسألة دي انتهت خلاص... وكل واحد يروح في حال سبيله.

ـ بس فكرك... عزة... عارفة؟

ـ وإيه يعني إذا كانت عارفة والا لأ؟

وأردف وقد اجتاح الغيظ المفاجئ كيانه:

ـ إسمعي... هذي آخر مرة أسمع فيها كلام عن الموضوع ده... كفاية بقى... دوشتيني أنتي وبنتك في حاجات هايفة عمره ما حد عانى منها زي ما عانيت أنا... وعمره ما حد نكس رأسه زي ما عملت أنا.

ونهض أثر كلماته تلك متجهًا إلى غرفة النوم، وكأنه يريد أن يؤكد موقفه هذا بصورة عملية.

وبقيت الزوجة جالسة، مطرقة في وجوم، تقلب الأمر على وجوهه، وتحاول أن تتوصل إلى طريقة تحيط بها ابنتها بالخبر، فتقطع الأمل نهائيًا من ابن الدخش، وتعود سيرتها الأولى مرحًا وسعادة وبعدًا عن الهموم.

ويبدو أنها توصلت إلى قرار ما، لأن معالم الارتياح ارتسمت على وجهها فقامت بدورها إلى غرفة النوم وهي تستغرق في ذهنها الفكرة التي توصلت إليها، وفي اعتقادها أنها قد توصلت إلى الحل النهائي المنشود.

* * *

في اليوم التالي كانت فاتن جالسة أمام أم عزة وهي تصغي إليها بانتباه، دون أن تخشى إحداهما أن تقطع عليها عزة جلستهما، فهي خارج المنزل في زيارة لبعض أقاربها، وقد اختارت الأم هذا الموعد بالذات لاستقبال فاتن والحديث إليها.

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي الفتاة حين عرضت لها الأم تفاصيل «المشكلة» كما تراها، ودون أن تحاول إخفاء موضوع تعلّق ابنتها بحسونة وإعراض هذا عنها، فقد ورد إلى ذهن فاتن حديث عزة الواثق الذي كانت قد أدلت به إليها عند حديثها عن حسونة، وتأكدها من أنه قد بات ملك يمينها.

وتمهلت الأم في الحديث وهي تصل إلى أصعب نقطة فيه حين قالت لفاتن بارتباك وتلعثم:

ـ . . . وأمس. . . سمعت عن عمك الشيخ صديق أن الولد سافر لمصر. . . ليلتحق بدراسته دون أن يكلف نفسه حتى عناء وداع الشيخ الذي طالما حباه هو وعائلته بعطفه وكرمه.

ورفعت فاتن رأسها بسرعة، إذ علمت بنبأ السفر، واستطاعت أن تدرك مغزاه في الحال، ووثب ذهنها إلى رد الفعل الذي ستواجه به عزة، ذات العنجهية والكبرياء، هذا النبأ عندما تعلم به.

وإذا صمتت الأم بعد أن أنهت حديثها، قالت لها فاتن متسائلة، رغم علمها سلفًا بجواب تساؤلها:

ـ وإيش قالت عزة لما عرفت أنه حسونة سافر؟

ـ هيّ ما تدري لسه.

ـ ما تدري؟. . . كيف؟

أهو. . . كده. . . وأنا، يا بنتي، أبغاكي تكلميها أنتي بشويش. . . وتفهميها أنها لازم تتزوج زي ما قال أبوها. . . فيه ألف واحد أحسن من حسونة يبغاها.

وهزّت فاتن رأسها في فهم، ينبئ في ظاهره أنها قد استوعبت المهمة المطلوبة منها، ويتعدى ذلك، في باطنه، إلى ما سبق أن قالته عزة حول ثقتها المطلقة في أن حسونة رهن إشارتها، وأن رغبتها في الزواج منه هي منّة تتفضل بها عليه.

وراحت الأم تتبادل شتى الأحاديث مع ضيفتها الصغيرة بانتظار

عودة عزة إلى المنزل، وهي لا تفتأ، بين الحين والحين، تقطع تلك الأحاديث لتنبهها إلى ضرورة التزام اللباقة والحذر في إبلاغ النبأ إلى عزة.

* * *

ووصلت عزة... فلم تفاجأ بوجود صديقتها فاتن، فهي أكثر صديقاتها قربًا إلى نفسها، وأكثرهن ترددًا على منزلها لدرجة أقامت صداقة أخرى بين أمها وصديقتها... ولم تلبث الفتاتان أن انتقلتا إلى غرفة عزة الخاصة، حيث راحت هذه تبدل ملابس الخروج وهي تغني بصوت خافت يدل على المرح والسرور.

وتساءلت فاتن ببراءة تامة:

ـ هه... إيش الأخبار؟

ـ أخبار إيه؟

ـ أخبار حسونة.

ولمعت عينا عزة، وأقبلت على صديقتها تمسكها بين يديها، كلتيهما، وهي تقول في حماسة وانفعال:

ـ اسكتي يا فاتن... حاجة مو معقاولة... من يومين تلاتة خرجت معاه في المركب زي عادتنا القديمة... بس الحقيقة أننا ما أخذنا بالنا من اللي حوالينا... لأننا كنا نهرج... ونهرج... ومضت ساعات وما إحنا حاسين بحاجة.

وشعرت فاتن في داخلها بأسى عميق، ولكنها تمالكت نفسها وتسائلت بهدوء:

ـ كنتوا بتهرجوا في إيه؟

ـ كل حاجة... الدراسة... الزواج... المستقبل... الأولاد.

ـ الأولاد كمان؟

قاطعتها فاتن دون وعي والأسى العميق يزداد في نفسها.

ـ أيوه يا ستي... الأولاد... هوّ يبغى درزن أولاد... وأنا قلتله كفاية نص درزن... أصله بلدي... زي ما تعرفي.

ـ وبعدين؟

ـ وبعدين اتفقنا نترك الحاجة دي للظروف... واللي يقدّره ربنا نحمده عليه.

وأمسكت عزة عن الكلام، وراحت تحدق في وجه صديقتها الذي اكتسى جمودًا عجيبًا روّعها، فقالت بقلق:

ـ مالك يا فاتن؟... حاسّه بحاجة؟

وأطلقت فاتن زفرة حرّى، تدل على ما تشعر به من الحزن والهم والألم...

ـ خير إن شاء الله... إيش الحكاية؟

وقالت فاتن بصوت خافت:

ـ مدري والله.

ـ إيش تقصدي يا فاتن؟

فقالت فاتن وهي تتحاشى أن تلتقي عيناها بعيني صديقتها:

ـ أنا خايفة، يا عزة يا حبيبتي، أنك تكوني غلطانة في التواريخ.

ـ ليه؟... وأيّ تواريخ؟

ـ أنه حسونة... سافر بقاله أكثر من أسبوع.

قالت فاتن جملتها الأخيرة بسرعة، وبلهجة حاسمة، وكأنها رأت أن من الأفضل إزجاء النبأ إليها دفعة واحدة.

وامتقع وجه عزة، إذ يبدو أن النبأ قد أذهلها، فجحظت عيناها في رعب وراح جسدها يرتجف وكأن قشعريرة قد أصابته، وحاولت أن تفتح فمها لتتكلم، ولكن الكلام، على ما يبدو، قد استعصى عليها.

وفجأة ارتسم على وجهها ألم هائل، ووضعت يدها على صدرها وكبتت صرخة ألم كادت تنطلق منها، وانحنت على ركبتيها وهي تئن

أنينًا مكتومًا وتشهق في بكاء صامت، تمامًا كما سبق أن وقع لها يوم أن رأت والد حسونة على الخور.

وصرخت فاتن في رعب:

ـ عزة... حبيبتي عزة... مالك؟

وحاولت أن تبعد يديها عن صدرها، ولكن هذه دفعتها عنها بشيء من العنف، وارتمت على الفراش وهي تتلوى، وقد بدا أن ألمًا عظيمًا قد برّح بها.

وحارت فاتن فيما تفعل، فراحت تتلفت حولها وكأنها تبحث عن عون، ثم اندفعت خارج الغرفة وهي تنادي أم عزة بصوت عال.

وعبثًا حاولت الأم والصديقة أن تعرفا ما بها، وحين اقترحت فاتن استدعاء طبيب تحاملت عزة على نفسها ورفعت رأسها وقالت:

ـ ما أبغى دكتور.

وقالت الأم في إشفاق:

ـ لكن يا بنتي... ما يصح كده... لازمك حكيم.

فردت عزة في عصبية:

ـ قلتلكم ما أبغى حكيم... ولو جبتوه غصب عني ما تدروا إيش أسوّي في نفسي.

وأغمضت عينيها في هدوء، وكأنها تعبّر عن رغبتها في عدم الاسترسال بالحديث.

وتبادلت الأم وفاتن نظرات حائرة، ثم ما لبثتا أن تسللتا من الغرفة على رؤوس أصابع الأقدام وكأنهما تخشيان إيقاظ الفتاة... النائمة.

الفصل الثالث عشر

كان واضحًا أن شيئًا ما قد حدث في ذلك البيت الهادئ، الذي ما عرف يومًا إلا أصوات السعادة وضحكات المرح. . . والذي كان يبدو وكأن الهموم التي يعيشها الآخرون قد جانبته فلا تقصده ولا تتجه ولا تقترب منه.

ولقد بدت آثار ذلك الشيء الغامض الذي حدث، على هيئة كل من في المنزل، منذ أن دخل حسونة حياة الابنة الكبرى عزة، وما كان من أمر الفتى مع الفتاة.

وكان الأب يرقب ما يجري في بيته بألم عميق مكبوت، ويتمتم بعبارات الامتثال لقضاء الله وإرادته، وينظر في دهشة إلى ابنته عزة التي اكتسى وجهها قناعًا غريبًا من الهدوء والصمت، فهي لم تعد تأتي على ذكر حسونة بكلمة واحدة ولا تلميحًا ولا تصريحًا، وحتى لو ذكره أحد بصورة عابرة، كانت تلتزم الصمت وعدم الاكتراث وكأن كل ما كان منها حول الفتى أضغاث أحلام، وخيالات لا أساس لها من الصحة.

ثم حدث تطور آخر - لاحظه الشيخ صديق في الحال - إذ لم تعد عزة تتحاشى ذكر حسونة كما كانت تفعل قبلًا، بل - على العكس - كانت تفتعل المناسبات لكي تتحدث عنه، وتقذفه بشتى الصفات والنعوت التي تدل على الاستخفاف والاحتقار.

لقد راحت تروي لصديقاتها، على مسمع من أمها ومن صديقتها فاتن اللتين تعرفان الحقيقة، كيف نبذت حسونة بقسوة، ورفضت كل توسلاته ورجاء أبيه وأمه لكي توافق على الزواج منه، وتروح تنسج قصصًا غريبة - تسمعها الأم في ألم - كيف أبلغت أباها، مرة، رفضها

القاطع للزواج من ذلك الفتى، وكيف خرجت أمه، ذات يوم، مكسورة الخاطر من لدن أمها بعد أن أزجت إليها أمها أن عزة ترفض الزواج من ولدها، بل وروت حكايات كثيرة عن الليالي التي كان حسونة يقضيها هائمًا على وجهه في الحارات المؤدية إلى منزل أبيها، وكيف أيقظه «العسة» مرة عندما نام عند عتبة باب البيت.

وكانت صديقاتها اللواتي لا يعرفن الحقيقة يصغين إلى حكاياتها بشغف، ويرددن عبارات الشفقة على ذلك المحب المستهام.

أما فاتن فكانت تجتاح جسدها رعدة من الخوف وهي تعلم أن ما تقوله عزة هو عكس الحقيقة، فتدهش كيف وجدت عزة الجرأة للإدلاء بأكاذيبها أمامها وعلى مسمع منها وهي تعلم تمامًا أن فاتن تعرف الحقيقة المروّعة كاملة حتى بات ذلك مصدر قلق لفاتن خوفًا على صديقتها وتخوفًا من العوامل التي تجعلها تلجأ إلى ذلك الأسلوب الغريب للهرب من الحقيقة.

وحارت فاتن ماذا تفعل... فأم عزة امرأة بسيطة لا تدرك حقيقة ما تقول ابنتها وبواعثه النفسية... فلا فائدة إذن ـ قالت فاتن لنفسها ـ من الحديث إليها في ذلك... والأب يقف حائرًا، مندهشًا، أمام ذلك التحول دون أن يستطيع له تفسيرًا، بله أن يتصرف بشيء حياله.

وحاولت فاتن أن تخاطب عزة، وأن تقول لها بلباقة أنها تجانب الصواب فيما تقول، وأنه خير لها أن تمتنع كلية عن الإتيان على ذكر الفتى الذي مضى، والذي لم يسيء إليها بشيء، وأنه إنما كان صادقًا معها ومع نفسه حين قال صراحة أنه لا يرغب في الزواج.

وأصغت إليها عزة صامتة، ثم قالت لها ببطء وكأنما تريد التعبير عن فكرة تجول في خاطرها:

ـ إيش رأيك، يا فاتن، لو تزوجت؟

وفوجئت فاتن بالسؤال فنظرت إليها بدهشة شديدة، وقبل أن تعلق بشيء، استطردت عزة قائلة ببطء وكأنها تحدث نفسها:

ـ بدي أنتقم منه.. بدي أحرق قلبه.. بدي أخلليه يندم طول حياته.

وتمتمت فاتن بقلب واجف:

ـ إيش راح تسوّي؟

وجاءها الجواب قاطعًا كحد السيف:

ـ أتزوج... أتزوج واحد تاني.

مع أن الشيخ صديق كان قد حرص، طوال مراحل تلك المسألة، على أن يواصل معاملته الطيبة لصديقه حامد الدخش، فإن الدخش نفسه قلّل من زياراته له، بل وتناقصت طلباته لدى الشيخ صديق، فلم يعد يطلب منه المال بتلك البساطة الأولى، ولم يفت الشيخ صديق أن يلاحظ أن الرجل كان يضغط مصروفاته ويزيد من عمله لكي يكون ما يأخذه من الشيخ صديق ثمنًا لما يقدمه له من إنتاج، وليس سلفة كما كان الشأن من قبل.

وكان الشيخ صديق يدرك أن الأمر خارج عن إرادة الدخش كما هو خارج عن إرادته، لأن خلجات القلوب لا تفسّر، بل وما ينبغي أن يطلب لها تفسير، فإذا كان حسونة قد التزم بموقفه ذاك فإنه لم يفسره بأكثر من أنه نابع من شعور داخلي فيه ليس غير... وإذا كانت عزة قد تقلبت بعواطفها ومواقفها تجاه حسونة ما بين الإقبال والإعراض، فذلك أمر يخصها وحدها ولا يستطيع أحد أن يجد ـ أو يطلب ـ له تفسيرًا.

وبات الأسى حليف الشيخ صديق أيامه كلها، حتى أخذ يتحسر على الأيام التي مضت قبلًا ولم تكن تلك «المشكلة» قد ظهرت فيها... وبحكمته وبعد نظره آثر أن يكتفي بدور المراقب والمتأمل دون أن يحاول التدخل في شيء، إذ كان يأمل في يوم تنسى فيه عزة غرامها الفاشل، وتتجه بعواطفها اتجاهًا طبيعيًا يجعلها تقبل بالزوج المناسب من بين العديد من الشباب الذين كان أهلوهم يقصدونه طالبين يدها.

وكأنما انزاح عن كاهله جبل ثقيل حين أبلغته زوجته أن عزة قد أعلنت عن رغبتها في الزواج، فانفرجت أساريره بابتسامة سعيدة، وتنفس الصعداء من أعماق قلبه وهتف بابتهاج:

ـ الحمد لله... الحمد لله.

وأردف مضيفًا أنه سيباشر في اتخاذ ما يلزم في الحال، وأنه لن يهدأ له بال حتى يرى عزة في عصمة زوج يحبها ويواسي جراح قلبها، ويجعلها تتطلع إلى الحياة في تفاؤل واستبشار.

ولم يكن أيسر على الشيخ صديق من إيجاد الزوج المطلوب... فالشباب اللائقون كثر... وآباؤهم ممن تربطهم بالشيخ صديق أطيب الصلات... وكانت المفاضلة بينهم هي المشكلة.

وهكذا راحت الأم تنقل إلى ابنتها، أولًا بأول، أنباء الخطاب الراغبين في الزواج منها، وتشرح لها مميزاتهم وصفاتهم، وتدخل بين كلمات حديثها عبارات تنصح به ابنتها ألا تأتي على ذكر حسونة لا سيما أمام صديقاتها اللواتي كن يتناقلن ما تقوله عزة في الطعن بحسونة، والإقلال من شأنه والتوكيد على أنها هي التي رفضت الزواج منه.

* * *

هتفت أم حسونة لحظة سماعها صوت طرق باب المسكن وهي تقفز إليه لتفتحه:

ـ حسونة... ابني حسونة.

فلقد كانت لحسونة طريقته الخاصة في طرق الباب، هي عبارة عن ضربات سريعة قصيرة تتبعها ضربة قوية... ثم يتكرر ذلك إلى أن يفتح الباب.

ووقفت الأم تنظر إلى حسونة في ذهول، وهي تراه وقد طالت قامته عن ذي قبل، واشتد عوده وارتدى بذله «إفرنجية» لا تخلو من أناقة، وعلى رأسه طربوش أحمر طويل، بينما زين وجهه شارب رفيع.

وأطلق حسونة ضحكة سعيدة وهو ينظر إلى معالم الدهشة على وجه أمه، لا سيما عندما غطت وجهها بطرف منديلها في حركة غريزية وكأنها تقف أمام رجل غريب.

وقال حسونة وهو يضع الحقيبة التي كانت في يده على الأرض ويقترب منها فاتحًا ذراعيه:

ـ كيف حالك يا أمي؟

وزال التردد من نفس الأم، فألقت بنفسها بين ذراعيه ضاحكة باكية وهي تحاول أن تطلق زغرودة تعبر بها عن فرحتها.

وشعر حسونة بشيء من الكدر حين علم أن أباه ليس في المنزل، وأنه ذهب منذ الصباح الباكر إلى منزل الشيخ صديق ليذهب وإياه إلى المستشفى.

ـ المستشفى؟

هتف حسونة بانزعاج متسائلًا، وهزت الأم رأسها قائلة:

ـ أيوه يا عيني... المستشفى.

ـ ومين الـ...

ـ الست عزة... ربنا يشفيها ويأخذ بيدها.

ـ آه.

علق حسونة وهو يطرق بنظره إلى الأرض، فمع أنه شعر بأسف وانزعاج لعلمه بأن عزة هي نزيلة المستشفى، إلا أنه لم يشأ أن يسترسل في التساؤل والاستفسار خوفًا من أن يفسر تساؤله على غير حقيقته، وأن يعيد من جديد تلك القصة المؤلمة التي كان طرفًا فيها رغمًا عنه، فرأى أن الصمت هو خير ما يصنع وإن كان يتحرق شوقًا لمعرفة ما جرى خلال غيابه في سنته الدراسية الأولى.

وفيما هو في خواطره تلك، كانت أمه تردد عباراتها التي لا تنقطع في الترحيب بقدومه، وإبداء الإعجاب بالتغير الملحوظ الذي رأته عليه، والتعليق على الشارب الذي اعتلى شفته العليا وإبداء الاستغراب لتلك الملابس التي يرتديها فكان يجيب على أحد تعليقاتها تارة، ويسدر في خواطره تارة أخرى، حتى أذنت له أمه خيرًا أن ينهض ليبدل ثيابه كي تراه كما اعتادت أن تراه، كما قالت، ولتعد له شيئًا من الطعام ريثما تعود أختاه.

* * *

ومضت بضع ساعات، كانت الأختان خلالها قد عادتا، وأعادتا تلك الطريقة الحارة في الترحيب بالأخ الغائب، وأبدت الأم استغرابها، لأن الأب قد تأخر كثيرًا عما كان متوقعًا، الأمر الذي نشر في المكان وجومًا مفاجئًا فتبادل حسونة النظرات مع أمه التي فهمت معنى تلك النظرات في الحال، فأطرقت وهي تتمتم بقلب واجف:

ـ ربنا يستر.

وفي هذه اللحظة فتح باب المسكن، ودخل الدخش وقد انحنى كتفاه، والتصقت نظراته بالأرض وكأنه ينوء بحمل ثقيل، وقد اكتسى وجهه جمودًا رهيبًا، ولكنه لم يكد ير ولده حتى شعّت عيناه في سعادة فاستقبله بذراعين مفتوحتين وراح يضمه إليه في شوق شديد وهو يردد:

ـ الحمد لله على السلامة يا ولدي... الحمد لله على السلامة يا ولدي.

وبدأ وكأن رؤيته لولده قد أزاحت عن قلبه بعض ما كان يرتسم على وجهه من همّ وألم، فتهالك على الأرض مسندًا ظهره إلى الجدار، كعادته، وهو يقول:

ـ ما شاء الله... لقد تغيرت كثيرًا يا ولدي خلال هذه الفترة التي غبتها... لقد أصبحت رجلًا حقًا.

وكان واضحًا أن الرجل مشتت الفكر والوجدان، ما بين إعلان فرحته بولده الذي عاد بعد غياب بدا له طويلًا، وما يعتمل في نفسه من عوامل أكسبت هيئته ذلك المظهر الكئيب.

وصمت الجميع، وكأنهم قد لاحظوا ذلك التناقض الواضح في مشاعر سيد البيت، وأنهم ينتظرون منه أن يكون البادئ في إيضاح الأمور وبيان ما يختلج في نفسه.

وأخيرًا زفر الأب زفرة قوية وقال بصوت أجش:

ـ إيه... لا إله إلا الله... إنّا لله وإنا إليه راجعون... عزة... تعيشوا أنتو... لقد صرعها المرض... وانتقلت إلى رحمة الله.

الخاتمة

لم يدر حسونة كيف قادته خطاه إلى شاطئ البحر، الذي كان نور النهار قد بدأ ينحسر عنه فاكتسب الأفق شحوبًا كئيبًا، في صورة طالما رآها الناس في مثل ذلك الوقت على شواطئ البحار فكانت لكل منهم ردة فعل تتناسب مع حالته النفسية في تلك اللحظة.

بعضهم يرى فيها لوحة فريدة الجمال للطبيعة الساحرة، حيث تتداخل ألوان الشفق، لتلهم الشعراء والرسامين والمصورين لوحات فنية فذة.

وبعضهم يرى فيها تعبيرًا حيًا عن الحياة المائلة للأفول، فاليوم قد أوشك على أن يولي، والشمس التي ملأت النهار بنورها الساطع قد أخذت في الاختفاء فكأنه لم يكن هناك نور، وكأنه لم تكن هناك شمس، وكأن ما كان قد مضى مع الشمس التي لم يتبق من نورها سوى تلك الإشعاعات الملونة التي توشك، هي الأخرى، على الانحسار، لتترك مكانها للظلام... والسواد... والوحشة.

ولقد اتجه ذهن حسونة في الحال إلى البحر منذ أن أعلمه أبوه بما كان، وبأن عزة قد ذهبت إلى الملأ الأعلى... فشعر بحاجة شديدة إلى الاختلاء بنفسه، وترتيب خواطره، ومحاسبة نفسه فأين يمكن أن يتجه ذهنه، وهو ابن الصياد وعشير البحر وجاره، إلا إلى البحر، يبثه أفكاره ويزجي إليه بنجواه؟

وهكذا... راح يتمشى تارة، ويجلس على صخرة ناتئة فوق الخور تارة أخرى، وهو يفكر فيما سمعه من أبيه.

لقد روى له أبوه قصة وفاة ابنة الشيخ صديق بصوت متهدج وعبارات متقطعة، وكلمات ساذجة كان يقطع عباراتها ليؤكد لولده قناعته بأن هذه هي إرادة الله تعالى، وإن لكل أجل كتابًا، وإن الأعمار هي من قبل ومن بعد بيد الله الذي خلقها وحدد آجالها.

ترى... ماذا أراد أبوه أن يقول؟

أتراه كان يريد أن يبعد عن ذهن ولده أنه مسؤول، بشكل ما، عن موت الشابة الجميلة؟

أتراه يعتقد ـ بسذاجته ـ أن الموقف الحاسم الذي اتخذه حسونة من الفتاة ورفضه لعروض أبيها السخية هي السبب في انتهاء أجل الفتاة وموتها؟... وإن تكراره لعبارات الإيمان بأن الأعمار بيد الخالق هي لإبعاد تلك الفكرة عن ذهن ولده؟

كان حسونة يشعر بحزن عميق، وأسى جارف ملكا عليه نفسه... فلقد عزّ عليه أن تذبل تلك الزهرة النضرة، وأن يصبح التراب مآل جسدها الذي كان يضجّ بالحياة والحيوية والمرح.

ولكنه، قط، لم يشعر بأن له يدًا فيما حدث، فهو مع إيمانه بأن الأعمار بيد المولى، لم يشعر بأنه قد تصرف بطريقة خاطئة، أو أنه أساء إلى الفتاة بشيء كثيرًا كان أم قليلًا.

لقد روى له والده كيف نقلت عزة إلى المستشفى قبل يوم واحد من عودته وكيف تبين للأطباء أنها أصيبت بجلطة مفاجئة لم يتمكن الطب من أن يفعل شيئًا إزاءها.

وأشار الأب إلى أنه يعتقد أن الفتاة كانت تعاني من مرض القلب منذ فترة، وأنها كانت تكتم ما بها عن الجميع، وتدعي أن الألم الذي كانت تشعر به أحيانًا ليس سوى ألم عابر، وإن الأمر لم ينكشف إلا بعد أن برّح بها الألم، وفقدت الوعي ونقلت إلى المستشفى وهي في آخر رمق.

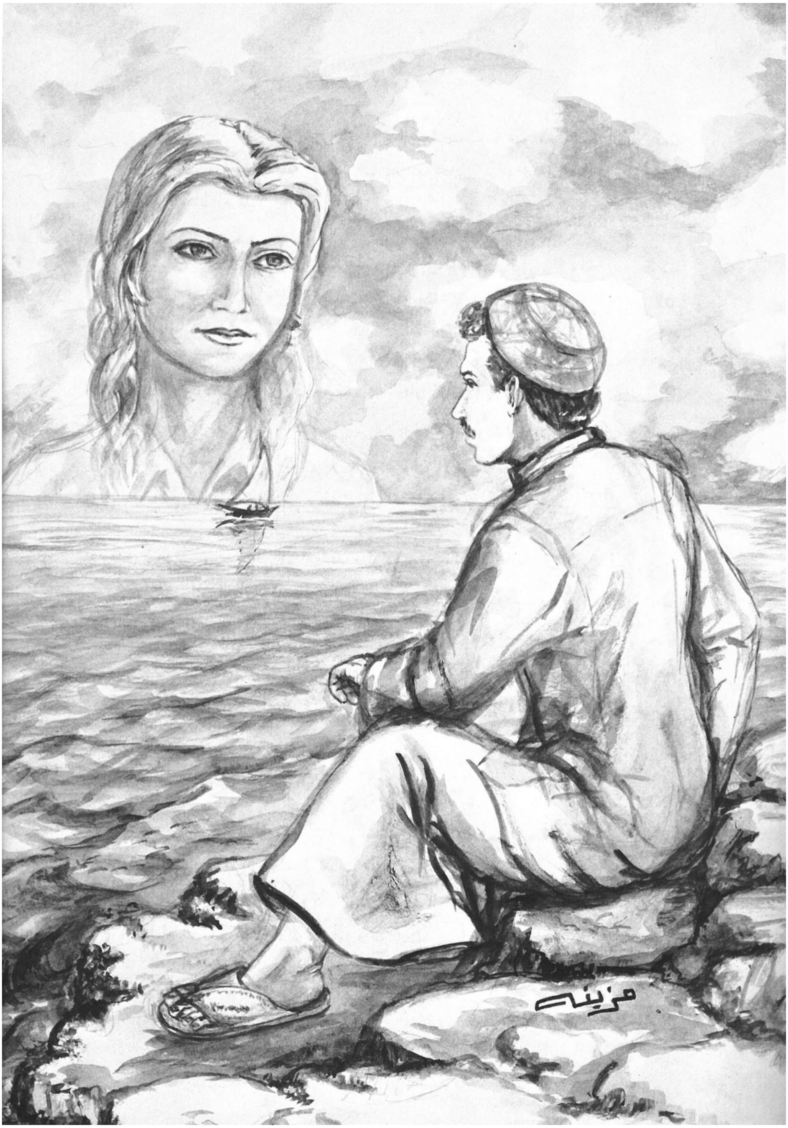
مزينه

وتذكر حسونة أن أمه قد سارعت إلى القول، بعد ان انتهى الأب من كلامه، إن الفتاة وقد باتت لا تستحق سوى الترحم وطلب الغفران قد أساءت إليه ـ يغفر الله لها ـ ووصفته بأوصاف لا تليق، وأنها سمعت كثيرًا من هذا القبيل على ألسنة نسوة أبلغتها ذلك، وكأنما الآن، على بساطتها وسذاجتها، تريد أن تنفي هي الأخرى من ذهنه ما قد يتبادر إليه من أن له يدًا في موت الفتاة.

وتنهد حسونة في ألم، وراح يتأمل البحر الذي كان، إذ ذاك، ساكنًا، تتموج صفحته برفق مع مرور النسيم المشبع بتلك الرائحة المميزة، وراح يستعيد في ذاكرته تلك الساعات التي قضاها بصحبة عزة، والكلمات التي تبادلاها، وراح يتساءل وكأنه يسأل البحر الرأي والمشورة، عما إذا كان قد أخطأ أم أصاب فيما كان من أمره مع الفتاة.

كان يشعر بشيء يعتصره من الأعماق... فهو يتمزق ما بين شعور بذنب لم يرتكبه... وشعور بالرضى لأنه اتخذ القرارت والمواقف المناسبة... فحب هذه الفتاة قد ولد مشوهًا... وكان مصيره الموت على أية حال.

كان صعبًا لحب من هذا النوع أن يعيش... ليس لأنه من جانب واحد... وليس لمجرد الفوارق المادية... ولكن لأنه نزوع إلى التملك.

لم يكن فيه سمو الحب وما يقتضيه من تضحيات يستعذبها المحب... كان فقاعة على السطح فذهب كما تذهب الحمى العارضة.

ولم ينكر حسونة على نفسه أن حزنه على الفتاة لم يكن حزن المحب الذي فقد أعز من يعرف... بل كان حزن من عرف شخصًا تخطفه الموت فحزن لأنه كان في مقتبل العمر.

إنه لا يشعر بألم الفراق... أو عذاب البعد الذي يتحدث عنه المحبون... وإنما يشعر بالرثاء... والألم شيء آخر غير الرثاء.

ورفع رأسه إلى السماء وابتهل في صمت:

ـ رب ارحمها. . . وارحمنا. . . فرحمتك أوسع من ذنوبنا.

واستدار عائدًا إلى السكن، وقد غرق قرص الشمس في أعماق الأفق وخيمت على المكان ظلمة دامسة.

❊ ❊ ❊

في اليوم التالي، كان حسونة يسير مع الناس الذين جاؤوا يشيعون الراحلة إلى مثواها الأخير، معتبرًا ذلك واجبًا عليه تجاهها، أكثر مما اعتبره مجاملة لأبيها وأهلها.

ولم يفته أن يلاحظ أن بعض الناس كانوا ينظرون إليه نظرات غريبة، ولكنه تجاهلها وسار مع المشيعين مركزًا نظراته على الأرض.

وفجأة سمع شخصًا يسير على مقربة منه يقول بصوت مسموع مخاطبًا زميله السائر إلى جانبه:

ـ لا إله إلا الله. . . دنيا. . . صحيح اللي استحوا ماتوا.

وشعر حسونة بقشعريرة تجتاح جسده، فهو قد فهم أن الرجل يعنيه بالذات، وأنه يعرف شيئًا عن أمره مع عزة، فأراد أن يعبّر عن استنكاره، لمشاركة حسونة في الجنازة بتلك العبارة التي خاطب بها زميله وهو يتعمد أن يسمعه حسونة.

وسأله زميله:

ـ تقصد إيه بكلامك هذا؟. . . وتقصد مين؟

فقال الرجل وهو يرفع صوته أكثر من ذي قبل وينظر إلى حسونة بطرف عينه:

ـ أقصد الناس إللي يقتلوا القتيل ويمشوا في جنازته. . . لا حول ولا قوة إلا بالله.

وتصاعدت الدماء إلى رأس حسونة حتى أحس بأذنيه وهما تكادان تلتهبان، وأدار بصره فيما حوله بحركة سريعة ليفاجأ بأن الناس كانوا يسددون نظراتهم إليه أكثر مما تصوّر، وإن الاتهام الصريح يطل من تلك النظرات.

وحاول أن يتجاهل تلك النظرات، وأن يواصل طريقه، ولكنه عجز، فلقد كان صعبًا عليه أن يحتمل عبارات التلميح ونظرات التجريح التي بدأها ذلك الرجل.

أحس بأنه يكاد يختنق، وأنه يريد الابتعاد بأسرع وقت.

وتباطأت خطواته، ليتقدمه من كان وراء، حتى إذا أصبح في الصف الأخير، انسل بخفة نحو أحد الأزقة الجانبية وراح يحث الخطى مبتعدًا دون أن يكون في ذهنه مكان معين يذهب إليه.

وراح يمشي ويمشي، وتلك العبارات اللاذعة تضج في رأسه.

وفجأة لاح البحر أمامه، بصفحته المتماوجة اللامعة، وهدوئه الرهيب.

وتوقف لحظات ليملأ صدره بهواء البحر... ثم واصل السير نحو الخور وقد شعر براحة غريبة تسري في كيانه... فلقد اتجه تلقائيًا نحو صديقه القديم ليلقي إليه بأحزانه ومتاعبه.

ومد يده... يعبث في مياه الخور وهو مستغرق في أفكاره.

ثم رفع عينيه وراح يحدق في الأفق.

وبدأ الدمع يترقرق في عينيه... فقد تذكر «الدخش»... وتمنى ألا يتسبب له في مزيد من الجراح.

❖ ❖ ❖

الفهرس

الموضوع	الصفحة

❊ الإهداء ....

❊ مقدمة ....

● أريده حبًا ....

● مولوي ....

● كريستينا ....

● الزهور الزرقاء ....

● جراح البحر ....